

بداية ونهاية

دولة إسرائيل

رؤية تاريخية ودينية

د / حسن عوض

بداية ونهاية
دولة إسرائيل
رؤية تاريخية ودينية

د. حسن عوض

الطبعة الثانية

(2002)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ
وَيُحَقِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ

بِإِذْنِ اللَّهِ
الْعَظِيمِ

اهداء

إلى كل باحثٍ عن الحقيقة في
مسألة بني إسرائيل ليطمئن
قلبه .

د/ حسن عوض

بناها في 2001/9/1

ت 013/ 243679

شكر واجب

الحمد لله ذي الفضل والمنّة أولاً وأخيراً الذي
وقفني وأعانني حتى يخرج كتابي هذا إلى النور .

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بالشكر
لواجب الأستاذ / عبد العزيز موافي (الناقد والشاعر
المعروف) .

والدكتور / سعيد شوقي (كلية الآداب جامعة
المنوفية) على ما قدمه لي من مراجع هامة أفادتني
كثيراً في دراستي هذه .

د/ حسن محوض

تقديم الطبعة (1)

حين شرعت فى كتابة هذا الكتاب كان فى نيتى تسطيره فى حدود مائة صفحة على الأكثر ولكن ما إن بدأت بتناول الموضوع وجدتني مدفوعا ومسوقا لأن أتناول الموضوع بكافة جوانبه ولكي يتفهم القارئ ما يحدث ويجرى على الساحة الآن عليه أولاً أن يرجع للماضى السحيق حيث النشأة والتواجد والأصول الأولى للشعب الإسرائيلى المعنى بدراستنا هذه . وخامرني خاطر أن أتحدث بإيجاز عن ذلك التاريخ القديم على أن استفيض بالتوسع فى الحديث إذا ما تناولت الحاضر ولكنني وجدت أنه من الأصوب أن تكون الإستفاضة فى الحديث والبحث من نصيب الماضى لأنه لو عرفت الماضى حق المعرفة تيسر معرفة الحاضر .

وبدأت فى تجميع المراجع ليشمل موضوع البحث والدراسة كافة جوانب الماضى فوجدتها تروبو وتزيد على المائة من المراجع الهامة التى اختصت بالموضوع . وفكرت فى أن أتعرض لكل هذه المراجع ولكنني - مرة أخرى - تخيرت منها الأشمل والأعم والأهم وواجهتني إشكالية أخرى فى كيفية التعرض لهذه المراجع هل اكتفى بأن أشير إليها ثم أعرضها بأسلوبى أنا ولكنني تراجعت سريعا عن ذلك لسبب هام وجوهري وهو أن تناول الموضوع بأسلوبى قد يفهم على أنه وجهة نظرى الخاصة كما أنه قد يقول قائل أننى أفرض

بصمّتى وأفكارى على العمل الذى أتناوله بالعرض ومن ثم فإننى - إذا ما حدث ذلك - إما أغفلت - عن عمد وقصد - رؤية المؤلف أو أننى لم أفهم ما قصده المؤلف جيداً أو أننى قد حرّفت المعنى وأخذته إلى الوجهة التى أريدها.

ولذا فقد أثرت أن أعرض ما جاء فى أى من تلك المراجع بإسلوب كاتبه دون تدخل منى إطلاقاً إيماناً وأمانه حتى تتشكل أمام القارئ رؤى مختلفة ووجهات نظر عديدة كلها تصبّ فى هدف واحد وهو تناول موضوع بنى إسرائيل بكافة جوانبه التاريخية والدينية والإنسانية والاجتماعية ... إلخ . ومن مجموع تلك الرؤى يصبح القارئ على دراية كاملة وشاملة .

ولا يغيب عن فطنة القارئ أن تاريخ بنى إسرائيل لم ينشأ منعزلاً عن باقى تواريخ الشعوب المعاصرة له . بل تأثر ذلك التاريخ - إلى حد كبير - بشعوب كثيرة أهمها الشعب المصرى القديم - والحديث - حيث كانت الهيمنة المصرية تشمل ممالك ودول الشام بالإضافة لغيرها من الأمم ولقرون طويلة وبالمثل مع باقى الأمم القديمة والمعاصرة كان التأثير واضحاً لذلك الشعب بمن حوله وبمن احتضنه داخل حدود دولته فى شتى النواحي الحياتية والثقافية وغيرها . أما من ناحية العرض الدينى خصوصاً من وجهة النظر الإسلامية فقد ارتأيت أن أتحدث بإسلوبى مشيراً إلى المراجع المختلفة

(القرآن الكريم وكتب التفسير والحديث وسير الأنبياء) كما تقتضيه الأمانة العلمية والأدبية .

وبعد تلك العروض المختلفة ستكون هناك وقفات - في فصول أخرى - مع التسمية والمؤامرة وغيرها ثم وجهة نظري الشخصية في الموضوع كله بشئى نواحيه وجوانبه لنصل إلى الرؤية الشاملة لذلك الشعب الذى أثار الكثير من الجدل والقلق قديماً وحديثاً تلك الرؤية الموضوعية بدون تجاوز أو تضليل أو افتراء .

وبعد - عزيزى القارئ - أرجو أن تتفهم جيداً لماذا بعض العروض - خصوصاً التاريخية والثقافية والسوسيولوجية - التى تناولت ذلك الشعب رغم أن عناوين تلك المراجع قد يوحى بعدم أهميتها بخصوص الموضوع الذى نتناوله . فلكى (نتعرف) جيداً على شخصٍ ما يجب أن نلّم بحياته الإجتماعية والثقافية وحياة من حوله فى محيط أسرته وأصدقائه حتى يكون التحليل دقيقاً و(المعرفة) صادقة والرؤية أمينة.

أرجو - عزيزى القارئ - أن تغفر لى إن أخطأت فى اجتهادى وتدعو لى إن أصبت.

وشكراً

د/ حسن محوس

بنها فى 2001/2/1م

تقديم الطبعة الثانية

بعد صدور الطبعة الأولى من دراستي هذه في 1/2/2001م أبلغني بعض القراء ببعض الملاحظات التي أفتعنتني بوجاهتها مما أوجب عليّ إما إضافة إيضاح مني لما أبداه القراء في طبعة جديدة وإما إعادة صياغة الأجزاء التي بدت غامضة أو مبهمة على بعض القراء . ولم تطل حيرتي كثيراً حيث وجدت أنه من الأفضل أن أعيد صياغة الجزء التاريخي (الفصل الثاني) على وجه الخصوص بطريقة أكثر سلاسة وأوضح تبياناً خصوصاً وأنتني كنت قد عرضت هذا الفصل تبعاً لما كانت تقع عليه يدي تبعاً من المراجع دون اعتبار لما تحتويه تلك المراجع من مادة دينية أو تاريخية. ولذا جاء ترتيب عرض تلك المراجع بطريقة بدت وكأنها قطع من الموزاييك رُتبت ووضعت بغير نظام ودون هارمونية من حيث المادة العلمية التي تحتوى عليها . وكان عذري في ذلك أن تلك المراجع لم أحصل عليها في آن واحد وإنما تم ذلك بطريقة قدرية لا دخل لي فيها . حيث استعرت بعضاً منها في أوقات مختلفة حسبما جاد به الأصدقاء مشكورين وحسبما عثرت على الباقي منها سواءً بالشراء في أوقات متفاوتة - حسب توافرها - أو بالبحث في سראيب ودهاليز مكتبتي الخاصة غير المرتبة لعدم وجود الوقت لدى لترتيبها من ناحية وللعبت بها مراراً من ناحية أخرى .

ولأنني كنت في عجلة من أمري لخروج هذه الدراسة في أسرع وقت ممكن لم أراع - مضطراً وآسفاً - تصنيف وترتيب المراجع بالصورة والكيفية التي سيجدها القارئ في هذه الطبعة (الثانية) حيث راعيت ذلك جيداً

بالإضافة إلى إعادة تبويب الفصل الثاني من الطبعة الأولى ليصبح فصليين بدأتهما بالرؤية الدينية / التاريخية . ثم الرؤية التاريخية / الدينية وفي كل منهما ما يخص تلك الرؤية دون تكرار للسرد - كما حدث في الطبعة الأولى - مع الأخذ في الاعتبار التوثيق والإحكام بهوامش لكل فصل - والفصول الأخرى أيضا - في آخر الفصل فيها تفصيلات تهتم القارئ المتخصص والباحث الجاد وفي ذات الوقت لا تشغل فكر القارئ العادي الذي لا يهتمه التوثيق ولا يهتمه معرفة المصدر بقدر ما تهتمه المعلومة والفكرة والرأي . إضافة إلى أنني راعيت عدم تكرار المعلومات أو سرد أفكار غير صحيحة في سياق عرض المراجع - أي مرجع - حتى لا يلتبس الأمر على القارئ فيظن أن ذلك صواباً. وهو ما نبهني إليه بعض القراء بعد صدور الطبعة الأولى خصوصاً وأني آليت على نفسي - وقتها - ألا أتدخل في أسلوب عرض المرجع - أي مرجع - وأيضاً تركت الأمر لفطنة القارئ لاستتباط الصواب من الخطأ وأشرت لبعض الأفكار الخاطئة في موضعها ولكن يبدو أن ذلك لم يكن جلياً بالصورة التي كنت أرومها وأتوقعها فحدث اللبس الشديد وحدث اللوم من بعض القراء على ذلك .

من أجل ذلك وجدت لزاماً عليّ أن أعيد صياغة هذا الجزء من دراستي بطريقة لا تحتمل الشك أو الالتباس وعلى منوال الرسائل العلمية ونهج الدراسات الأكاديمية وخصوصاً أن هذا الجزء يشكل أكثر من نصف الدراسة في الطبعة الأولى وكان هو المدخل لبقية الدراسة . أعدت الصياغة وأيضاً السرد والأفكار ليس في هذا الجزء وحده وإنما في كل الدراسة مع إضافة ما يلزم وحذف ما انتفى الغرض منه سواء للتكرار أو الوضوح في الشروح. وإعادة الصياغة استوجبته أيضاً وجود عدة مراجع إضافية خصوصاً

المراجع الدينية ولوجود قضايا طُرحت على الساحة بعد صدور الطبعة الأولى كنت طرفاً فيها . أولها مقالة للكاتب الإسلامى الكبير الأستاذ الدكتور / مصطفى محمود (سأنشر صورة ضوئية منها فى جزء الملاحق آخر الكتاب) بعنوان (إسرائيل طاعون العصر ودولة الارهاب) وهى منشورة فى الصفحة الثالثة عشرة من (جريدة الأهرام) المصرية الصادرة فى يوم السبت الموافق 23 يونيو عام 2001 م . وأيضاً نشرت لى مقالة فى جريدة (السياسى المصرى) فى عددها الصادر يوم الأحد الموافق 24 يونيو عام 2001 م . فى صفحتها الخامسة وأيضاً بعد لقاء ثقافى تليفزيونى معى فى قناة النيل الثقافية الفضائية (برنامج قمر النيل على الهواء) أذيع على الهواء مباشرة فى مساء يوم السبت الموافق 7 يوليو عام 2001 م . وأيضاً بعد عدة ندوات ثقافية ودينية فى منتديات ثقافية ومراكز إسلامية فى عدة مدن بجمهورية مصر العربية طُرح فيها العديد من الاستفسارات والأفكار والحوارات والتي وجدت نفسى بعدها فى حاجة إلى إضافة ما استجد من قضايا كنت أحسب أن الغالبية من الناس تعرفها وتعرف دقائقها غير أنني وجدت تشويشاً والتباساً وخطأً لدى الكثير من الناس .

لكل تلك الأمور وجدتني مدفوعاً لإخراج هذه الطبعة الثانية مع مراعاة - من جانبي - التدقيق الشديد فى تصويب الأخطاء المطبعية التي وردت فى الطبعة الأولى والتي حدث بسببها بعض الالتباس خصوصاً ما مس منها بعض كلمات من آي الذكر الحكيم فى مواضع مختلفة دون قصد منى بالقطع نتيجة لكثافة المجهود الذي قد بذلته أثناء إخراج الطبعة الأولى. منها على سبيل المثال كلمة (إذْ) وردت (إذا) وكلمة (إنه) وردت (إن) وكلمة (قال) وردت (قل) كما سقطت سهواً دون عمد بعض الحروف والكلمات فى قليل

جداً من آيات القرآن الكريم التي استشهدت بها في دراستي وقد فوجئت بتلك الأخطاء بعد طباعة الكتاب فحزنت كثيراً لذلك. وإنني إذ آلمني وأهمني ما حدث أعتذر عن ذلك بشدة وأرجو أن يلتبس لي القراء العذر فيما حدث لكثافة المجهود وإجهاد البصر ومشقة العمل الذي أدبته وحدي من الألف إلى الياء أي منذ الحصول على المراجع والمصادر المختلفة حتى الطباعة - بنفسني - مروراً بالعرض العلمي التاريخي والديني والمراجعة وعمل المونتاج الفني لأصول الكتاب .. الخ .

وإنني إذ أحمد الله كثيراً على تمام ذلك العمل في الطبعة الأولى وأيضاً في هذه الطبعة (الثانية) بعون الله وحده فإنني لا أجد ملجأ من الله إلا إليه طالباً العفو من الله الغفور الرحيم على ما حدث من أخطاء مطبعية لم أدركها في وقتها في بعض الكلمات من بعض آيات القرآن الكريم الذي اتخذته حكماً عدلاً في دراستي هذه عسى الله أن يتقبل مني هذا العمل ابتغاء وجه الكريم وابتغاء مرضاته جل شأنه في إعلاء كلمة الحق والصدق والدين فهو وحده جل علاه العليم بما في الصدور . اللهم إليك أنبت . وعليك - سبحانه - توكلت وإليك وحدك المرجع والمصير . اللهم فتقبل . اللهم فاشهد .

د . حسن عوض

عضو اتحاد كتاب مصر

بنها في 19/1/2001

الفصل الأول

رؤية دينية / تاريخية

مَهْيَدٌ

لنتناول المسألة الإسرائيلية / اليهودية / الصهيونية هناك طريقان أساسيان هما الدين والتاريخ . لأن التاريخ الإسرائيلي شديد الارتباط بالجانب الديني حيث تقوم الفكرة الصهيونية (السياسية) على التاريخ التوراتي (الديني) لتأصيل وترسيخ المفاهيم اليهودية انطلاقاً من نصوص العهد القديم الذي يرسم الخطى ويوجه دفعة المتلقي إلى الوجهة التي أرادها كاتبوا تلك النصوص سواء كان ذلك مطابقاً للتاريخ وموافقاً له أو منحياً للثوابت التي باح بها التاريخ وأثبتها لغير صالح النص التوراتي (المحرّف والمخلّق) .

والباحث المنصف الجاد ليس له إلا أن ينحّي النص التوراتي جانباً قبل أن يشرع في تناول الموضوع من كل جوانبه ليضمن السلامة لنتائجه وفيما يتوصل إليه لأسباب كثيرة سنتناولها في دراستنا هذه . أما إذا وضع الباحث النص التوراتي ليقوده إلى النتائج فإن كثيراً من تلك النتائج سيشوبها القصور إن لم يكن التضليل في أغلب الأحيان . وإضافة صفة القداسة على التاريخ الملفق وإلباسه ثوبا فضفاضاً ليشمل كل الطموحات اليهودية أمر غير علمي ولا موضوعي .

والطرح الديني / التاريخي أو التاريخي / الديني أيهما أولى بالبداية . لا يشكل معضلة فكرية اللهم إلا وضع النقاط فوق الحروف وإضاءة الطريق لاستجلاء المعالم واستنارة المسالك كي لا يضيع الجهد فيما لا طائل منه .

والعثرات - أية عثرات - إذا ما نحيناها في البدء نضمن سلامة المسير
وقلة المخاطر والمزالق . وتأصيل المنهج وتأطير النهج وإزاحة العثرات منذ
البدء أمر ضروري وهام للتوصل إلى نتائج يوثق بها ولا يشوبها الاعتوار .
ولذا فقد آثرت البدء بالطرح الديني / التاريخي حتى تتجلي ظلمات الميل
والزيغ والحَيْدَة عن الحق بعد ترسيخ المفاهيم وتأصيلها وتوثيقها بما هو أجدر
وما هو أحق .



مفهوم الدين والشرعة

خلق الله الإنسان واستخلفه في الأرض . ليعمرها بعدما سخر الله له كل شيء ليعينه على ذلك . فوفر له الهواء والماء والغذاء والكساء . وأعطاه العقل ليميز الأشياء . ويبتكر ما يعينه على الحياة والرقى والتطور . وأرسل له الرسل كل فترة من الزمان ليعيدوا له الاتزان في سعيه وحياته . وليهدوه إلى طريق الرشاد والخير كلما أغواه الشيطان وأضله . وليعلم الإنسان أن عليه واجبا هاما يلزمه طيلة حياته على الأرض . مطلوب منه حسن الأداء لتكون عاقبته حسنة وليرض عنه خالقه :

*** وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون *** ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين (1).

وتعاقب الرسل كان لتصحيح مسيرة الإنسان كلما حاد عن الطريق . طريق شكر الله وحده على نعمائه . طريق إفرااد الله بالعبادة لكونه - سبحانه - الأحق بذلك . دوننا عن باقي المخلوقات وتفرداً له وحده دون شريك . وكلن من رحمته جل شأنه أن ابتعث الرسل من الناس وأرسلهم بالدين الحق والشرعة التي تنظم حياتهم وتصلح أحوالهم في الدنيا والآخرة:

*** وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم (2)**

ومن رحمته أيضا - جل شأنه - أن بعث في كل أمة رسلا على مدار الزمان :

* ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت (3)
وهؤلاء الرسل هم سفراء من الله إلى البشر بالبشارة والنذر حتى لا
تكون هناك حجة من الناس يوم الحساب :
* رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وكان
الله عزيزاً حكيماً. (4)

ولم يترك الله - سبحانه - خلقه يهيمون فى الأرض على غير هدىّ يتعبدون
المخلوقات الأخرى فيلتمسون عندهم الأمن والرزق من دون الله . ومن هنا
كانت الحاجة المستمرة لابتعاث رسل الله لخلقهم أجمعين . فكانت الرسالات
والكتب المنزلة من قِبَلِ الله لتصحيح مسار البشرية كلما انحرفت عن جادة
الصواب وعبدت المخلوقات من دون الخالق اتباعاً لغواية وضلال الشيطان
عدو الإنسان الدائم والملازم له طيلة حياته . وكل هذه الرسالات - السماوية -
يبلغها أنبياء الله ورسله لأقوامهم لترسيم وترسيخ شريعة الله وأوامره ونواهيه
بما فيه خير الإنسان وصلاحه فى الدنيا والآخرة . والديانات والرسالات
السماوية ليست تاريخاً للشعوب أو القبائل بقدر ما هي منهاج حياة ونبراس هداية
وعظة وعبرة لغيرها من الأمم . وإقناع الناس بصدق النبوة أو الرسالة تكون
هناك الحاجة الماسة إلى إظهار المعجزات والآيات من قِبَلِ الخالق للدلالة على
أن الأمر من عند الله لا من عند غيره . فنرى على مسيرة البشرية معجزات
للرسل والأنبياء تنتهى بانتهاء النبوة أو الرسالة وتظل عالقة - المعجزات - فى
الأذهان تتناقلها الأجيال حتى تنسى بمضى العهد وطول الأمد . فتأتى رسالة
أو نبوة أخرى لتعيد تأكيد ماسبق وتذكّر الناس بحق الله عليهم من إفراده
بالعبودية وتنزيهه عن الشريك والند . وهكذا تستمر مسيرة البشرية على مر
الزمان وعند غياب الوازع والوعى الدينى واتباع الهوى تتحرف المسيرة ليتخذ
كل إنسان معبوداً له من دون الله . ويتبع - حينئذ - هواه وما يمليه عليه عقله

ورغباته ليتمثل له معبوداً ويبتدع له شعيرة وطقوساً يظن فيها الرشد وينتظر من معبوده - الوثن - القبول والنجاح والفلاح فيما يسعى إليه ويبتغيه بظنه. وتنشأ تبعاً لذلك الأساطير والخرافات والشعائر الباطلة .

فالأساطير فى حقيقتها بدأت كفكرة يشيعها الخوف من المجهول والتماس المدد والعون والتأييد انقاء للشُرور وجلباً للخيرات. وبتعدد الحاجة تعددت المعبودات والآلهة وتعددت شعائر استرضائها والتزلف إليها واستجلابها وقت الحاجة إليها. فالشعيرة ربما لا تتصل بعقيدة صارمة بل أسطورة كما يظهر ذلك جلياً فى اليونان القديمة . إلا أن الأساطير المتعلقة ببعض المقدسات والطقوس الفردية مجرد جزء من المؤسسة الدينية مع ملاحظة أن العابد . كان مخيراً بين عدة تفسيرات للشيء نفسه ولم يكن الإيمان بسلسلة من الأساطير أمراً إلزامياً باعتباره جزءاً من الدين ولا كان يفترض أن يكتسب المرء بإيمانه مكانة دينية ما أو يحظى بعطف الآلهة . وعليه فالأساطير فى كل الحالات كانت تستقى من الشعيرة لا العكس . فالشعيرة الدينية ثابتة وإلزامية أما الأسطورة فمتغيرة ومتروكة لاختيار العابد . ومن المسلم به أن الأسطورة ليست تفسيراً لأصل الشعيرة الدينية بالنسبة لمن لا يؤمن بأنها رواية لبعض الأحداث الحقيقية . وعليه فعند دراسة الديانات القديمة ينبغى علينا أن نبدأ لا بالأسطورة بل بالشعيرة الدينية والعرف الموروث . وكذلك لا ينبغى أن نبدأ بالتساؤل عما ورد عن الآلهة بل عن ماهية المؤسسات الدينية العاملة وكيفية صوغها لحياة أتباعها (5).

ففى المجتمعات القبلية أو القومية فى العالم القديم لم يكن هناك فارق بين الدين والحياة اليومية . فكان كل فعل من الأفعال الاجتماعية يتضمن إشارة إلى الآلهة والبشر على السواء إذ لم يكن الكيان الاجتماعي يتألف من البشر وحدهم

بل من الآلهة والبشر معا . إلا أن الديانة التقليدية العادية التى اعتنقها الناس فى اليونان وروما على السواء لم تخرج عن الطابع البدائي بدرجة كبيرة . وكان التفكك النهائي للديانة القديمة فى البلاد ذات الحضارة الإغريقية والإيطالية قد جاء أولا على يد الفلاسفة ثم الديانة المسيحية . أما فى المجتمعات الحرة القديمة فى الأراضى السامية الشمالية فقد كان تأثير الدين والمجتمع المدني على السواء . فلم يعد مجتمع الدين الواحد يتطابق مع الدولة . واستمر الترابط القديم بين الحياتين المدنية والدينية ولكن بصورة مختلفة . ولما كانت المجتمعات السامية القديمة تتسم بصغر الحجم والتباعد بسبب الضغائن المستمرة فيما بينها لذا كان لابد من عودة الخصوصية الإقليمية التى ميزت المجتمع السياسى إلى الظهور من جديد فى مجال بناء الدين على مبدأ التضامن بين الآلهة وأتباعهم . فأعداء الإله وأعداء شعبه سواء . ومادامت آلهة المجتمعات السامية على اختلافها كانت تشارك على هذا النحو فى العداوات الموروثة لدى أتباعهم كان من المستحيل على الفرد أن يغير ديانته دون تغيير قوميته كما لم يكن من الممكن لمجتمع بأكمله أن يغير ديانته دون أن يذوب فى جنس شعب آخر .

وكان الاندماج الاجتماعى بين مجتمعين يؤدى إلى اندماج دينى مواز . وكان هذا يحدث بطريقتين :

1- إلهان يندمجان ليصبحا إلهاً واحداً . (جمعت غالبية بنى إسرائيل بين يَهُوَه فى ديانته المحلية وبعُليم إله المرتفعات عند الكنعانيين . ونقلوا عنهم طقوس المزارات المقدسة فى عبادته دون أن يروا فى ذلك ما ينم عن تراجع ولائهم ليَهُوَه عن ذى قبل) .

2- اندماج أتباع الآلهة فى دولة موحدة فتندمج الآلهة على اختلافها .
(كان تميز الآلهة أكبر من أن يفقدها تفردا واستقلاليتها) (6) .

وفى العالم المصري القديم لا يستطيع المرء أن يلم إماماً كافياً بأسماء الآلهة المصرية القديمة التى جمعها عالم المصريات الفرنسي (بيرييه) فيما أسماه مجمع (بانثيون) الآلهة المصرية (على غرار البانثيون اليوناني) إذ أن عدد هذه الآلهة يربو على الألفين . ولا يهولن القارئ هذا الرقم الضخم فترسب فى وجدانه تلك الفكرة الفجة بأن الديانة المصرية لم تكن أكثر من ديانة بدائية ذلك لأن الكثيرين من علماء المصريات - بعد دراسة مستفيضة للنصوص الدينية التى تحت أيدينا - قد أعلنوا بوضوح أن الديانة المصرية قد تخلصت منذ زمن مبكر - قبل أى شعب آخر - من طابعها البدائي ومضت قُدماً نحو التوحيد الإلهي ووصلت إلى أرقى التصورات العقلية فيما يتعلق بطبيعة الإله الخالق وعلاقته بالمخلوقات والثواب والعقاب وما بعد الموت . وهو الميراث الذي أخذه العبرانيون والإغريق وصدّروه بإسمهم . باسم الدين أو الفلسفة . وإذا كانت الديانة المصرية قد ظلت تحتفظ حتى عصر متأخر بأسماء الآلهة المحلية فإن هذه الآلهة كان دورها يقتصر على الدور الذى يلعبه الآن القديسون والأولياء والشفيعون فى عصرنا الراهن دون أن يمس ذلك وحدانية الله أو سمو الأخلاقي للدين (7) .

وكان من أهم الآلهة المصرية القديمة :

1- أوزيريس (أوزير) :

وهو إله الموتى . وهو أحد (سادس) أعضاء التاسوع الإلهي فى أون [نمو ، شو ، تفنوت ، سب ، نوت ، أوزيريس ، إيزيس ، ست ، نفتيس]

وقد جسّد (أوزيريس) فى طبيعة الحياة الأبدية وسرعان ما أضيفت عليه

صفات (رع) و (أتم) وغيرهما من الآلهة . وصار فى النهاية إلهاً للموتى وللأحياء أيضاً وسيداً للأبدية ورئيساً لمحكمة الآلهة فى العالم الآخر . وكتجسيد للموت والبعث كان يروق للمصري أن يتوحد به بعد موته لدرجة أنه لا يُخاطب بإسمه بعد الموت إلا مقترناً باسم أوزيريس ، وثالوث (أوزيريس - إيزيس - حورس) وهو ما يسمى بالثالوث الأوزيرى كانت تُصنع له التماثيل الصغيرة الدقيقة التى يحملها المصري معه أينما ذهب . وهذا الثالوث قد تجاوز حدود مصر إلى بلاد الإغريق والرومان وحتى الهند شرقاً وفرنسا غرباً . وظلت طقوس العبادة تمارس حتى ظهور المسيحية بأكثر من أربعة قرون .

2- إيزيس (إزيت) :

وهى زوجة (أوزيريس) الوفية وأم (حورس) وابنة (سب) و(نوت) . ووردت أوصافها فى مختلف النصوص على أنها الإلهة العظيمة والأم المقدسة . وفى عصر متأخر سميت أم الآلهة وكانت تُمثل غالباً على هيئة امرأة ترضع طفلاً (حورس) وكانت البقرة حيوانها المقدس وقد تحولت من إلهة محلية (فى الدلتا) إلى إلهة عالمية غزت العالم القديم .

3- حورس (حرو ، حرور) :

وهو الإله الشمسي البالغ القدم ويمثل على هيئة صقر وهو أول كائن عبده المصريون . أما حورس بن إيزيس فيمثل دائماً على هيئة طفل وإصبعه فى فمه .

4- ست (ساتى ، سوتخ) :

وهو فى الأسطورة الأوزيرية يمثل إله الشر الذى يجب محاربته أو مداهنته وتجنب شره . وهو معبود الهكسوس .

5- نفتيس (نبت - هات ، نبت حت) :

وهى ابنة (سب) و (نوت) شقيقة أوزيريس وإيزيس وشقيقة وزوجه (ست) .

6- أنوبيس (إنبو) :

سيد الجبانة ورسول (أوزيريس) وحامي المومياء . ونراه حارساً وضابطاً للميزان فى النقوش ويصوّر على هيئة إنسان برأس ابن آوى (الثعلب) .

7- تحوتى (تحوت ، توت) :

وهو إله الحكمة وهو الذى نطق بالكلمات التى أوجدت العالم وقام بتنفيذها الإلهان (بتاح) و (خنيمو) . وفى اللاهوت القديم اعتبر خالق نفسه والإله العظيم للأرض والسماء والبحر والهواء . وينسب إليه الإغريق كل ما يتعلق بالسحر أو الهرمزية (نسبة إلى نظيره اليوناني هرمز) . وهذه القدرة السحرية تفسر حرص المتوفى على شفاعته لأنه القادر على حمايته من القوى الشريرة التى تعترضه وهو الذى يمنح المتوفى ملايين السنوات من الخلود . وفى الحياة الآخوية يلعب دور القاضي ويظهر غالباً فى صورة إنسان برأس طائر أبى منجل (أبيس) محاطاً بتاج أو قرص يحتضنه قرنان قابضاً على علامة الحياة (الأنخ) فى يده اليمنى وفى يده اليسرى رمز السيادة . وأحياناً يمسك بالمحبرة ورمز الهلال البيضاءوى . وكثيراً ما يظهر فى صورة قرد ممسكاً بأدوات الكتابة .

8- ماعت :

وتشمل معان متعددة مثل الحق والعدل والصدق والحقيقة والاستقامة والجوهر وما لا يقبل التبدل أو التغير .. الخ .

وماعت ابنة (رع) وزوجة (تحوت) وتُجسّد على هيئة سيدة جالسة تحمل على رأسها ريشة العدل والحق .

وتظهر فى صورتين (فى المحاكمة) إحداهما تجسد القانون الوضعى والأخرى تمثل القانون الإلهي أو الإنسانى أو الأخلاقى .

9-حتحور (حت - حرو ، حت - حرت) :

إلهة الحب والجمال والسعادة . تصورها المصريون على هيئة بقرة كان (حورس) إله الشمس يشرق ويغرب بين كفليها . واعتبرها الإغريق مثيلة للإلهة (أفروديت) . وكانت على صورة لبؤة متوحشة تلتهم لحم أعدائها . وقد وجد المصريون أن طبيعتها الجميلة الوداعة لا تتعارض مع صورتها المخيفة تلك التى تشبه الإلهة (سخمت) . فالحب يجمع بين النقيضين معا .

وتنقسم الديانات إلى :

1- ديانات روحية : وهى تلك التى يبعث بها الله الرسل . (ديانات سامية) مثل الديانة المسيحية واليهودية وفكرة الأبوة الإلهية فيها منبئة عن الأساس المادى للأبوة الطبيعية (البنوة لله مسألة تشريف ومينة) .

2- ديانات مادية : وهى تلك الديانات الوثنية التى تكون فيها أبوة الإله أبوة مادية (عند اليونان) (ديانات آرية) . وللدلالة على الفارق الجوهرى بين المفهومين الآرى والسامى فيما يتعلق بالطبيعة الإلهية يقال أن الأساطير الآرية التى تتصرف الآلهة فيها كالبشر ويختلطون بهم بل ويشتركون معهم فى حياة واحدة لا مكان لها فى الديانة السامية . إلا أن هذه الفرضية لا أساس لها . وباستثناء الأدب المسمارى البابلى فليست هناك

كتابات قديمة عن الوثنية السامية . غير أن الساميين لم يكن لديهم شعور ملحمي أسطوري مقارنة بنظيره عند اليونان (الإغريق) إلا أن العبقرية السامية كان يشوبها القصور فى مجال الإبداع المنظم والمثابر (الشعر العربى القديم ليس له صلة كبيرة بالدين وليست هناك أساطير كثيرة فى أشعار الجزيرة العربية الوثنية) .

وفى واحدة من الآثار القليلة من الأساطير القديمة تم زرعها ضمن النقوش العبرية دون تغيير نقرأ عن أبناء الآلهة ممن اتخذوا زوجات من بنات البشر وأصبحوا آباءً لأبطال العصور الغابرة (إزدوبارفى الأساطير البابلية وهو من لم تأنف الإلهة عشتار من أن تمنحه نفسها) .

والشعوب السامية القديمة تزعم انتسابها لجد واحد وتنتشر فى ديانتهم القومية فكرة فحواها أن الإله وأتباعه ينتمون لأصل واحد وهو ما يُعدّ دليلاً قوياً على أن أسس ديانة الساميين قد وضعت قبل بدء التاريخ المكتوب بحقب بعيدة فى عصور سحيقة كانت القرابة فيها هى النمط الوحيد المعترف به للعلاقة الودية بين أفراد بنى البشر ثم بينهم وبين كيان غيبى ما . ويلاحظ فى مختلف أركان المنطقة السامية أن هناك آلهة كانت فى الأصل إناثاً ثم غيروا جنسهم وتحولوا إلى آلهة ذكور (عشتار تحولت إلى عشتَر) .

ويلاحظ أيضاً أن القبائل الرعوية البدائية التى كانت قطعانها تتكون من أبقر وثيران كانت تعتبر أن البقرة والثور من الكائنات المقدسة التى لم تكن لتؤكل أو لتذبح أو لتقتل فى أقدم العصور إلا كقرايين .

ولا يمكن الزعم بأن الدين القديم كقوة اجتماعية وسياسية قد فشل فى أداء مهمته فى المراحل الأولى من تطور المجتمع السامى إلا أن صلاته بنظام

الأسرة والعشيرة التقليدية الموروثة كانت أوثق من أن يحتفظ بحيويته الكاملة مع انهيار النظام الاجتماعي . وحين تغيرت حدود الشعوب (بالهجرة القبلية أو بالترحيل الجماعي كما في سياسة الآشوريين الغزاة) كان من الطبيعي بالنسبة للقادمين الجدد أن يسعوا إلى الانضمام إلى المعابد التي يُعبد فيها إله البلاد المحلي وكان يفلحون في ذلك بتقديم أنفسهم بإعتبارهم رعايا له (لم يكن رعايا الإله يقفون بالضرورة من أتباعه القدامى موقف التبعية السياسية) إلا أن العلاقة بين أتباع الإله الجدد والإله لم تعد كما كانت في النظام القومي القديم بل فقدت قدراً من ثباتها واستقلالياتها (بالخضوع من جانب الأتباع والسخاء من جانب الإله) . وعندما كانت العلاقة بين الإنسان والإله تزداد تباعداً بدأ البشر يزدادون خوفاً من الإله ويبدون مزيداً من المذلة في تعبدهم له في حين أن مشاعر الإخلاص كانت تنمو باضطراد نتيجة للاعتقاد بأن رضا الإله وعطفه كان مئة منه لا حقاً مكتسباً . (نجد فكرة تبعية بنى إسرائيل للرب وإقامتهم في أرض لاحقاً لهم فيها معتمدين على سخائه اعتماداً مطلقاً كما ورد ذلك في التوراة) أي التقوى المشوبة بالجبن و التي ميزت اليهودية في حقبة ما بعد السبي البابلي عن بنى إسرائيل القديمة . كان الرعايا الجدد يتم قبولهم على أساس حسن سلوكهم⁽⁸⁾ . وكانت روح الشرعية في اليهودية ترتبط بالجدية الأخلاقية الحقة أما عند الساميين الوثنيين فنجد نفس روح الشرعية ونفس الشك الخفي تجاه موقف الإنسان من الإله الذي يحتاج إلى حمايته في حين أن الفكرة عما يرضى الإله لم تكن قد ارتفعت لنفس المستوى الأخلاقي بعد .

وكانت الفكرة العبرية عن الملكية الإلهية (تبعية الفرد للإله) باعتبار الرب إلهاً يحب شعبه تتوقف على ناموس الحق المطلق . واندمجت المفاهيم

عند بنى إسرائيل وحدهم فى ديانة الإله القومي السائدة بينهم .

ومن المعلوم أن كل الأفعال الدينية القديمة لها تجسيد مادي . وهو أمر لم يُترك لاختيار العابد بل تحكمه قواعد محددة . فهي لا تمارس إلا فى أماكن محددة وفى أوقات محددة وبأدوات مادية محددة وفقا لآليات محددة⁽⁹⁾. أى أن البشر لا يستطيعون إقامة حوار مع الآلهة إلا من خلال أشياء مادية محددة.

وفى الأساطير البابلية نجد أن الإنسان والحيوان خُلقا من طين ممزوج بدم إله كما أن قصص انحدار الإنسان من نسل الآلهة عند اليونان تقف جنباً إلى جنب مع الأساطير القديمة التي تحكى عن نشأة الإنسان من الشجر أو الصخور أو عن أجناس من البشر وُلِدوا من أم شجرة وأب إله . ولنفس هذه المرحلة من مراحل التطور الفكرى تنتمى حكايات مسخ البشر فى صورة حيوانات (أساطير الجزيرة العربية وأساطير المسخ عند ساميى الشمال التى وصلت إلينا فى أشكالها الإغريقية) وأيضاً فى الفن التشكيلي يتضح الوله بالوحوش الخرافية التى يكون نصفها بشرياً ونصفها الآخر حيوانياً (فى كلدانيا وبابل وفينيقيا) .

ولعل تأثير هذه الأفكار على الأنساق الدينية المبكرة أمر يمكن تناوله فى نقطتين :

- 1- إن نطاق الغيبىات شاسع لدرجة أن الدين القديم يحاول أن يتعامل مع كل مظاهره (السحر وقراءة الغيب) .

2- لم تكن للآلهة سمات تميزها بوضوح من حيث طبيعتها عن أنساق الكائنات الشيطانية الأدنى أو حتى عن المحسوسات التي كان يُعتقد أن لها صفات شيطانية وتكمن سمتهم المميزة في علاقتهم بالإنسان (أتباعهم) .

ويمكن النظر في العلاقات المحلية بالآلهة من ناحيتين :

أ- كانت قوة نشاط الآلهة ونطاق سيطرتها يُعتقد أنه محدود ببعض القيود المحلية .

ب- كان من المعتقد أن الآلهة تتخذ من المعابد سكناً ومقاماً لها.

وهذان المفهومان لا ينفصلان حيث كان نطاق السلطة والنفوذ الإلهيين يحيط بالمعبد مقر الإله (كنعان أرض الرب يَهُوه وشعب بنى إسرائيل شعب الرب يَهُوه)⁽¹⁰⁾

وأن الإله لا يُعبد خارج أرضه (تعتبر البلاد الأجنبية في لغة العهد القديم أرضاً نجسه)⁽¹¹⁾.

وكان يُعتقد في عقيدة القدماء أن الآلهة الوثنية لم تكن قادرة على كل شيء بل يُعتقد أنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً إلا في وجود كهنتها وأن نطاق سيادتها ونفوذها الدائم ينحصر في مقرها .

وفي أقدم أشعار العبرانيين حين يَحْلِقُ الرب فوق أرضه - في العاصفة - فإنه لا ينطلق من السماء بل من جبل الطور وكان إيجاد أقداس جديدة وإنشاء هياكل جديدة ومعابد لا يتم إلا في المكان الذي قَدَّمَ الإله دليلاً قاطعاً على وجوده فيه (بالتجلي لأتباعه) . وكان التجلي في الأسفار الأولى من التوراة

يؤخذ دائما على أنه مبرر قوى لتقديم القرابين في نفس المكان . فنجد
(شاول) بنى مذبحاً في موقع انتصاره على الفلسطينيين⁽¹²⁾ . وأيضاً يقدم
(جدعون ومنوح) قربانا في المكان الذي تلقيا فيه رسالة من الرب⁽¹³⁾ .

والرب في ديانة العبرانيين ليس قريبا في كل مكان وزمان - كما
يشيرون - وليس شرطاً أن تكون التجليات حديثة بل يفترض أنها حدثت من
قبل ومن المفترض أن يتجلى الرب عندها مرة أخرى . فحين يرى يعقوب
(إسرائيل) في المنام تجليا إلهيا في (بيت إيل) يستنتج أن الرب حاضرا
هناك وأن المكان هو (بيت الرب وبوابة السماء) ولذا فقد ظل (بيت إيل)
يُعدّ أحد الأقداس الكبرى حتى السبي البابلي (ومثلها بيت شكيم وبيرسبع)
وكانت تلك الأماكن تُعدّ وثنية في نظر الأنبياء (لأن الرب قريب يجيب
دعوات البشر في كل مكان والرب يعبد في كل مكان) .

وللشياطين - كما للآلهة - أقداس خاصة . وهي أماكن لها رهبتها
وخطرهما عند الأتباع . والجن غرباء وبالتالي فهم أعداء (وفقا لقانون
الصحراء والبدواة) في حين أن الإله في نظر أتباعه الذين يترددون على
قدسه قوة معروفة وصديقة .

وانتصار الآلهة على الشياطين كانتصار الإنسان على الوحوش لا بد وقد
حدث بصورة تدريجية ولم يستقر إلا في المرحلة الزراعية حيث أصبح إله
الجماعة هو نفسه سيد الأرض وواهب كل ما بها من طيبات وخيرات .
وببلوغ هذه المرحلة فإن الشياطين والأرواح الخبيثة إما طردت إلى الخرائب
والأماكن المهجورة أو تراجعت مكانتها لتصبح كائنات تابعة لا يحسب لها
حساب إلا في الغيبات الفردية الخاصة دون أن تكون لها صلة بالديانة العامة

(وهذا هو الرأى الذى شاع بين العبرانيين القدماء والذى ساد أيضا - بالطبع بين جيرانهم الكنعانيين) . والفارق بين ماهو (مقدس) وما هو (عادى) من أهم النقاط فى الدين القديم .

وقداسة الآلهة تعبير يصعب حصره فى معنى محدد بمعزل عن قدسية بيئته المادية المحيطة به وتتجلى فى الحرمة التى تُضفى على الأشخاص والمواضع والأشياء والأوقات التى يتم التواصل بين الآلهة والبشر من خلالها (ممارسة الكهانة أو الطقوس أو الصلوات) .

وكانت القرابين فى الديانة القديمة وسيلة من وسائل الدعاء والتضرع وكان العابد حين يقدم قربانه يتطلع إلى دليل ملموس ينم عن إجابة دعائه (كأن يغوص القربان فى أعماق الآبار وعيون المياه المقدسة أو المحرمة إذا ما حاز القبول أما إذا طفا على السطح فلا قبول للدعاء والطلب) . والطقوس الدينية العامة عند الساميين - فى الدين القديم - يتم التعبير عنها وممارستها لبيان مدى الثقة فى العناية الإلهية التى تخص الجماعة فى مهامها وأهدافها العامة . (يلتقى أعضاء الجماعة لتناول الطعام والشراب - مثلا - على مائدة إلههم فيتجدد إحساسهم أنه معهم) . وطبقا لذلك فإن الجماعة حين تتحد فى كيان واحد مع نفسها (أخوة العقيدة والدين) وفى كيان واحد مع إلهها فإن لها أن تفعل ما تشاء مع كل من هم خارجها طبقا لما تنص عليه تلك الديانة. فأصدقاءها أصدقاء الإله وأعداؤها هم أعداء الإله . وفى العهد القديم نجد أن المائدة المشتركة كانت تعد لإبرام التحالفات (التحالف كان ملزماً غير قابل للنقض) .

والقرايين - فى الأصل - يلتهمها الأتباع وشيئاً فشيئاً توقف التهام بعض أجزاء القرايين العادية وكل لحم القرايين غير العادية (قرايين التكفير) . وما كان يلتهم كان يُحرق وبمرور الزمن أصبح يُحرق على المذبح ويعتبر منحة للإله. وكان الهدف العام للطقس (القربان) هو الحفاظ على رباط القدسية المادية التى تحفظ وحدة الجماعة الدينية (القرايين العادية) .

وهناك نوع من (القرايين المقدسة) تُقدم فى عدد من المناسبات دون وجود إحساس بالخطيئة (مثل استهلال الحملة العسكرية بتقدمة قربان يُحرق وكان الغرض منه مباركة المحاربين) (قديش ملحمة) وهو ما كان يُعد من أشد القرايين قدسية فى إسرائيل القديمة .

والقرايين التكفيرية السنوية التى كان يُحتفى بها بطقوس استثنائية ينبغى إرجاع أصلها الأول إلى إحساس متنام بالخطيئة أو الخوف من غضب الإله (مثل عيد الفصح العبرانى فى شهر نيسان / أبريل فى الربيع وعيد الغفران الكبير) . وقرايين التكفير الخاصة (الفردية) التى يقدمها الفرد عن خطاياها تعد طقساً دينياً حديثاً نسبياً.



اليهودية دين ودينا

كشف (جاك أوستراك) الطبيب الفرنسي (1684 - 1766م) عن وجود اسمين مختلفين للإله في سفر الخروج : إلهوهم ، يَهُوَه .

واكتشف (أوستراك) أن الأجزاء التي تستخدم اسم (إلهوهم) تزوى رواية مختلفة عن تلك التي تستخدم اسم (يَهُوَه) . وأنه قد أُستخدم اسم (إيل) في سفر التكوين أكثر من اسم (يَهُوَه) ومنه جاءت تسميات إسرائيل وإسماعيل . والمعروف أن الإلهوهم (الآلهة) هو جمع للإسم (إيل) أى الإله السامي .

والتوراة إسم يُطلق مجازاً على أسفار العهد القديم لكنه فى الحقيقة يختص بالأسفار الخمسة الأولى وهى :

التكوين - الخروج - اللاويين - العدد - التثنية (تثنية الاشتراع) .

وكلمة (سِفْر) معناها كتاب وجمعها أسفار وأُصطلح على إطلاق الاسم على جزء مستقل من أجزاء العهد القديم . وهذا الجزء يُجمع تحت عنوان يحمل دلالة حدث هام مثل التكوين (خلق السماوات والأرض) أو الخروج (خروج بنى إسرائيل مع موسى من مصر) أو يسمى على (إسم قبيلة أو سبط يهودى) مثل اللاويين . أو (شخص) مثل أيوب وعوبديا وإرميا أو إسم غير محدد مثل المزامير والجامعة وأخبار الأيام والملوك ... الخ .

كذلك (العهد القديم) أطلق على هذا الجزء من (الكتاب المقدس) تمييزاً له عن العهد الجديد (الإنجيل) كتاب المسيحيين المقدس .

والنص العبراني الذي بين أيدينا اليوم يضم تسع وثلاثون سِفراً تُقسم إلى ثلاثة أقسام هي :

التوراة - الأنبياء - الكتب .

وهذه الأقسام الثلاثة تسمى بالعبرية تناخ أو تنخ Tankh

(الاسم مشتق من الحروف الأولى للكلمات العبرية (توراة نبيئيم - كتوبيم) كذلك يسمى هذا الجزء المعتمد عند اليهود باسم (المقرا) أى النص المقروء و (المصورة) أو المصورات نسبة إلى العلماء المصورين الذين بحثوا فى الحروف الصوتية للغة العبرية . والنص النهائى (للتوراة الماصورية) انتهى وضعه فى القرن الثامن الميلادي وهو يختلف اختلافاً طفيفاً عن الترجمة اليونانية التى ترجمها حوالي سبعين شخصاً فسمى (النص السبعينى) وقد وضع هذا النص خلال القرن الثالث ق . م . وبشئ من التفصيل فإن الأسفار الخمسة الأولى هي :

1- التكوين : وتبدأ بحكاية خلق الكون فتسرد سلالة الإنسان منذ

آدم مروراً بقصص نوح والطوفان وسيرة إبراهيم (عليه السلام) من وجهة نظر يهودية ثم سيرة ذريته مع التركيز على إسحاق ويعقوب (الذى يسمى فيما بعد بإسرائيل) وهجرة يعقوب وراء ابنه يوسف إلى مصر .

2- **الخروج :** ويقص محنة بنى إسرائيل فى مصر إلى أن بعث فيهم موسى فيقودهم للخروج من مصر إلى برية سيناء حيث يتباهون فيها أربعين عاما إلى أن يدخلوا الأرض المقدسة بقيادة يشوع بن نون فتى موسى (عليه السلام) وقائد جيوشه.

3- **اللاويين :** ويركز على الشرائع الكهنوتية ويرسخ مكانا خاصا للكهنة فى شعب إسرائيل .

4- **العدد :** وينظم بنى إسرائيل ويحصىهم حسب إرادة الإله ثم يسرد جانباً من سيرة موسى (عليه السلام) وتذمرات بنى إسرائيل عليه .

5- **تثنية الاشتراع (التثنية) :** وفيه يتم إعادة نص الشريعة التى وردت فى سفر اللاويين بصيغة أخرى فيجنىح بشكل غير مباشر لإقرار الحكم الملكوتى فى إسرائيل . وقد دون هذا السفر فى القرن الثامن ق. م ويقال أن التشريعات التى وردت مأخوذة عن أمم أخرى (الشوميريين والأكاديين والمصريين) كما سنرى فيما بعد.

ويتألف قسم الأنبياء من أسفار يشوع والقضاة وصموئيل الأول والثانى والملوك الأول والثانى وأخبار الأيام الأول والثانى وإشعيا وإرميا وحزقيال وهوشع ويوثيل وعاموس ويونان وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وحجاي وزكريا وملاخى على الترتيب . ويتضمن هذا القسم (الأنبياء) باقى تاريخ العبريين بعد موت موسى (عليه السلام) وحتى السبى البابلى فيسرد تاريخ استيلاء العبرانيين على بعض أراضى فلسطين وحروبهم مع جيرانهم من سكانها الأصليين ثم يروى أحداث حكم القضاة الدينيين للشعب حتى تبلغ مملكة إسرائيل أقصى مجدها على عهد النبيين داوود وسليمان (عليه السلام) . ومن بعد

سليمان تتفصل المملكة إلى مملكتين على عهد ابنه رجب عام . ثم تمضى الإصحاحات تروى ما قام بين المملكتين من حروب ومناوشات. تنشى بالانفصال الاجتماعي والكرامية السياسية إلى أن تهض مملكة آشور فى العراق فتستولي على مملكة الشمال (إسرائيل أو السامرة) وتسمى سكانها (الأسر ثم النفي) ثم تخلف مملكة آشور مملكة بابل وتكرر الفعل مع مملكة الجنوب (يهوذا) فتقضى على آخر كيان سياسى لليهود فى فلسطين وحتى عصرنا الحالى (القرن العشرين) .

ويقسم البعض أسفار الأنبياء تلك إلى أسفار الأنبياء الأول والأنبياء الآخر الذين كثر ظهورهم مع الأنبياء الأخيرة لإسرائيل فى فلسطين (أيام الكيان السياسى للمملكة) حيث بلغت آثام وشورور بنى إسرائيل مداها . واستتبع اضطراب أحوالهم الدينية اضطراب فى أحوالهم السياسية والاجتماعية إلى أن انتهى أمرهم جميعا إلى السبى فى مدن العراق على يد آشور وبابل .

أما أسفار الكتب الأخرى فتحوى كلمات الحكمة . مثل المزامير والأمثال وأيوب ونشيد الإنشاد ومراثى إرميا والجامعة وأستير ودانيال وعزرا ونحميا ويغلب على تلك الأسفار (الأخيرة) الطابع الأدبى شعراً ونثراً وتروى قصص وحكم تواترت عبر الأجيال أو ارتبطت بحوادث اجتماعية وسياسية ودينية .

وهناك تورا سامرية وأخرى عبرية . فالتوراة العبرية تحتوى على أسفار مقبولة من اليهود العبرانيين (الجنوبيين) ويطلق عليها الأسفار القانونية الأولى . وهى أسفار مقبولة من كل الطوائف المسيحية . أما الأسفار القانونية الثانية فهى أقل حظا فى القبول وتسمى (الأبوكريفيا) أى

(المخفية) وهو الاسم الذي أطلق عليها من طائفة البروتستانت المسيحية التي رفضت هذه الأسفار باعتبارها مدسوسة على التوراة ولا ترقى إلى مستوى الوحي الإلهي. وتضم موضوعات غير ذات أهمية أو خرافات لم يقبلها اليهود ولا أصحاب التيار الإصلاحى المسيحى (البروتستانت) معتمدين فى رفضهم أن (يوسفوس) المؤرخ والمؤلف اليهودي الشهير لم يذكرها ولم يستشهد بها بعض الآباء الأوائل للكنيسة . وهكذا اعتمدوا على مؤرخ عار من القدااسة لتقرير قضية إلهية هامة وهى ألوهية نصوص مقدسة . ويقال أن هناك أسفار أخرى نفقها اليهود والهراطقة ورفضتها كل الكنائس المسيحية مثل أسفار عزرا (الثالث والرابع) وأسفار المكابيين (الثالث والرابع والخامس) وغيرها . ومن المعروف أن (التوراة السامرية) تلك التى تُنسب لليهود الذين سكنوا مملكة إسرائيل (فى الشمال) واتخذوا مدينة شكيم (نابلس) عاصمة لهم واعتقدوا فى قدسية (جبل جرزيم) .

أما (التوراة العبرانية) فتلك التى تُنسب لليهود الذين سكنوا مملكة يهوذا (فى الجنوب) واتخذوا مدينة أورشليم (القدس) عاصمة لهم واعتقدوا فى قدسية (جبل صهيون) . وكلاهما قد أقام لنفسه معبداً للإله (هيكلا) فوق الجبل المقدس (جرزيم وصهيون) (14)

ويزعم (السامريون) أنهم هم البقية الباقية على اليهودية الصحيحة وأن الجبل الذى يقدسونه (جرزيم) هو المكان الذى بنى عليه أباهم الأعلى يعقوب (عليه السلام) معبده المكرس للرب . ويرفض السامريون الأنبياء الذين أتوا فى إسرائيل بعد موسى (عليه السلام) ويرفضون الأسفار اليهودية المقدسة الأخرى (ماعدا الأسفار الخمسة الأولى) .

أى أنهم يرفضون المِثْنا والتلمود والمِدرَاش والتي يعتبرونها من أعمال الكفر . ومن هذا الافتراض تُعتبر التوراة السامرية لم تُكتب أو تُجمع أثناء السبى البابلي بل حدثت قبل هذا التاريخ بسنين طويلة .

إن العداء بين يهود مملكتي الشمال والجنوب لا يمكن تجاهله بل تحكى التوراة العبرانية فصوله وهى تؤرخ لمملكة يهوذا . ولذلك فليس مستغرباً أن تصف التوراة العبرانية صراحة وفى أكثر من موضع مملكة الشمال (إسرائيل) بأنها مؤسسة على الكفر ورفض الدين التوحيدي والأكثر رفضاً وتكليلاً للأنبياء وبالتالي فالسامريون (فى نظر العبرانيين) لا يتم الاعتراف بهم كيهود ولا بتوراتهم (التوراة السامرية) بعد السبى الآشوري وصاروا (جوييم) أى غرباء.

أما السامريون (وهم الآن قلة تعد بالمئات) فينسبون أنفسهم إلى (هارون) أخى موسى (عليه السلام) ويعيشون فى عزلة عن باقى اليهود من كل الطوائف . والسامريون - فى توراتهم - لا يجسدون صورة الإله بل كل موضع فى التوراة يكون فيه تجسيد يستبدلونه بكلمة ملاك الرب أو ملاك الله (فمثلاً إذا كانت التوراة العبرانية تقول ظهر الرب لإبرام تقول التوراة السامرية : وتجلى ملاك الرب لإبرام .. وهكذا) .

على أن علماء الغرب الذين اضطلعوا ببحث ودراسة الكتاب المقدس يتعاملون دائماً مع التوراة العبرانية على أنها النص الوحيد المعتمد . وحتى زمن السبى البابلي كان اليهود شبه متفقين على الأسفار الخمسة الأولى من التوراة . وفى السبى لم يحدث اختلاط كبير بين أهل يهوذا (الجنوب)

المَسْبُوبين حديثاً وأهل إسرائيل (الشمال) الذين تم سَبْيهم قبل ذلك بسنين كثيرة (135 عاما) . ومازال هذا الشقاق قائم حتى إبان العودة من السَّبْي (أيام حكم كورش الملك الفارسي) ومن ذلك نفهم أن عَزْرًا * (كاتب التوراة فى السَّبْي) أثناء السَّبْي كانت له وجهة نظر فى التوراة فأعاد صياغة الأسفار الخمسة الأولى منها وأضاف لها ما أضاف فقبل العبرانيون منه ذلك بينما رفض ذلك السامريون واحتفظوا بنسختهم التى حوت الأسفار الخمسة الأولى قبل تدخل عَزْرًا فيها . وعلى هذا فإن التوراة العبرانية هى توراة الأغلبية اليهودية والتى يؤمن بها العالم المسيحى ويسمىها العهد القديم .

وعن توراة موسى (الكَتَّابُ) يقول (عاطف عبد الغنى) فى كتابه (أساطير التوراة) (15) أنها ربما اقتصررت على الوصايا العشر التى نقشت على لوحى حجر احتواها (تابوت العهد) (16) ونصوص الشريعة التى تخدم قضيتى التوحيد والإيمان . أما (عَزْرًا) صاحب التوراة العبرانية فى صورتها الأخيرة فهو رجل صاحب أيديولوجية سياسية دينية كان جل هدفها أن تجمع شتات بنى إسرائيل من النفى فى بلاد العراق . تجمعهم نفسياً قبل أن تجمعهم عددياً وتقتنعهم بالعودة إلى فلسطين - أرض الميعاد - ولذا فقد شرع عَزْرًا يجمع (أو بالأصح يكتب) للمسيبين تاريخاً مقدساً يربطهم بأول الزمان وآخره فيبرز فيه المواعيد المقدسة بين الإله وإسرائيل . وفى هذا التاريخ اختلط اللاهوت بالسياسة والحكمة بالأسطورة وفلسفات المدنيات التى تأثرت بها اليهود فى تاريخهم . (وجد هوبر (17) أن التوراة لم تُكتب بواسطة موسى وأن

(*) أثبت البحث العلمى أن الشطر الأكبر من العهد القديم قد تم تدوينه فيما بين عَزْرًا (421 ق.م) والفتح الرومانى (63 ق.م) والأدلة كثيرة منها نصوص التوراة الحالية نفسها .

سفر يشوع لم يصدر من قلم يشوع وأن قسماً كبيراً من الكتابات المقدسة كتب زمن السبى أو بعد العودة إلى فلسطين).

ومفهوم النبوة في إسرائيل أصبح فيه اختلاط بين النبوة الموهوبة من الإله والتنبؤ الحرفة أو الصنعة التي هي من عمل الشيطان تستجلب عن طريق السحر والعرافة (الكهانة) فجعلت استحضر روح الرب واستجلبها يأتي بالعزف المقدس (ميراث طقسي موروث من المعابد المصرية القديمة) . وجعلت صموئيل (مثلاً) يعين ويعزل الملوك ويمسح الأنبياء في إسرائيل ويرضى ويسخط ويمسك السيف بيده فيقطع به رقبة أسير أعزل . وجعلت (أيضاً) ناثان يحاكم النبي داود (عليه السلام) رغم أننا لا نجد في سيرتي صموئيل وناثان ما يؤهلها لهذا التكريم والاصطفاء . ومن المفاهيم المغلوطة التي تقررها التوراة في مسألة النبوة أن جعلتها للنساء (مريم أخت هارون وموسى - دبورة قاضية إسرائيل زوجة فيدوت - خلدة امرأة شلوم) .

وعن مفهوم التبرير يقول (عاطف عبد الغنى)⁽¹⁸⁾ أن الكتابة (كتبة التوراة) حاولوا دائماً إعطاء سند إلهي لأكثر الحوادث الوارد ذكرها في التوراة لإضفاء صفة الشرعية عليها ودعم صدقها حتى ولو كانت تجافي العقل والمنطق مادامت هي إرادة السماء . فمثلاً بررت التوراة الموقف العدائي لبنى إسرائيل من الكنعانيين إلى سبب قديم جداً يعود إلى عهد نوح (عليه السلام) فتحكى رواية التوراة أن (حام) أحد أبناء نوح (الثلاثة) قد كشف عورة أبيه . فلما عرف نوح الخبر لعن ذرية حام في (كنعان) ابنه ونسله وحكم عليه أن يكون عبداً لأخويه (سام ويافت) . وأيضاً في قصة زنا ابنتي لوط (عليه السلام) بأبيهما - بهتاناً - مايرر حرب بنى إسرائيل ضد نسل العمونيين والمؤابيين . وأيضاً جعلت التوراة سبباً لانقسام مملكة بنى إسرائيل بعد

سليمان (عليه السلام) إلى مملكتين متناحرتين بأن وصمت سليمان - زوراً - بالشرك وأنه :

*لم يكن قلبه كاملاً مع الرب كقلب داود أبيه (19).

وكان (عزراً) يبحث عن مبرر قوى لإقناع أكثر اليهود بالعودة إلى فلسطين فلم يجد خيراً من الدين يؤثر به على الوجدان فيثير العاطفة نحو أرض الميعاد ويحيي فيهم وعود الرب التي قطعها لهم علامة ودليلاً على رضائه عن شعبه وإبنه البكر إسرائيل .

والتوراة الموجودة بين أيدينا الآن مليئة بالأرقام والأعداد وفيها مبالغات كثيرة مثل الحديث عن تعداد شعب إسرائيل الذي خرج من مصر كان أكثر من مليون (عند دخولهم مع يعقوب (عليه السلام) وأخوه يوسف (عليه السلام)) كان عددهم في حدود السبعين (رغم أن المدة التي مكثوها في مصر حوالي أربعة قرون (قدرتها التوراة 430 عاماً وقدرها الباحثون بحوالي 230 عاماً) هذا بخلاف التناقض الحادث في أعمار الأنبياء .

وعن الأمراض المقدسة Cten ورد مرض البرص وكأنه قمة انتقام الرب من العبد ويُعدّ دليلاً على النجاسة . وهناك أيضاً برص الملابس والأقمشة التي تعرض على الكاهن ليقرر إصابتها من عدمه وكذا برص البيوت (المباني) وللطهارة من مرض البرص طقوس شكلية غريبة تنتهي بتقديم ذبيحتي خطية ومحرقة مع تقدمة (20).

وفي سفر العدد نجد شريعة نجاسة المرأة بعد الولادة تفرّق في النجاسة (النفاس) حسب نوع المولود . فإذا كان ذكراً فالمرأة تكون نجسة سبعة أيام

ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوماً في دم تطهيرها . أما إذا كان المولود أنثى فالمدة ترتفع إلى الضعف .

وعن الدراما التوراتية Crneey⁽²¹⁾ يقول عاطف عبد الغنى في كتابه أساطير التوراة أن نظرية الدراما التي أسس لها أرسطو تفترض أن التراجيديا بدأت بالقصة الخرافية البسيطة (الأسطورة أو الأحداث) ويحدث فيها تغيير للأحداث بتسلسل حتمى ومنطقى ومحتمل لا يتغير تغييراً فجائياً . ولا بد للتراجيديا أن تحتوى على ستة أجزاء أهمها القصة ثم الطباع أو سمات الشخصية المميزة أو العواطف (المحاكاة) ثم يأتى النظم (السرد) فى المرتبة الثالثة وهو إما أن يكون نثراً أو شعراً .

والتراجيديا ليست محاكاة للأشخاص ولكن محاكاة للأفعال . للسعادة أو الشقاء . على أننا يجب أن نضع فى الاعتبار أن الخير المطلق هو الهدف الحقيقى للحياة . وبالقيااس على القصص التوراتية نجد أن الأحداث تتغير فجأة بلا مقدمات أو تبريرات بل نجد المبالغات ولا منطقية الأحداث (مثل قصة بلعام فى سفر العدد وقصة أستير فى الأسفار القانونية الأولى والثانية وسفر أستير) .

وقصة أستير تعتبر نموذجاً لتحول الأسطورة القومية إلى أسطورة دينية ويتضح فيها التأثير بحضارة بابل (أسماء أبطال القصة جميعهم ذات أصول بابلية أو علامية حيث أستير مشتق من عشتار إلهة البابليين ومردوخاى من مردوخ الإله البابلى وهامان اسم الإله العيلامى همان) . وقصة يهوديت فى السفر المسمى بإسمها⁽²²⁾ وتروى أحداث السفر كيف أوقعت يهوديت قائد العدو الآشورى فى حبائلها بجمالها الأخاذ وأسكرته ثم ذبحته فتحولت إلى

قديسة وبذلك يبرر الكتاب المقدس (العهد القديم سفرًا يهوديت وأستير تحديدًا) مشروعية استخدام فتنة المرأة وجمالها كوسيلة مشروعة لكسب المغنم وقتل الأعداء . ويضفى على ذلك الفعل هالة من التبجيل تنقل الفاتنات اليهوديات إلى مصاف القديسات .

مما تقدم نتبين أن تراجيديا التوراة تغلب عليها روح الأسطورة الشعبية في بداياتها ثم الأسطورة القومية بعد ذلك ثم التقديس والتبجيل مؤخرًا . أما شخصيات الأنبياء والرسل (أحيانًا يمنحونها لمن لا يستحقها) فهي عرضة للاستهزاء بها ونزع القداسة عنها .

وعلى الرغم أن النص التوراتي كان يصرح دائمًا بأن روح الله تشمل هذه الشخصيات فإن نفس النص سلبهم العصمة التي يسبغها الإله على المصطفين من عباده . إن صفات التأليف البشرى وهناته تسيطر على الحكايات الدرامية التوراتية . فالغرض الدائم فيها هو إظهار التدخل الإلهي لصالح الشعب المختار في أكثر المواقف تأزمًا .

وهذه لا يمكن أن تصنف على أنها معجزات إلهية لأنها مواقف متعسفة وتظهر في بعض الأحيان عجز الإله - حاشا لله أن يكون كذلك - كما ورد في قصة بلعام وقصة قتل أبطار المصريين التي وردت في سفر الخروج . ولغة الخطاب في بعض النصوص فيها الكثير من المجادلة واللجاجة وسوء الأدب مع الذات الإلهية العلية كما جاء مثلاً في سفر الخروج:

*فقال موسى للرب استمع أيها السيد⁽²³⁾

وأيضاً عندما صار ع يعقوب (عليه السلام) الرب كما جاء فى سفر التكوين⁽²⁴⁾ وهزمه - حاشا لله - وطلب منه الرب أن يطلق سراحه - كذا - وغير ذلك الكثير . بالاضافة إلى القصص الجنسية الصريحة فى نشيد الإنشاد . وسفر إرميا وسفر حزقيا⁽²⁵⁾ . وفى إصحاحات المزامير نجد خلط التوراة للأزمنة واضحا .

وقد اشتهر (عَزْرَا) بين كتبة اليهود وكهنتهم بأنه كاتب ماهر فى شريعة موسى . واشتهر فيما بعد الأسر البابلى بجمعه للتوراة العبرانية وضم إليها سفرأ سماه على اسمه (سفر عَزْرَا) .

ويلاحظ أن هذا السفر متقدم فى ترتيب أسفار التوراة رغم تأخره فى الزمن المدون به (تاريخ الأحداث التى يسردها) على كثير من الأسفار التى جاءت بعده . وعَزْرَا فى سفره المشار إليه أصبح على دعوة الهجرة من بابل إلى فلسطين صبغة دينية حتى أنه جعلها إرادة إلهية وربط المسألة كلها بوصية من الوصايا العشر (وصية السبت) فى تخريجه عجيبة تفتق عنها ذهنه فقال :

*حتى استوفت الأرض سبوتها لأنها سبتت فى كل أيام خرابها لإكمال سبعين سنة⁽²⁶⁾ .

حيث اعتبر عَزْرَا أن مكوث اليهود فى السبى بعيداً عن فلسطين حوالى سبعين سنة هى فترة زمنية جعلها الإله لتستوفى أرض فلسطين سبوتها (جمع سبت) . وفى هذا يتحدث عَزْرَا عن يهود مملكة (يهوذا) ويغفل يهود مملكة (إسرائيل) الذين كانوا قد تم سببهم قبل ذلك بحوالى 133 سنة . وكانت وجهة نظر عَزْرَا فى ملوك آشور وبابل أنهم مجرد أدوات منفذة لإرادة الله . وهم

فى هجومهم على مملكتى إسرائيل ويهوذا لم يكونوا أشراراً وإنما هم أداة تأديب من الرب للشعب الذى نقض العهد .

وعلى الرغم أن العودة من بابل إلى فلسطين ارتبطت بشخصيات أخرى - غير عزرا - مثل نحميا و زر بابل ويشوع بن يوصادق وغيرهم من قادة يهود العودة إلا أن عزرا نال شهرته وتميزه لأنه كان بمثابة المنظر الايديولوجي أو المفكر الكهنوتى الأعظم لليهود العبرانيين . وقد جمع (عزرا) كل ما اعتقد فى قدسيته وأعاد ترتيبه وتنقيحه من وجهة نظره الشخصية . بحيث استخلص من تاريخ الخلق تاريخاً لبنى إسرائيل منذ نوح (الكليلا) وحتى السبى البابلى وهو التاريخ الذى ربطه بحبل الوعد الإلهى لبنى إسرائيل فى الأرض المقدسة . وهو الوعد الذى تم تدعيمه بالأسطورة الدينية والتكرار (تكرار الوعد من الإله كل حقبة من الزمن).

أما الأسطورة فكان قوامها فكرتين أساسيتين هما :

1-العنصرية : بمعنى تفضيل الإله للشعب الإسرائيلى على كافة أجناس البشر . ويدخل ضمنها(النقاء السلالى) الذى ادعاه اليهود دوماً فقالوا إنهم خالصون من نسل إسرائيل . وإسرائيل خالص من نسل سام بن نوح (حقيقة دعوته أنها دعوة سياسية وليست دينية كما ادعى وفضحته التوراة نفسها عندما أعلن إيليا النبى بقبول من يدخل اليهودية فى شعب الله) .

2-جلد الذات : حيث قال وأكد أن الشعب أخطأ - ومعهم الأنبياء والرسل - بارتكابهم الكبائر التى استوجبت عقاب الله لهم :

* منذ أيام آبائنا ونحن في إثم عظيم⁽²⁷⁾

وظهرت في نصوص التوراة إمارات الخلاص بتمجيد القوة والبطل الأسطوري أو المسيح المخلص (المسيّا) ولما يؤس اليهود من بعث هذا (المسيّا) بين ظهرائهم جعلوا (قورش) الملك الفارسي الوثني هو نفسه المسيح المنتظر وجعلوه يتصل بالرب مثل الأنبياء والمرسلين :

* هكذا يقول الرب لمسيحه قورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمماً وأحقاء ملوك . أحلّ لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تُغلق⁽²⁸⁾.

ومن الغريب أن الزمن الذي عاش فيه قورش وسمح للمسيبيين بالعودة إلى فلسطين يجيء بعد هذا الزمن بحوالي مائتين وعشرين عاماً . وبينما وجد (عزرا) سببا إلهياً لمذلة بنى إسرائيل في بابل فإنه لم يجد هذا السبب في تجربة بنى إسرائيل في مصر . ولذلك قبلت المبالغة الأسطورية في الضربات التي حلت بشعب مصر حتى جعل الله يتدخل كثيراً فيزيد قلب فرعون قساوة على بنى إسرائيل ليزيد هو ضرباته على مصر . ورغم ذلك وردت شذرات في التوراة تنشي بأن بنى إسرائيل لم يلاقوا من مصر كل هذا التعنت المذكور في توراتهم . (شعب مصر هو الذي أكرم وفادتهم واستضافتهم في منطقة جاسان بالشرقية أجود وأخصب أراضي وادي النيل في فترة قدومهم الأول مع يعقوب (عليه السلام) وهو الشعب الذي أعطاهم ذهبه عند خروجهم مع موسى) :

* وانزعوا الآلهة الذين عبدتهم آبائكم في عبر النهر وفي مصر وأعبدوا الرب.⁽²⁹⁾

ومن النص نفهم أن بنى إسرائيل زاغوا في مصر وعبدوا آلهة المصريين وآلهة أخرى جاءت معهم عبر النهر . وبسبب هذا بعث الله فيهم موسى (عليه السلام) يدعوهم إلى التوحيد والعودة لعبادة إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف (عليه السلام) . بل ودعاهم إلى الخروج هرباً من فرعون ورجاله ليثبت الرسالة في المقام الأول وليس للهرب من الاضطهاد كما تحاول التوراة أن توهمنا .

ويشير (عاطف عبد الغنى) إلى أنه في السنة الثانية من حكم الامبراطور الفارسي (داريوس) نشطت الدعوة بين يهود السبئي في العراق إلى إعادة بناء بيت الرب في أورشليم . وكالعادة جعلوها دعوة إلهية مدعمة بنبوءات إثنين من الأنبياء هما (حجي) و (زكريا) .

ويرى ريتشارد كروسمان⁽³⁰⁾ وإيمانويل فلايكوفسكي⁽³¹⁾ أن لليهود دورة خاصة في التاريخ يتعاقب فيها الخروج والدولة والكوارث كما تتعاقب الخطيئة البشرية والقربان اليهودي باعتبارهم شعب الله . وكل هذه التصورات والمفاهيم يجرى تغذيتها وتعزيزها بالتوراة حتى لا يقال أن شعب الله المختار يبحث عن مسوغات أخرى خارج كتابه المقدس . وإلى جانب التلمود وكتاب السبئي البابلي (العهد القديم) تصطف المساهمات الألمانية العرقية بجوهرها كما هو الحال عند نيتشه وجوميلوفكس وجوبينو وليينتز أو بإسقاطاتها المختارة والملفقة كما هو الحال بالنسبة لأعمال هيجل وكانط . ويقرر (سبينوزا)⁽³²⁾ أن الأسفار المتفرقة والفريدة لم تجمع في مجموع واحد غير أن يداً واحدة تظهر في كل الأسفار من أولها لآخرها وهذه اليد

الواحدة^(*) هي التي رتبت ودمجت وجعلت تلك الأسفار مترابطة في سلسلة واحدة وحدث ذلك بعد كتابة كل الأسفار المقدسة.

ويقول موفق محادين⁽³³⁾ في نقده للصهيونية الروحية والمرجعية المقدسة (التوراة) التي يستند إليها اليهود اليوم لتحقيق مآربهم :

إن أكبر تزويرات التوراة إثارة - من حيث أهميتها وحساسيتها - هي التزويرات التي طالت علاقة موسى (عليه السلام) بالتوراة . فقد بات معلوماً أن نسبة الأسفار الخمسة الأولى إلى موسى هو افتراض إيماني يُنسب تأليفها إلى النبي موسى (عليه السلام) حتى صار ذلك الافتراض عقيدة يهودية منذ عهد فيلون السكندري ويوسفوس (المؤرخ) في القرن الأول قبل الميلاد اللذان عاصرا المسيح وأعلنا أن موسى هو مؤلف التوراة . وهي العقيدة التي ظلت تأخذ بها الكنيسة إلى زمن قريب ولا تزال سائدة في كثير من الكنائس .

وفي ذلك يؤكد (توماس هوبز) من أن تدوين التوراة تم بعد موت موسى بزمان طويل (حوالي سبعة قرون) . وما جاء في الطبعة الكاثوليكية للكتاب المقدس الصادر عام 1960م أنه :

مامن عالم كاثوليكي في عصرنا يعتقد أن موسى ذاته كتب كل التوراة منذ قصة الخليقة أو أنه أشرف على وضع النص . لأن ذلك النص قد كتبه عديدون بعده . لذلك يجب القول أن ازدياداً تدريجياً قد حدث وسببته مناسبات العصور التالية الاجتماعية والدينية .

(*) تلك اليد هي يد (عزرا) الذي أعاد كتابة الأسفار التوراتية في السبب البابلي .

ومن اليهود أنفسهم الذين كتبوا ضد يوسفوس (داكوستا) ⁽³⁴⁾ فى كتابه اختيار التقاليد الفريسية ومقارنتها بالشرعية المكتوبة . وفيه اعتبر الشفهية اليهودية بدعة فريسية.

و (سبنيوزا) ⁽³⁵⁾ الذى انتهى إلى إنكار أى احتمال يمكن بموجبه نسبة التوراة إلى موسى . وقدم على ذلك شواهد عديدة وقدم قرائن تشير إلى أن كُتِبَ العهد القديم بدءاً من سفر التكوين وحتى سفر الملوك الثانى قد كتبها (عزرا) الذى عاش فى القرن الخامس ق . م ومنها :

(1) أن مقدمة سفر التثنية (وهى الواردة بصيغة المتكلم للايحاء بأن كاتبها هو موسى (عليه السلام)) لم يكن من الممكن أن يكتبها موسى حيث أن المقطوع به أن موسى (عليه السلام) لم يعبر نهر الأردن أبدا :

* ذهب موسى وكلم بهذه الكلمات جميع إسرائيل وقال لهم أنا اليوم ابن مائة وعشرين سنة . لا أستطيع الخروج والدخول بعد . والرب قد قال لى لا تعبر هذا الأردن ⁽³⁶⁾.

* وكلم الرب موسى قائلاً اصعد إلى جبل عباريم . هذا جبل بنو الذى فى أرض مؤاب الذى قبالة أريحا . وانظر إلى أرض كنعان التى أنا أعطيتها لبنى إسرائيل مُلْكَاً . فإنك تنظر الأرض من قبالتها (من خارجها) ولكنك لا تدخل إلى هناك إلى الأرض التى أنا أعطيتها لبنى إسرائيل ⁽³⁷⁾.

* وصعد موسى وقال له الرب هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيتها . قد أريتكم إياها بعينيك ولكنك إلى هنا لا تعبر .

(2) إن سفر التنثية يرد فيه القول :

* وكتب موسى هذه الشريعة وسلمها للكهنة بنى لاوى حاملى تابوت العهد ولجميع شيوخ بنى إسرائيل (38) .
وهو كلام لا سبيل لنسبته لموسى (عليه السلام) فهو قول كاتب آخر يروى ما فعل موسى وما قال .

(3) ورد فى سفر التكوين القول أن ابراهيم (إبراهيم) (عليه السلام) دعى اسم الموضع الذى أمره الرب أن يقدم ابنه اسحاق فيه ضحية للرب (يَهُوَه يراه) بحيث بات الموضع يدعى اليوم جبل (يَهُوَه سوف يرى) وهذه التسمية لذلك المكان لم تطلق عليه إلا بعد بناء الهيكل فى عصر سليمان (عليه السلام) (960-962 ق.م) ولم يكن اختياره فى عصر موسى (عليه السلام). وسفر الخروج تأتى النصوص التى تتحدث عن موسى (عليه السلام):

* وتكلم الرب مع موسى وجها لوجه (39) .

* فحمى غضب موسى (40)

* فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض مؤاب حسب قول الرب (41)

* ولم يقم بعد نبى فى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه (42)

(4) فى التوراة كثير من أسماء الأماكن والمواضع الجغرافية يستحيل علم موسى بها لأنها فى عمق أرض فلسطين وموسى مات ولم تطأ قدمه أرض فلسطين . ومعظم هذه التسميات حدثت بعد موسى بثلاثة أو أربعة قرون . مثل (دان) (43) وكذا مجموعة القرى المعروفة باسم (يائير) (44) وهى القرى التى لم تظهر إلى الوجود إلا فى عصر القضاة (45) بعد موسى بقرون .

(5) فى قصة يوسف يوجد خطأ تاريخى هائل حيث يطلق على فلسطين اسم أرض العبريين وليس أرض الكنعانيين⁽⁴⁶⁾ .

(6) وردت عبارة فى سفر التكوين والعدد :

* قبل أن يملك ملك من أبناء إسرائيل⁽⁴⁷⁾

وهى جملة لا يكتبها إلا شخص عاصر العهد الملكى لإسرائيل وعرف بقيام المملكة بعد موسى بأربعة قرون .

(7) المرات الثلاث التى تعرضت فيها التوراة لتزويرات كبيرة هى عندما أعد الكهنة والملك يوشع (يوشيا) سفر الشريعة حوالى عام 600 ق.م . وعندما أعد الكهنة من مدرسة حزقيال وإشعيا الثانى ما عرف (بالقانون الكهنوتى) . وعندما أعد عزرا ونحميا التوراة نفسها أثناء الأسر البابلى (تشير دائرة المعارف البريطانية أن عزرا هو الذى نشر الشريعة اليهودية اعتماداً على التوراة نفسها) .

ومن كل ماسبق لا يخفى على أحد أن التوراة لا يمكن الأخذ بها تاريخياً . فهى ليست تاريخاً موثقاً به للأسباب المذكورة ولأسباب أخرى سبق ذكرها ولأسباب يسوقها المفكر السورى والباحث فى الميثولوجيا وتاريخ الأديان (فراس السواح)⁽⁴⁸⁾ حيث يقول :

من خلال دراسة الوثائق التاريخية لثقافات الشرق القديم ودراسة أحدث نتائج التنقيب الأثرى فى فلسطين نجد أن التقاليد التوراتية قد خلقت (إسرائيلاً) خاصة بها لا علاقة لها بإسرائيل التاريخية وأن جل البحث التاريخى الذى تم حتى وقت قريب فى مسألة أصول إسرائيل وتاريخها قد انصب

على أخبولة لا تمتلك من الوجود الواقعي إلا أقله . وأن ما بدا لنا حتى الآن من اتصال الإسرائيلي باليهودي هو ابتداء توراة استكمل المحررون التوراتيون من خلاله أخبولة الأدبية الرامية إلى ابتكار أصول لليهودية المحدث في فلسطين خلال العصر الفارسي والعصر الهلنستي . وإسرائيل الثالثة في فلسطين (حاليا) لا علاقة لها بإسرائيل التوراتية أو إسرائيل التاريخية . ويسوق (فراس السواح) بعض البراهين والأدلة على استنتاجاته فيقول⁽⁴⁹⁾:

1- إن النقد النصي والتاريخي والأركيولوجي لروايات الآباء والخروج قد أوصلنا إلى القول بكل ثقة علمية إلى أن جميع الوقائع تنفي نفيًا قاطعًا وجود كيان إثني اسمه (كل إسرائيل) خلال أية فترة من عصر البرونز الوسيط أو عصر البرونز الأخير وصولاً إلى عصر الحديد الأول حوالي 1200 ق.م.^(*)

2- إن الشواهد الأركيولوجية من الفترة الانتقالية من عصر البرونز الأخير إلى عصر الحديد تنفي نفيًا قاطعًا رواية سفر يشوع عن الاقتحام العسكري لأرض كنعان .

3- إن نتائج المسح الأركيولوجي الشامل لمنطقة الهضاب المركزية ولمنطقة مرتفعات يهوذا في المستويات الأثرية العائدة لعصر الحديد الأول تنفي نفيًا قاطعًا ظهور مجموعة إثنية واحدة في كل المنطقتين خلال الفترة المفترضة لعصر القضاة والاستقرار في الأرض . فالقرى التي ظهرت بشكل بطيء في الهضاب المركزية خلال عصر الحديد الأول كانت قرى كنعانية من أصل زراعي محلي مرتبطة ثقافياً بعصر البرونز الأخير ولا علاقة لها

(*) عصر البرونز (3500 - 800 ق.م) . عصر الحديد (1200 - 300 ق.م)

بالقبائل الرعوية التوراتية . وقد سبق استيطان منطقة الهضاب المركزية الاستيطان في منطقة يهوذا بحوالى قرنين من الزمان . الأمر الذى ينفى وجود قاعدة مشتركة بين المنطقتين كما ينفى قيام إثتى يشتمل على (كل إسرائيل) خلال عصر القضاة التى تغطى بالكامل فترة الحديد الأول.

4- لم يتوفر خلال القرن العاشر قبل الميلاد الأساس السكاني والاقتصادي اللازم لقيام مملكة قوية فى الهضاب المركزية أو مرتفعات يهوذا (فى الجنوب) ناهيك عن قيام مملكة موحدة متسعة الأرجاء بسطت سلطانها على كامل أراضى فلسطين . فإضافة إلى الفقر المدقع لقرى الهضاب المركزية المبعثرة فإن يهوذا كانت خالية من السكان . وأورشليم كانت بلدة متواضعة وغير صالحة لأن تكون عاصمة للمملكة المذكورة فى التوراة.

5- لا يوجد ذكر لكيان سياسى اسمه إسرائيل فى جميع وثائق الشرق القديم قبل أواسط القرن التاسع قبل الميلاد (أى بعد أكثر من قرن على تشكيل مملكة إسرائيل التوراتية) عندما بدأ اسم إسرائيل يظهر فى السجلات العسكرية الآشورية وللدلالة حصراً على مملكة السامرة (فى الشمال) التى تشكلت تاريخياً حوالى 880 ق.م . وكذلك الأمر فى مملكة يهوذا (فى الجنوب) التى لم يرد ذكرها فى السجلات الآشورية إلا نحو نهاية القرن الثامن قبل الميلاد وعندما بدأت مملكة إسرائيل بالأفول .

6- لا يوجد فى وثائق الشرق القديم ذكر لكيان سياسى اسمه إسرائيل بعد دمار مملكة السامرة (شمالاً) على يد الآشوريين عام 721 ق.م وسبب أهلها الذين لم يرجعوا إلى أوطانهم قط . أما المقاطعة الآشورية التى قامت فى الهضاب المركزية بعد سبب الإسرائيليين واحلال أقوام جديدة محلهم فقد

دُعيت بمقاطعة السامرة واستمرت تُدعى بهذا الاسم خلال العصر الفارسي والهلينستي والرومانى . وفيما يتعلق بمنطقة يهوذا فقد أطلق عليها مقاطعة اليهودية بعد عودة المسبيين إليها من بابل واستمر هذا الاسم قائما حتى العصر الرومانى.

7- لا يوجد أثر للمعتقد الدينى التوراتى فى منطقة إسرائيل ويهوذا وفى بقية أنحاء فلسطين خلال الفترة السابقة على السبِّ البابلى . والديانة التى سادت هنا هى ديانة كنعانية تقليدية (آلهة البانثيون الكنعانى) .

والوثائق التى عثر عليها فى جزيرة فيلة (بأسوان) والتى ترجع إلى الفترة من 495 - 394 ق.م وهى الفترة التى شهدت إعادة سكن أورشليم وبناء الهيكل الثانى (هيكل زربابل) وهذه الوثائق مكتوبة باللغة الآرامية وهى تضم وثائق تجارية وعقود زواج ومراسلات بين رئيس الجالية اليهودية فى فيلة المدعو (جيدانة) أو جيدانيه وعدد من الشخصيات السياسية فى فلسطين (فى اليهودية والسامرة وكهنة أورشليم) يستعلم منهم عن بعض القضايا الطقسية والسنن الدينية .

والاستنتاج المنطقى الذى يطرح نفسه هو أن ديانة (يهوه) فى فلسطين لم تكن حتى ذلك الوقت المتأخر قد اكتسبت الشكل التوراتى بعد . وأنها مازالت فى طور التشكيل على أيدى كهنة أورشليم بعد العودة من المنفى .

وفى تقييمه للأسفار المدعوه بالتاريخية يقول فراس السواح (50):

إنها سلسلة من المرويات الشعبية ذات الأصول المختلفة جمعت إلى بعضها فى نسيج واهى الحبكة وتاريخ زمنى مفروض عليها من خارجها .

أما الزمرة الثانية من أسفار التوراة (أسفار الأنبياء) فليست إلا مجموعة من أقوال ومأثورات حكموية قديمة تختصر ألف عام تقريبا من التقاليد النبوية في فلسطين والمناطق المجاورة لها .

وقد قام المحررون التوراتيون بجمع هذه المادة الغنية القديمة فرتبوها وصنفوها ووضعوها على لسان شخصيات نبوية متميزة قد يكون بعضها من أصل تاريخي ثم جعلت هذه المادة تدور حول فكرة أساسية في جميع الأسفار (أسفار الأنبياء) وهي أن دمار إسرائيل ويهوذا كان بمثابة عقاب إلهي على خطايا الجماهير والحكام وتجاهلهم عبادة الإله الحق وأن الرحمة الإلهية سوف تلحق بالتوابين العائدين من السبى البابلي إلى حظيرة الرب .

والمصادر الكتابية التي يدعى المحررون في بعض المواضع الاستناد إليها فإننا غير متأكدين من وجودها أصلا ولا من الطريقة التي عمد المحررون إلى الإفادة منها وذلك مثل سفر باشر وسفر موسى وغيرها .

والنص التوراتي لم يتعرض - مثلا - لإسم الفرعون المصري المعني في سفر الخروج وإنما تعرض للشعوب والقبائل المجاورة للمناطق الهضبية التي قامت على أراضيها - فيما بعد - دولتي إسرائيل ويهوذا وذلك مثل مؤاب وأدوم وعمون في الشرق وفلسطين في الغرب . وغالبا ماوردت أسماء هذه الشعوب في سياق زمني يتضمن مفارقة تاريخية واضحة فمالك شرقي الأردن التي قهرها موسى في آخر مراحل ملحمة الخروج لم تكن موجودة في ذلك الوقت على ما بينه المَسَح الأركيولوجي للمنطقة . ومنطقة الساحل الفلسطيني الجنوبي التي يدعوها سفر الخروج بأرض الفلسطينيين لم تكن قد استقبلت زمن الخروج أية موجة من موجات شعوب البحر Sea people من

فلسطين وغيرهم . ومن بين جميع الممالك الفينيقية على الساحل السوري لم يرد ذكر أيا منها إلا صيدون . أما بقية الممالك من أو جارت إلى صور فغائبة تماما . ومثلها تلك الممالك الكبرى التي ازدهرت من حول أولئك الإسرائيليين المفترضين عبر عصورهم فبابل حمورابي في بلاد النهرين ومارى على الفرات الأوسط وحلب (يمحاض) وألا لاخ في الشمال السوري وقطنة وقادش في سوريا الوسطى غائبة عن سير عصر الآباء الذين كانوا يرحلون بين الفرات وفلسطين وكأنما يتحركون على مسرح خال تماما إلا من القبائل الرحل وآبار المياه في الواحات . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالممالك الحيثية الجديدة في الشمال السوري والممالك الآرامية الجديدة على نهري الخابور والفرات وفي المناطق الغربية التي ازدهرت منذ مطلع عصر الحديد فجميعها غائب عن عصر يشوع وعصر القضاة . وكذلك مصر التي كانت تسيطر عليها في ذلك الوقت على وادي يزرعيل وعدد من النقاط الاستراتيجية الأخرى . وفي عصر المملكة الموحدة لا يرد ذكر لآشور التي كان نفوذها قد تجاوز الفرات ووصل إلى مناطق الساحل ولا الممالك الآرامية القوية التي كانت تقارع آشور على الفرات وفي الشمال السوري . وبدلاً من هذه الممالك التي تجملها أخبار الملك داود تحت عنوان (آرام التي عبر النهر) فإن محرر سفر الملوك الأول يبتكر ممالك لم يرد لها ذكر في التاريخ ولم تقم الدلائل الأركيولوجية على وجودها وذلك مثل آرام صوبة ومعكة وبيت رحوب وجيشور وغيرها . وبالمقابل فإن جميع السجلات الكتابية للحضارات القديمة لم تورد خبراً واحداً يدعم الرواية التوراتية من عصر الآباء إلى قيام أسرة الملك (عمرى) وبناء مدينة السامرة في النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد .

ومن نفس المنطلق يبين (توماس ل. طومسون)⁽⁵¹⁾ فى كتابه الهام (التاريخ القديم للشعب الإسرائيلى) أنه اعتمد فى البداية فى كتابة تاريخ إسرائيل على المعطيات التوراتية لكن تراكم المعطيات الأركيولوجية والتزايد الكبير فى الاكتشافات الهامة فى الشرق الأدنى القديم إضافة إلى البحث النقدى المتراكم أدى إلى تحول العنصر التاريخى فى الدراسات التوراتية . فقد أكد الكثير من المؤرخين عدم تاريخية بعض الحقب مثل حقبة الآباء - الغزو - القضاة . وشككوا بتاريخية بعض الرموز الأساسية مفضياً ذلك إلى التخلّى عن الافتراضات المسبقة التى فرضها التفسير التوراتى حيث أن التاريخ يقوم على الأبحاث وهو يتعلق بالطبيعة وليس بما وراء الطبيعة . وعليه فلا يمكن استخلاص تاريخ إسرائيل القديم من التوراة . كما أن أساس التقييم النقدى يبقى منفصلاً عن التوراة فى تاريخ نقوش وحفريات أقاليم فلسطين .

وهناك ثلاث نظريات ومناهج عالجت تاريخ إسرائيل :

(1) مدرسة تاريخ الأديان (ويلهاوزن) :

وتشير هذه الفرضية إلى أن تشكيل الأسفار الخمسة الأولى من التوراة (التكوين - الخروج - اللاويين - العدد - التثنية) تم من خلال أربعة مصادر مستقلة فى الأصل :

- أ- اليهوهية : مع الملكية الموحدة يهوذا وسلالة داود (1050 - 953 ق.م) .
- ب- الإلهيمية : مع الملكية المنقسمة ودولة إسرائيل (953 - 722 ق.م)
- ج- التثنية : مع إصلاحات يوشيا (648 - 608 ق.م)
- د- الكهنوتية : مع مراحل النفى البابلى ومابعده .

والعنصر الأساسى لفرضية ويلهاوزن تفترض أن هذه المصادر الأربعة للأسفار الخمسة الأولى يجب فرضها على أنها وثائق أدبية تم تأليفها وقت كتابتها . ولذا فهي كمواضع مؤلفة تعكس فهم ومعرفة مؤلفيها وعالمهم . وبذا لا يمكن أن نحصل منها على أى شىء تاريخى يعتمد عليه عن المراحل السابقة لتاريخ إسرائيل .

أما (ماير) زميل (ويلهاوزن) فقد رأى أن التراث الذى استمدت منه المصادر الوثائقية كان فى الأصل مرويات شفوية ومجموعة من القصص التى تألفت من الحكايات الشعبية والأساطير والملاحم . فلم ينظر إلى مؤلفي المصادر اليهودية والإيلوهيمية على أنهم كتّاب ومؤرخون لماضى إسرائيل بل جامعون ومحررون لأساطير وحكايات شعبية مختلفة متعددة الأصول والتواريخ .

(2) الاتجاه التوفيقي المحافظ :

وهذا الاتجاه عند (آلت) و (أولبرايت) وغيرهم أعطى للمرويات التوراتية قيمة تاريخية . وبذل (أولبرايت) Albright جهده للتوفيق بين المكتشفات الأثرية والمرويات التوراتية ورفض النظرة التطورية لأصول الديانة الاسرائيلية مؤكداً على أصول التوحيد الإسرائيلى فى التعاليم الموسوية وعلى أن ماترويه التوراة عن إسرائيل موحدة وغزوها لفلسطين قد تأيد بما نعرفه عن تدمير المدن الكنعانية فى العهد البرونزى المتأخر على يد الإسرائيليين البدو .

واعتبر (آلت) Alt أن أهم مفتاح لفهم أصول إسرائيل هو تمايزها وعدم توافقها مع المجتمع الكنعانى السابق لها .

ويقول طومسون Tomas L. Tompson⁽⁵²⁾ إن الدارسين لم يعودوا يجدون براهين أركيولوجية ظاهرة على غزو إسرائيل للمدن الكنعانية . وفشل الحفريات الكبرى في مواقع عاي وأريحا أضعف بالتأكيد حجج أولبرايت . وأن محاولة التوفيق بين البيّنات التوراتية وغير التوراتية كإثبات لتاريخانية إسرائيل القديمة سرعان ما دخلت مرحلة الانهيار التي مازالت متواصلة حتى اليوم .

(3) تفكيك التاريخ التوراتي :

بيّنت (هـ . فريس) H.Friis (عام 1968م) أن المرويات التوراتية التي حددت تشكيل الدولة أو الملكية الموحدة تحت حكم داود كانت من إنتاج فترة السبى البابلي . كما حددت أصول التوحيد اليهودي في تلك الفترة أيضا . ورأت أن الروايات التي تقول بأن أصل إسرائيل من مصر مجرد أساطير وأن قصص سفر الملوك الثاني بكاملها قد كُتبت لتشرح أسباب السبى إلى بابل ويجب أن تكون قد كُتبت بعد السبى بفترة من الوقت .

ويشير طومسون إلى أن عملية المراجعة التاريخية النقدية لفهمنا للأسفار الخمسة الأولى التي مازالت مستمرة حتى يومنا هذا عمقت اتجاه تفكيك التاريخ التوراتي وأطلقت تحديا أساسيا لافتراضات عديدة تمسكت بها الاتجاهات الرامية إلى إثبات تاريخ إسرائيل على أساس التوراة .

ويوجز طومسون تحليله ووصفه للتوراة فيقول :

إن المرويات التوراتية ماهي إلا شظايا ذكريات مكتوبة أو شفوية ، سلاسل من القصص ، أعمال أدبية معقدة ، سجلات إدارية ، أغاني ، حِكَم نبوية ، كلمات مأثورة عن فلاسفة ، قوائم وحكايات اعتبرت ذات معنى

ضمن كل مترابط ومتراكم . جمع ونظم انتقائيا وفسر باعتباره ماضيا
مبعثرا (53) .

والجدير بالذكر أن (توماس ل. طومسون) هذا قد فقد وظيفته كأستاذ
علم الآثار في جامعة ميلووكي بضغط من أوساط اليهود بعد تأليفه هذا الكتاب
ونشره (54) .

ويعرض طومسون ثلاث بدائل أخرى كلاسيكية موروثة عن الجيل
السابق كنماذج لنشوء إسرائيل : غزو - استيطان - ثورة . وفي الفصل الرابع
(55) من كتابه الهام وتحت عنوان (منطلقات جديدة نحو تاريخ مستقل
لإسرائيل) يعرض تلك الفرضيات والنماذج وهي :

(1) مراجعة أنثروبولوجية لفرضية آلت عن الاستيطان :

لكتابة تاريخ مستقل لإسرائيل القديمة يجب الأخذ في الاعتبار ثلاثة
أشكال مختلفة من البيانات المباشرة المستخلصة من المصادر الأولية لإعادة
بناء تاريخ إسرائيل القديمة :

أ- الحفريات الأركيولوجية : وتحليلها وتصنيفها وتفسير الحقائق
المستخلصة من الأركيولوجيا ونماذج الاستيطان القديمة في فلسطين
المعروفة جغرافيا وإقليميا .

ب- ثروة الآثار الكتابية القديمة : المرتبطة مباشرة أو مدورة بفلسطين
القديمة : الشعب - جيرانه - اقتصاده - البنى الدينية والسياسية - نمط
الحياة والحوادث المعروفة.

ج- المرويات التوراتية : التى تعكس صراحةً أوضاعنا العصر الذى تشكلت فيه والذى يرسم تصور إسرائيل التى نبحث عن أصلها . والضرورة تدعو إلى التمييز بين ما تورده القصص التوراتية كحقائق وماتورده كرواية . فمثلاً هناك اختلاف كبير بين قصص الشعوب التى نعرفها من واقع حياتها السياسية مثل عمون ومؤاب وأنوم وآرام ومدينّ والفلسطينيين والمصريين والآشوريين والتى نعرفها من المرويات مثل : الحوريين والجرجاشيين والفرزيين وحتى الكنعانيين والعبرانيين . أو الأماكن المذكورة فى الروايات مثل عدن وأرام نهرين وجرار وجاسان وسدوم وعمورة وسالم وحتى حار سيناء بالمقارنة مع الأماكن المعروفة فعلاً لدى المنقحين مثل القدس وجازر ومجدو وأريحا وعائ . والمصادر المتصلة بالوضع المادى فى إسرائيل القديمة وإمكانية إعادة بناء تصور لذلك الوضع ذات فائدة غير مباشرة فى مجال إعادة بناء تاريخ إسرائيل . ونؤمن مع ذلك معلومات أولية مثل جغرافية فلسطين ومعرفة تاريخ وثقافة العالم القديم . والدراسات السوسولوجية والأنثروبولوجية تقدم لنا نماذج لما قد تكون إسرائيل قد كانت عليه . أى مجرد نماذج وأشكال وليس مادة تاريخية . تقارب هذه النماذج هام جداً منهجياً . وينبغى أن يُبحث عن نماذج من الشرق الأوسط (لاسيما من نفس مناطق فلسطين) وإذا أمكن من الحقبة القريبة من وقت نشوء إسرائيل. وعلينا أن نفحص مدى ملائمة كل نموذج فى كل حالة على حدة وأخذ نقائصه بالاعتبار عند التقويم .

وكتاب ن . بى . ليمخى (ليمشى) N.P.Lemche (إسرائيل القديمة) هام جداً بالنسبة لهذا الموضوع بالذات . وكذلك دراسات (كوتى) Coate و (وايتلام) White Lam و(فنكلشتين) Finkelstein تقوم على أساس البيانات غير التوراتية (تقوم على الأركيولوجيا ونماذج الاستيطان فى فلسطين) .

ويقدم (ليمشى) كبدل للتاريخ التوراتى مراجعة للتحوّل من العصر البرونزى المتأخر إلى العصر الحديدي فى فلسطين بالاستناد إلى المصادر الأركيولوجية . ويلاحظ بدقة أن التمييز الشائع بين ثقافة الكنعانيين والإسرائيليين لا مبرر له فى سجل الأركيولوجيا حتى الآن . وهذا قاده إلى استنتاج تاريخى يشاركه فيه عدد من الدراسين وهو أن :

إسرائيل كانت محلية فى فلسطين .

وهو لا يختلف فى ذلك عن (آلت) . ويرى (سوجين) أن قصص الملكية الموحدة تشكل علاقة تحوّل فى القصص التوراتى من أدب شعبى لا يعتمد عليه تاريخيا (قبل قصص شاول وداد) والقصص التاريخية الموثقة عن الملكية .

ويبرهن (ليمشى) بوضوح على الحاجة إلى التأكيدات والبيّنات غير التوراتية قبل أن تتمكن المرويات التوراتية من تزويدنا بالأساس الملائم لإعادة بناء تاريخ إسرائيل .

وينتقد (لوريتز) Loretz بحدة جهود المؤرخين الرامية إلى الربط بين (عابرو) الذين نجدهم فى رسائل تل العمارنة كطبقة اجتماعية دنيا ناقمة ولاجئين تحولوا إلى قطاع طُرُق ولصوص فى المناطق الجبلية والـ (عبرانيين) كعرق يشير إلى الإسرائيليين (أصله عبريم) . وينتقد لوريتز كل ذلك مبيناً الخطأ الفادح الذى تتطوى عليه تلك المحاولات لشرح أصول إسرائيل على أساس هذا الربط حيث يقول :

إنه لا توجد بَيِّنَات تاريخية تربط بين رسائل تل العمارنة فى القرن الرابع عشر ق.م و (العابيرو) المذكورين فيها مع أصول إسرائيل . فلا سبب يدعونا لأن نرى هذا الموضوع اللغوى مرتبطاً بأى شكل كان بتاريخ إسرائيل.

وهناك برهان آخر أورده (ليمشى) فى نقده لكتاب (جوتوالد) Gott
Wald ومفاده :

إن معظم روايات عصر السبى البابلى وما بعده كُتبت بشكل مستمر بعد قرون من نشوء البنى الاجتماعية فى العصر الحديدي فى فلسطين .

(2) الزراعة فى المرتفعات الوسطى :

وكلها دراسات فى ممارسة الزراعة ومايلزمها مثل تنظيم المصاطب فى المناطق الجبلية وإزالة الغابات ، والزراعة الانسيابية والابداع فى تخزين المياه والأدوات الحديدية المستخدمة واعتماد الدورات الزراعية والتسميد وإراحة الأرض واختراع معصرة الزيت الخشبية ووسائل التخزين المبتكرة والعمل الحقلى وأنواع المحاصيل وتلفها (بسبب الآفات وخلافه) ومشاكل خصوبة الأرض .

وهذه الدراسات تعطى رؤية كافية عن المسار الاستيطانى فى المناطق الجبلية التى يُفترض وجود مستوطنات إسرائيلية بها .

(3) السوسيولوجيا ونشوء المَلَكِيَّة :

وَصَف (هوبكنز) لنشوء المَلَكِيَّة بأنه :

معارض لأسس الحياة القروية الإسرائيلية الهادفة لتأمين الكفاية غير سديد تاريخيا وتحليليا . ويرى (هوبكنز) أيضا أن الملكية مسئولة عن حصول تغيير مزدوج فى الانتاج الزراعى . ولا برهان عنده بأن الضرائب كانت السبب الرئيسى للتغيرات الكاسحة فى زراعة المناطق الجبلية خلال فترة الانتقال إلى المَلَكِيَّة . وكذلك تأكّيده أن فلاحه الكفاية كانت سمة مميزة للفلاح فى المرتفعات التى يفترض وجود الإسرائيليين بها . وتقوم فكرة (كوتى) ، (وايتلام) White lam&Coate عن أصول إسرائيل فى أن بدايات الاستيطان فى المرتفعات والسهوب أوائل العصر الحديدي جاءت نتيجة لانهيار التجارة أواخر العصر البرونزى وأن انتعاش التجارة مجدداً فى العصر الحديدي الأول أمسك بزمام النمو التجارى الذى قاد إلى تشكيل دولة إسرائيلية تحت حكم داود وسليمان وينتقد (طومسون) Tomas L. Tompson⁽⁵⁶⁾ ذلك معترضا على تلك التفسير فيقول إن :

1-معظم السكان يسكنون الوديان والأراضى المنخفضة والمواقع الجديدة فى المرتفعات قليلة وصغيرة وهشة .

2-ليس واضحا أن هذا الاستيطان الجديد أتى نتيجة إنهاء التجارة فى أواخر العصر البرونزى بل توجد عوامل أخرى مؤثرة مثل دور الامبراطورية المصرية فى دعم التجارة ودور الدول المدينية الفلسطينية والاستقرار السياسى والاقتصادى فى المرتفعات .

3-الاستيطان الجديد لم يقتصر على المرتفعات والسهوب فقد وجد أيضاً فى السهل الساحلى وجرزىل منذ أواخر العصر البرونزى وحتى العصر الحديدي .

4-استيطان المرتفعات والسهوب لم يحدث دفعة واحدة وفي وقت واحد بل تدريجياً . واعتمد كثيراً على التجارة الإقليمية .

5-لم تتوافر بينات على أن تلك التغيرات تُفسّر حصراً على أنها تحوّل سكاني من الأراضي المنخفضة إلى المرتفعات والسهوب .

6-الانهيار اعترى التجارة الدولية وليس الإقليمية ولكنه قد يكون عمق الركود الاقتصادي في العصر الحديدي الأول وشجع على الرحيل من المدن .

7-التزايد الدرامى فى عدد سكان المرتفعات فى أواخر العصر الحديدي الأول وأوائل العصر الحديدي الثانى بسبب علاقته بزراعة الأشجار المثمرة وانشاء المصاطب كان يستلزم افتراض استقرار لمدة طويلة فى المنطقة .

8-افتراض كوتى ووايتلام وغيرهم بوجود صراع عنيف وحروب مفتوحة بين الإسرائيليين والفلسطينيين فى هذا الوقت المبكر غير محقق ويقوم على أساس انعكاس تاريخى مشوش لمرويات توراتية لاحقة .

(4) الأركيولوجيا وتاريخ مستقل لإسرائيل :

يخالف (فنكلشتين) Finkelstein الأركيولوجى الإسرائيلى نظرية (آلت) Alt عن البداوة الرعوية بالقول إن أصل مستوطنى المرتفعات محلى .

وتشير (هـ . ويبيرت) H.Weippert فى كتابها⁽⁵⁷⁾ إلى :

إن فهم أركيولوجيا المنطقة يستلزم الإشارة المستمرة إلى ماهو خارج حدودها وإدراك أنه لا يوجد موضوع أركيولوجى واحد فلسطينى تحديداً . فلسطين نفسها منقسمة إلى مناطق منفصلة ومتميزة . وكتاب (جى الستروم) G. Ahlestrom⁽⁵⁸⁾ يركز على موضوع الإقليمية ويتعامل معها تاريخياً (فى موضوع إسرائيل) مستقلاً عن التاريخ التوراتى . فهو يظهر بوضوح إمكانية كتابة تاريخ (علمانى) إلا إنه يعود مجدداً فيستعين بالأدبيات غير التوراتية والقصص التوراتية فى محاولات خلق توفيق متاسق بينها للتدليل على بعض القضايا فى الحقبة الملكية (سواء الملكية الموحدة تحت حكم داود وسليمان (عليه السلام) أو دولتى يهودا والسامرة المنفصلتين أو النزاعات مع الفلسطينيين وغيرهم من الجيران) .

و (هـ . ويبرت) توصى بالحذر عند تحديد الأركيولوجين الميدانيين للدمار فى حقبة (دبورة) أو (داود) أو عند تحويل المباني الإدارية والتحصينات إلى (سليمان) . وهى توجهنا إلى الاهتمام بالبيئات الأركيولوجية المترامية خلال القرن (التاسع عشر الميلادى) وأساسيات التفسير التاريخى للآثار الأركيولوجية . وتحثنا على مزيد من الاهتمام بالتسلسل الزمنى والدلالات التاريخية للتوجهات الجديدة والعناية التامة بالأركيولوجيا الإقليمية على مبدأ (معاصرة ماهو متعاصر) .

ويشير (ن . بى ليمشى) Lemche فى دراسته الحديثة عن الكنعانيين مسألة ماإذا كانت القصص التوراتية تاريخية فى الواقع أم لا . ويستنتج أن :

وصف المرويات التوراتية الكنعانيين لم يشير إلى أى إثنية فى العالم الحقيقى لإسرائيل القديمة أو أى كيان تاريخى - سياسى محدد . وسمة تلك القصص والتقاليد التوراتية انعكاس لايدولوجيا الحقبة الفارسية (مماثل لفهم كينوف وجاربينى) وكونها قصص يجعل مسائل المرجعية تبتعد كثيراً عما يستطيعه التاريخ (المرويات التوراتية أقرب إلى روايات الأصول منها إلى التاريخ) .

ويشير (طومسون)⁽⁵⁹⁾ إلى إنه ينبغي أن نتخلى عن استخدام التاريخ التوراتى كمصدر صالح لكتابة التاريخ . فالسكان الأصليون فى فلسطين لم يتغيروا كثيراً منذ العصر الحجري . وخلال الألف السادس (أى الرابع ق.م) وفلسطين أصبحت سامية (بمفهوم لغوى) . وخلال العصر البرونزى القديم أقامت نمطاً استيطانياً واقتصادياً بقى من خصائص المنطقة حتى الحقبة الآشورية على الأقل . والسمة الأهلية للسكان لم تعد موضع تساؤل الآن . وهى السمة التى تظهر بوضوح فى جذور الثقافة المادية فى العصر البرونزى القديم (والظاهرة فى الأواني والبناء وطقوس الدفن وأنماط الاستيطان) . وبذا تنهار فرضيات الغزو الخارجى . والسيناريو القديم عن الغزو البدوى كسبب للدمار المفاجئ فى مدن وقرى العصر البرونزى القديم تخلق عن مكانته للإيضاحات المناخية والايكولوجية للانهايار التدريجي لحضارة العصر البرونزى القديم .

ويلاحظ (يوركو) أن الفنانين المصريين يرسمون سكان إسرائيل بنفس الأسلوب الذى يرسمون به سكان عسقلان وجازر (فى لوحة مرنبتاح المكتشفة فى تل العمارنة) . وأن مجموعة إسرائيل التى هزمها مرنبتاح هى مجموعة محدودة تماماً ضمن سكان فلسطين تحمل الإسم الذى يرد هنا لأول

مرة . وفى مرحلة لاحقة متأخرة من تاريخ فلسطين أصبح يحمل معنىً مختلفاً إلى حد كبير .

ويعتبر (طومسون) أن (نُصْب إسرائيل) هو مجرد اسم فى بيئة تاريخية شاع فيها تغيير الأسماء الجغرافية والقبلية وتشويشها على مدى قرون . والبيّنات المستخلصة من الأركيولوجيا تقدم دليلاً ضد أى تأكيد لوجود أى بني سياسية غير إقليمية فى مرتفعات فلسطين . وبالتالي فإن وجود إسرائيل أو يهودا فى مثل هذا التاريخ المبكر لاتؤيده المعلومات المتوفرة عن فلسطين فى تلك الفترة .

ويوجز (أوديد) B.Oded عدداً من الأسباب التى جعلت الآشوريين يعمدون إلى التغيير السكانى فى البنية السكانية فى الامبراطورية لأسباب منها :

- 1- استخدام التهجير كعقاب على المقاومة أو الثورة .
- 2- القضاء على المنافسين المحتملين .
- 3- القضاء على إمكانية المقاومة والعصيان .
- 4- سياسة التوطين هدفت إلى إيجاد جماعات تعتمد عليها السلطة الآشورية ضمن الشعوب المحكومة فتبقى مخلصه لها .
- 5- التجنيد العسكرى والسيطرة على الزعماء السياسيين والنخبة .
- 6- احتكار اقتصاد الحرفيين والعمال المهرة والسخرة وتجارة عبيد محدودة .
- 7- بعض المستوطنات الجديدة أقيمت لأغراض استراتيجية وشملت عدداً من المستوطنات شبه العسكرية .
- 8- بعض السكان نُقلوا فى محاولة لإعادة بناء المدن المفتوحة واستيطان

الأراضي الخالية .

- 9- السيطرة على البدو الجامحين وتوطينهم .
- 10- تقسيم أراضي يهودا على ملوك أشدود وعفرون وغزة التابعين لآشور لمساعدتهم في صراعهم ضد أورشليم .
- 11- إخضاع حزقيال وجعل أورشليم دولة تابعة لآشور .
- 12- إيجاد الولاء ودعم السكان ضد حكامهم الذين يعارضون السياسة الآشورية والحكم الآشوري عند إعادة استيطانهم .
- وإشارة لمكانة القدس (أورشليم) يقول (طومسون)⁽⁶⁰⁾

الاستراتيجيات الاقتصادية التي سادت في فلسطين على مدى قرون كانت تؤدي إلى اللامركزية (لا المركزية) للسلطات المحلية المركزية في فلسطين مثل صور وحاصور ومجدو وجازر ولخيش وبئر السبع وعسقلان وغزة وتل المشاش وشكيم والقدس استندت سلطتها مبدئياً على الروابط الاقتصادية المحلية المقتصرة على مناطقها . وظهور سلطات عبر إقليمية مثل توطيد القدس لنفوذها خارج وادي عيلون وهضبة القدس ليشمل مرتفعات يهودا وبعدها شمال النقب وشيفيلة ودمج السامرة الظاهر للمرتفعات الوسطى المتنوعة وتوسيع مصالحها ونفوذها إلى المناطق الغنية زراعياً والكثيفة السكان في جرزيل ووادي الأردن الشمالي وبالتالي حتى البحر إلى الغرب وشرق الأردن إلى الشرق . وكل ذلك يستلزم أيضاً تاريخياً لهذه التوسعات باعتبارها حالات شاذة في تاريخ فلسطين .

والتاريخ التوراتي الذي يركز مع الفلسطينيين باعتبارها عامل توحيد وبناء أمة ويعتمد على استقامة قيادة كارزمية مثل شاول وداود يدخل في نطاق الأدب الرائع لكنه لا يشرح شيئاً تاريخياً . وما كشفت عنه الحفريات التي

تمركزت في المرتفعات الوسطى في فلسطين عن الانهيار في العصر البرونزي الأخير والانتقال إلى العصر الحديدي الأول وكذا الدراسات الجغرافية والانثروبولوجية والأركيولوجية توضح مسار تشكل الدولة إذا تجاوزنا الحدود الزمنية التي يضعها (آلت) عن ظهور دولة إقليمية في المرتفعات الوسطى. وتوجه مصالح القدس جنوباً في يهودا جاء نتيجة توسع وطموح تجارى وليس لهدف سياسى أو عسكرى . فالتجارة الإقليمية كانت جوهر وقاعدة اقتصادها. ومصالح القدس (جنوباً) الزراعية توسعت بعيداً في وادى عيلون . وامتداد سلطة القدس السياسية في يهودا جاء بعد لا قبل الاستقرار في المرتفعات (خلال العصر الحديدي الثانى) وهو الذى استلزم إخضاع المراكز التجارية التي تنافسها . ولم تأخذ القدس ببعض مظاهر الدولة الإقليمية المسيطرة إلا في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ق.م وباشرت القدس دوراً ثانوياً على حافة العالم الآشورى ولم تأخذ طابع العاصمة الإقليمية وحجمها إلا بعد تحرك آشور ضد الجنوب (في نهاية القرن الثامن ق.م) وتدمير لخيش .

والوضع السياسى المتغير في فلسطين والحاجة إلى استيعاب تدفق اللاجئين ضمن سكانها حول القدس من دولة إقليمية زراعية صغيرة تشبه مؤاب وأدوم في شرق الأردن إلى مجتمع طبقى ونخبة مسيطرة (وربما معبد يكرس دين الدولة) ودولة عازلة بين القوتين الامبرياليتين الرئيسيتين : مصر (في الجنوب) وآشور (في الشمال) .

وهذا التنامى في ثروة ورخاء وهيبة نخبة القدس وانخراط القدس تدريجياً في سياسات التجارة الدولية قادها في النهاية إلى مواجهة مباشرة مع الجيش الآشورى مما أدى إلى تدميرها وتفكيكها من جانب البابليين . وهو الدمار الذى

أدى إلى ركود اقتصادي مدمر وانهيار المجتمع بكامله .

وفى محاولة جادة لشرح الوضع الاجتماعي لليهود خلال التاريخ كما تبينه النصوص التوراتية يقول (موفق محادين) ⁽⁶¹⁾:

إن اليهود لم يخرجوا عن وظائفهم التاريخية غير الانتاجية للأسباب التالية :

أولاً : ظلت الوظيفة الاجتماعية اليهودية تملي على الحاخامات إعادة انتاج تفاسير العهد القديم بما يخدم هذه الوظيفة وخاصة الرموز الفلاحية . فنقرأ فى الأسفار التوراتية ⁽⁶²⁾ أن الأماكن المرتفعة وتقديسها هى طقوس وثنية لاتليق بالشعب المختار . ولعل ترميم سفر التثنية وتخليصه من الرموز والطقوس الفلاحية الوثنية أهم مؤشر مبكر على العداء اليهودي للفلاحين . (تم تأليف هذا السفر فى القرن السابع ق.م. أى بعد موسى بحوالى سبعة قرون) .

ثانياً : الانحياز لـ (هابيل) الراعى ضد قايين (قابيل) المزارع وليعقوب ضد عيسو . وظلت التوراة تربط بين الأغيار والفلاحين على إطلاقهم وتعتبرهم أدنى درجة من اليهود شعب الله المختار من الناحية البيولوجية وظلت الشعوب الفلاحية بالنسبة لليهودى تساوى (قايين) الملعون فى التوراة ومصدر كل خطيئة بما هو فلاح . وأن الخروج من مصر (قديما) ومن أوروبا الشرقية (حديثا) والته فى الصحراء ثم الشرق الأوسط ليس إلا تكفيراً عن خطيئة العيش مع الشعوب الفلاحية فى مصر وأوروبا الشرقية .

ثالثاً : رغم الحديث التوراتى عن الأرض الموعودة للشعب المختار إلا أن الأرض لم تحتل سوى قيمة ثانوية جداً فى الفكر الصهيونى كما فى الواقع اليهودى نفسه (تذكر التوراة أن إبراهيم (عليه السلام) اشترى أرضاً من عفرون الحيثى ليدفن زوجته سارة مع إنه كان مقيماً فى الأرض المدعوة للشعب المختار) .

رابعاً : لا حظ (إبراهيم ليون) ⁽⁶³⁾ أن الأرض التى كانت ملكاً لليهود كانت تتشكل أساساً من عمليات مضاربة ذات طبيعة ربوية أو تجارية .

ويذكر (إسرائيل شاحاك) اليهودى أن سمات المجتمع اليهودى ظلت سمات غير فلاحية ابتداءً من القرون الوسطى وحتى القرن العشرين .

خامساً : يُعتبر الإله اليهودى (يَهْوَه) إلهاً رعوياً وليس زراعياً أو فلاحياً (العصا فى القصّ التوراتى عن موسى ترمز كإسقاط مقدس لوظيفتها بالنسبة لأى راعى) .

ويقول (أ . ليون) ⁽⁶⁴⁾ : لم يُشتت اليهود إطلاقاً منذ سقوط أورشليم إذ كانت الغالبية العظمى من اليهود قد تبعثرت فى أنحاء العالم قبل هذا الحدث بعدة قرون (ثلاثة أرباع اليهود كانوا يسكنون خارج فلسطين قبل سقوط القدس بمدة طويلة) .

ويرى (موفق محادين) ⁽⁶⁵⁾ أن الجيتو اليهودى (الغزلة) Getto من اختراع اليهود أنفسهم ولأسباب اقتصادية أضفى عليها الحاخامات طابعاً دينياً من أجل تكريس دورهم داخل هذه الطوائف . وأن ايدولوجيا الغزلة التى حاولت تسويق المشروع الصهيونى بالإعلان عن صعوبة اندماج اليهود

مع الآخرين بسبب لاسامية هؤلاء (تجلت في مذابح دائمة ضد اليهود) ليست ايدولوجيا رجعية فحسب بل مزعومة في الأساس . لأن الانغلاق الداخلي (العزلة) لم يكن مقصوراً على اليهود وحدهم بل على كل المجاميع البشرية وبسبب غياب شرط الأمة الكاملة في مراحل ما قبل الرأسمالية .

ويقول (أوسويل)⁽⁶⁶⁾: إن اليهود عاشوا كطائفة منفصلة لأنهم مثلوا نظام (اقتصاد السوق) بين ظهرائي شعوب تعيش في نظام (اقتصاد طبيعي) .

ويقول (كانتور)⁽⁶⁷⁾ الأمريكي : إن اليهود تعرضوا للاضطهاد والمغادرة أحيانا في نطاق الامبراطورية الرومانية في وقت لاحق لأنهم أنكروا ألوهية القياصرة انطلاقاً من الإيمان بالإله الواحد (كما أدى ذلك أيضا إلى اضطهاد المسيحيين) .

ويشير (ليونارد تشاين)⁽⁶⁸⁾ إلى أن : اليهود قد استقروا قبل انهيار الدولة اليهودية بوقت بعيد في مصر وبرقة (ليبيا) وسوريا ومابين النهرين (العراق) وإيطاليا واليونان . وقد كان عدد اليهود على أعتاب المسيحية 700 ألف شخص فقط في حين كان عددهم في الامبراطورية الرومانية وحدها زهاء أربعة ملايين .

ويضيف الباحث (أحمد عثمان)⁽⁶⁹⁾ قائلا :

ليس صحيحا أن هجرة اليهود خارج فلسطين (الشتات) جاء نتيجة لمنع الرومان لهم من دخول القدس . وليس صحيحا أن تلك الهجرة كانت جبرية مفروضة عليهم بل أن معظم الهجرات تمت قبل تدمير المعبد في سنة 70 ميلادية (عهد الامبراطور الروماني طيطس) وهكذا تركت غالبية اليهود

أرض فلسطين بشكل اختياري وانتشروا في آسيا الصغرى وسوريا. وتقوم
تعاليم أحبار التلمود على أساس (الجنس الطاهر) . وتلك التعاليم هي التي
أدت في النهاية إلى عزلة اليهود في بلدان العالم التي هاجروا إليها اختياريًا
ثم وقوعهم ضحية للاضطهاد بعد ذلك .

ويعترف (شاحاك) ⁽⁷⁰⁾ اليهودي بأن الإسلام عامل اليهودية بتسامح يفوق
التسامح الذي لاقتة من المسيحية .

وفي ظل الامبراطورية العربية المسلمة (العثمانية) كان بإمكان اليهود
بصفتهم رعايا للسلطان أن يسافروا من وإلى فلسطين ولكنهم فضلوا
واختاروا العيش في القسطنطينية (اسطامبول) ودمشق والقاهرة لافى
فلسطين . وكان من نتائج أزمة عام 1929 م (الركود الاقتصادي العالمي)
طرد اليهود من الرايخ الثالث (كانوا حوالي 500 ألف يهودى عام 1933م)
وغادروا الرايخ حوالي 226 ألف يهودى بخلاف المهاجرين من السياسيين
ومن الآريين فوصل العدد حوالي 400 ألف توجه معظمهم إلى فلسطين .

وظهرت أحزاب جديدة على غرار الفاشية والنازية فى بولونيا وهنجاريا
ورومانيا تشكلت من المثقفين والخريجين الذى اعتقدوا بأن اليهود يزاحمونهم
على المهن . وطالبت تلك الأحزاب بدكتاتورية عنصرية تأخذ على عاتقها
مهمة تطهير البلاد من اليهود وقطع دابرهم . وفى هذه المناخات ولدت
الحركة الصهيونية كحركة برجوازية صغيرة وليس كحركة للبرجوازية
الكبيرة وبالتالي كان مشروعها انعزاليا وليس اندماجيا .

ويصف (هرتزل) و (ليوبينسكى) ⁽⁷¹⁾ الصهيونية فيقولوا:

الصهيونية ردة فعل البرجوازية اليهودية الصغيرة .

ويقول (إبراهيم ليون) ⁽⁷²⁾ :

إنها تلك البرجوازية المختنقة بين الاقطاعية المنهارة والرأسمالية المنحطة . وقدمت ايدىولوجيا الصهيونية نفسها بشد (هيجل) إلى (كانط) وتروج الميتافيزيقا الصهيونية انطلاقا من لاسامية (الأنا) التى لا تعترف بالصهيونية كفكرة مطلقة مقدسة متعالية.

فالقضية تقابل الشيء فى ذاته (عند كانط) والصهيونية - كايديولوجية عزلة - عنوانها : نوح - المصطفى - هابيل - إبراهيم. المتحولين من جهة وامتدادهما الرمضى بعد زواج اليهود من آخرين . كدلالة سامية عرقية اطلاقية ضد التعيين الأرضى كمعادلة للاندماج . فلا تستعيد الفكرة نفسها على طريقة التركيب (الهيجلية) (نفى النفى يتوسط الواقع) أى واقع الفكرة . بل على طريقة الخلق من خطيئة الآخرين وبطريقة القفزة الحدسية (كيركغارد زائد شيلنج) مضافا إلى ذلك أن مثل هذه الاستعادة فى صورتها المماثلة للخلق الأول تعنى أن كل خلق أول هو خلق يهودى بالضرورة . يتوجب عليه أن يظل نقيا بدون أن يتلوث بدماء الآخرين من خلال الاندماج . كما أن الاعتراف بالتعيين اليهودى يعنى الاعتراف بالسيرورة وقوانينها الموضوعية . ويجزى إلى القول بأن دمار مملكتى إسرائيل ويهودا وكذلك الشتات اليهودى عقاب لبنى إسرائيل أنفسهم وليس للآخرين الذين دمروا هاتين المملكتين . ويظل اليهود - ماداموا نخبة خاصة عرقيا فى عرفهم - تعبر عن الفكرة المقدسة - لديهم - التى لم يلوثها الاندماج حيث يكف اليهودى عن كونه يهوديا فى حالة الاندماج أو الذوبان مع الآخرين . وهو ما يفسر الاستعارة الصهيونية لمفهوم الخطيئة فى التوراة وفق المقابلات المفارقة التالية :

(أ) إذا كانت الخطيئة تطال كل البشر فى طوفان التوراة باستثناء نوح وقومه الأقربين فإن إسرائيل صورة مصطفة معاصرة أخرى لنوح الذى اصطفاه الله من بين البشر الخطائين وأعاده إلى السماء بعد الطوفان وأورث أحفاده الخُص من اليهود خصائص بيولوجية مطلقة تسمو على بقية البشر .

(ب) اليهود خارج الخطيئة . فالخطيئة دنيوية واليهود شعب الله فإن العقاب والندم لا يطلان إلا غير اليهود فقط. بل وإزاء اليهود أيضا باعتبارهم وكلاء الله الذين حملوا رسالته إلى البشر .

ويقول (هرتزل) ⁽⁷³⁾: لا يستطيع اليهود أن يعيشوا باتسجام مع غير اليهود .

ويقول (بينسكر) ⁽⁷⁴⁾: إن اليهود يشكلون عمليا بيئة منعزلة عاجزة عن التمثل مع أية أمة ولذا لا تستطيع أية أمة أن تطبق اليهود فى بيئتها .

وفكرة المجيء اليهودية ترتبط بالأسر البابلى والتهى فى سيناء ودعوة الرب لشعبه واتحاده المقدس معه من خلال إعادة بناء الهيكل وقيام (المسيح اليهودى) من نسل داود . وفى الأساطير أن التاريخ هو الذى منح الحضور الجديد لأسطورة قديمة . فليس الماضى إلا تجسيدا للمستقبل وليس المستقبل إلا استعادة للماضى تقوم على تكرار النماذج الأولى ورفض الزمان الواقعي . وحسب مآثرات الأثرتك دُمّر العالم ثلاث مرات ولا يزال بانتظار الرابعة . وبين المرة والمرة ألف عام .

وفكرة (الألفية) هذه لم تحتل حيزها فى الموروث اليهودى نفسه إلا مؤخراً وبصورة مغايرة للفكرة اليهودية نفسها . فلم يعد المخلص المنتظر ملكاً يهودياً من نسل داود بل أصبحت إسرائيل بكاملها . ولكن كمقدمة لانبعاث (المسيح المسيحي) وليس (المسيح اليهودي) .

وكان للإصلاح الكنسي البروتستانتي دوراً فى ضرب التنميط والإطاحة بحق الكنيسة فى احتكار الكتاب المقدس وتحديد الرؤية المسيحية الفكرية . فكل بروتستانتي أصبح حراً فى دراسة الكتاب المقدس واستنتاج معنى النصوص التوراتية بشكل ما . ففتح ذلك الباب للبدع فى اللاهوت المسيحي التى رأت أن اليهود شعب مميز وليس من الصحيح أنهم قتلة المسيح وكفرة وهرطقة وشعب عاق شنتهم الله فى المنافى عقاباً لهم على ما ارتكبوه من الخطايا والآثام .

وبالتزوير التاريخي تسلل إلى العقل الأوروبي ما يسمى (بالحق التاريخي) لليهود فى فلسطين كما لم يعد المسيح اليهودي المنتظر يهودياً بل مسيحياً باعتبار أن المسيح (عيسى) قد جاء وانتهى . ونشأت فكرة أن مجيء المسيح وانبعاثه لا يتم إلا بعد قيام إسرائيل وبناء الهيكل . ولذا فالوقوف ضد إسرائيل هو وقوف ضد الله وعدم مساعدة اليهود على استكمال السيطرة على فلسطين يعنى تأخير عودة المسيح (المسيحي) .

ويصل تحليل (بوروشوف)⁽⁷⁵⁾ مستنتجا أن حل المسألة اليهودية لن يأتى عن طريق النضال فى سبيل (الاستقلال الذاتى القومى الثقافى) كما كان يطلب (البوند) ولا عن طريق الاندماج والنضال إلى جانب القوى الثورية المحلية فى سبيل الثورة الاجتماعية وإنما عن طريق الهجرة المنتظمة إلى

المكان الذى يوفر لليهود إمكانية تغيير تركيبته الاجتماعية ويسمح لهم بالنفاذ إلى مرافق الإنتاج الأساسية . وعندما تغيب الأرض والطبقة يكون دور الطبقة استعادة الأرض وحل المسألة القومية كإطار للصراع الاجتماعي لاحقاً .

ويقول (سوكلوف) ⁽⁷⁶⁾: يشكل اليهود وحدة عرقية وتاريخية وثقافية هي الأساس المشترك لبعث حياة قومية كاملة فى وطن آبائهم .

وعند (مارتن بوبر) ⁽⁷⁷⁾: اليهود هم الشعب الوحيد فى العالم الذى تتكون خلال الأزمنة الغابرة كأمة وكسبط دينى فى آن واحد .

وكل هذه التصورات والمفاهيم يجرى تغذيتها وتعزيزها بالتوراة حتى لا يقال أن شعب الله المختار يبحث عن مسوغات أخرى خارج كتابه المقدس.

وإلى جانب التلمود وكتاب السبى البابلى (المرويات التوراتية غير الأسفار الخمسة الأولى) تصطف المساهمات الألمانية العرقية بجوهرها كما هو الحال عند نيتشه وجومبلوفكس وجوبينو وليبينتز أو باسقاطاتها المختارة والملفقة كما هو الحال بالنسبة لأعمال هيجل وكانط ⁽⁷⁸⁾.

ويشير (د. أحمد أبو النور) فى كتابه الثانى من سلسلة (رسائل آخر الزمان) ⁽⁷⁹⁾ إلى أن المعتقدات اليهودية المقدسة تدور فى فلك كتابين أساسيين هما :

1-التوراة : مرفق بها تراث الأنبياء التالين لموسى (عليه السلام) والسابقين لعيسى (عليه السلام) .

2-التلمود : (80) وهو الكتاب الأقدس عند اليهود

ويمثل الكتابان خلاصة السيرة العقائدية والتاريخية لليهود طيلة أزمنتهم. أما (بروتوكولات حكماء صهيون) فيعتبرونها اللائحة التنفيذية لكتابهم الأقدس التلمود .

وعن التوراة يقول : إن التوراة الحقيقية التي حصل عليها موسى (عليه السلام) من ربه تعالى على ألواح الحجارة وكان موسى منفرداً في حضرة ربه تاركاً بنى إسرائيل لأخيه هارون:

*ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه فى جبل سيناء لوهى الشهادة .
لوهى حجر مكتوبين بإصبع الله (81)

أى أن التوراة الحقيقية هى لوهى حجر بما يمكن ترجمته فى حدود 15 صفحة فلو سكب . ويتساءل (د. أحمد أبو النور) عن حجم التوراة المتداولة حالياً وهى حدود 300 لوحاً حجرياً بوزن يتجاوز 600 كجم . وعن مدى صحة ما فى هذه النسخة والاضافات الكبيرة فيها . والقرآن يقول :

* وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء . (82)

أى أن التوراة المنزلة كانت تفصيلاً وليست إيجازاً ولفظ الجمع (الألواح) غير لفظ المثنى (لوهى حجر) ويعتقد الكاتب أن التوراة كانت مكتوبة فى حوالى 15 لوحة حجرية وزنها جميعاً فى حدود 60 كجم .

وفى نقده للتوراة المتداولة يقول : إنها خلت من موضوع البعث وحساب الآخرة . وكأى دين سماوى لامجال لإنكار البعث أو الحساب .

ويتناول بعد ذلك (التلمود) بالنقد فيقول⁽⁸³⁾:

إنه صناعة بشرية 100% وقد جاء به على سبيل المثال :

* إن من درس التوراة فعل فضيلة لا يستحق المكافأة عليها . ومن درس المشناة فعل فضيلة استحق أن يكافأ عليها . ومن درس الجمارا فعل أعظم فضيلة .

ويتكون التلمود من قسمين رئيسيين هما : المشناة (المشناة) والجمارا .

و (التلمود) يحوى آراء الحاخامات اليهود على مر العصور شرحا وتفسيرا فى كافة نواحي الحياة وكذلك آراء المحاكم العليا لديهم بعدما صارت التوراة بالنسبة لهم بمثابة الرجل الهرم الذي شاخ.

و (المشناة) : هى بمثابة الأساس البنائى للتلمود كله . ويذهبون إلى أن موسى (عليه السلام) هو واضع بذرة هذا الأساس بعد تلقيه شفاهة من الله . أما (الجمارا) فهى خلاصة الشروح والنقاشات الفكرية المختلفة لأحبار اليهود وحاخاماتهم على مر العصور فى تناول المشناة تحليلا وتفسيرا ولقد أجمعت المصادر التاريخية على أن فئة (الفريسيين) أو المعتزلين أو المنشقين هى صاحبة بدعة القانون الشفوى أو التلمود . ولأن التلمود تمتد إليه الأيادى علنا وصراحة وفى وضوح النهار فقد كان له الدور الأكبر كأداة تفرغ لكل أحقاد اليهود وأحبارهم تجاه شعوب الكرة الأرضية ودياناتها باعتبار أنهم يفسرون نصوص تورانية قديمة سواء لإقحام ما يريدون إقحامه وإعطائه منزلة القداسة من خلال كتاب المشناة أو من خلال إضافته لجزء الجمارا . وقد طبع التلمود فى القرن السادس عشر الميلادي .

وفى التلمود يُعتبر روح اليهودى هى جزء من روح الله (تعالى الله عن ذلك) كما أن الابن هو جزء من أبيه . وأى روح غير يهودية فهى أرواح شيطانية تقارب أو تشابه أرواح الحيوانات . وأن الجنة لن يدخلها إلا اليهود أما باقى الشعوب والأمم فمأواهم الجحيم . والمسلمون - فى نظر اليهود - لا يغسلون سوى أيديهم وأرجلهم (يقصدون الوضوء) والمسيحيون يحركون أصابعهم (يقصدون أنهم يرشمون الصليب) ويدعون زوراً أنه :
*لاشغل الله فى الليل غير تعلم التلمود مع الملائكة .

وعن المسيح وأمه يقولون فى التلمود⁽⁸⁴⁾:

*إن يسوع الناصرى (يقصدون المسيح بن مريم) موجود فى لجان الجحيم بين الزفت والنار . وأن أمه أتت به من العسكرى (باندارا) بمباشرة الزنا وأن الكنائس النصرانية بمثابة قاذورات وأن الواعظين بها أشبه بالكلاب النابحة وأن قتل المسيحى من الأمور المأمور بها وأن على اليهودى أن يلعن ثلاث مرات رؤساء المذهب النصرانى . وأن يسوع (المسيح) قد ارتدّ عن الدين اليهودى وعبد الأوثان .

وفى التلمود أيضاً أن المسيح ولد غير شرعى حملت به أمه وهى حائض . وإن مريم هذه كانت تدعى (ستادا) وأنها كانت عاهرة هربت من زوجها واقتربت الزنا وفيه أيضاً أن الكفار هم يسوع ومن اتبعه .
وكما نرى فهى افتراءات باطلة جملة وتفصيلاً .

وعن تعامل اليهودى مع الغير - كم جاء فى التلمود - نقرأ⁽⁸⁵⁾:

* إن أموال المسيحيين مباحة لليهود كالأموال المتروكة أو كرمال البحر .
فأول من يضع يده عليها يمتلكها .

* إن الله لا يغفر ذنبا لليهودى يرد للأمرى ماله المفقود.

* يسمح بغش الأمرى (أى غير اليهودى) وأخذ ماله بواسطة الربا الفاحش
لكن إذا بعث أو اشترى من أخيك اليهودى شيئا فلا تخذعه أو تغشه .

* غير مصرح لليهودى أن يقرض الأجنبى إلا بالربا .

* إذا وقع أحد الوثنيين (أى غير اليهود) فى حفرة يلزمك أن تسدها بحجر.

وعن (بروتوكولات حكماء صهيون) ⁽⁸⁶⁾ وهى المخطط التنفيذى للتلمود
لحكم العالم يورد (د. أحمد أبو النور) بعضا منها :

* إن المحفل الماسونى المنتشر فى كل أنحاء العالم إنما يعمل فى غفلة من
الآخرين كقناع لأغراضنا ⁽⁸⁷⁾.

* نحن أقوىاء جدا . فعلى العالم أن يعتمد علينا ويرجع إلينا وإن الحكومات
لا تستطيع أبدا أن تبرم معاهدة ولو صغيرة دون أن نتدخل فيها سرا ⁽⁸⁸⁾.

* بحكمى فليحكم الملوك ⁽⁸⁹⁾

* حكمنا سيبدأ فى اللحظة ذاتها حين يصرخ الناس الذين مزقتهم الخلافات
وتعذبوا تحت إفلاس حكامهم فيصرخون هاتفين إخلعهم واعطونا حاكما
عالميا واحداً يستطيع أن يوحدنا. حاكما يستطيع أن يمنحنا السلام
والراحة ⁽⁹⁰⁾.

* ولكى نخرب صناعة الأمميين (غير اليهود) ونساعد المضاريات سنشجع
حب الترف المطلق الذى نشرناه من قبل وفى الوقت نفسه سنرفع أثمان

الضرورات الأولية متخذين سوء المحصولات الزراعية عذراً عن ذلك . كما سننسف بمهارة أيضاً أسس الانتاج ببذر الفوضى بين العمال ونشجعهم على إدمان المُسكرات (المخدرات) وفي الوقت نفسه سنستعمل كل وسيلة ممكنة لطرد كل ذكاءٍ أعمى من الأرض (أى كل شخص غير يهودى ذى قيمة ومهارة)⁽⁹¹⁾

*وبمساعدة أوروبا يجب أن ننشر فى سائر الأقطار الفتنة والمنازعات والعداوات المتبادلة ويجب أن ننطوى على كثير من الدهاء والخبث خلال المفاوضات والاتفاقات . ولكننا فيما يسمى اللغة الرسمية سوف نتظاهر بعكس ذلك كي نظهر بمظهر الأمين الممثل للمسئولية⁽⁹²⁾.

*إن لنا طموحاً لا يُحدّ . وشرهاً لا يشبع ونقمة لا ترحم . وبغضاء لا تحس .
إننا مصدر إرهاب بعيد المدى⁽⁹³⁾.

*نحن جيش مشئت عن الوصول إلى أغراضنا بالطرق المستقيمة . فالمرأوة - فحسب - هى الوسيلة الصحيحة وهى الأصل فى تنظيمنا للماسونية التى لا يفهمها أولئك الخنازير الأمميين (غير اليهود)⁽⁹⁴⁾

وعن (الماسونية) يقول⁽⁹⁵⁾:

إن اليهود فى تاريخهم الطويل ليسوا هم أهل التنفيذ لما يريدون ولكنهم أهل تخطيط المؤامرات من الألف للياء . وعلى الآخرين المختارين أن يقوموا بالتنفيذ . ومن أبرز الأيادى الصهيونية الأخطبوطية تلك المحافل الماسونية وأندية الروتارى وشهود يهوه والليونز وغيرها . وهى منظمات وتجمعات أخذت صفة الدولية والعالمية . وهم يسعون وينجحون فى استقطاب وضم

معظم نجوم المجتمعات التي يعملون داخلها لاجتماعات ومحافل هذه التنظيمات .

وتعتبر المحافل الماسونية أقدم من حركة الصهيونية العالمية الرسمية المعلنة . ولفظ الماسونية مشتق من مسمى (البنائين الأحرار) Free Mason وعملهم البنائي الوحيد هو محاولة بناء هيكل اليهود في القدس مكان المسجد الأقصى .

وعن تنظيم (شهود يهوه) يقول (د. أحمد أبو النور) :

إن هذا التنظيم استعار اسم (يَهْوَه) كإسم لله تعالى ورد في العهد القديم . واعتبروا أنفسهم هم شاهده الوحيد . أو شهوده وكفروا كل مؤمنى العالم من كل الملل والديانات . وهو تنظيم دينى هدفه:

1- هدم المسجد الأقصى والصخرة وكنيسة القيامة . ولكل هدم وقته المناسب .

2- بناء الهيكل .

3- إعلان التنظيم اليهودي الصهيوني العالمي الجديد والذي بمقتضاه تكون إسرائيل الكبرى هى مملكة الله .

وعن نفس المسميات السابقة يأخذنا (د. عبد الوهاب المسيرى)⁽⁹⁶⁾ فى جولة مع دراسته فى الحركات اليهودية الهدامة والسرية شارحا بقوله :

العداء لليهود والاستيطان هما وجهان اختزاليان وعنصريان لعملة واحدة فكلاهما يؤكد وحدة اليهود . وكلاهما يطالب بطرد اليهود من أوطانهم .

والنموذج الاختزالي العدائي لليهود : يتهم اليهود بأنهم يحيكون مؤامرة يهودية عالمية وردت وقائعها في (بروتوكولات حكماء صهيون) وأيضاً في (التلمود) . ومن أهم تجليات هذا النموذج ما يقال له (المؤامرة اليهودية الكبرى) أو (المؤامرة اليهودية العالمية) والتي تفترض أن أعضاء الجماعات اليهودية يكونون كلاً واحداً متكاملًا متجانساً . وأن لهم طبيعة واحدة . ويتسم اليهودي حسب هذا النموذج بالشر والمكر والرغبة في التدمير والاستحواذ والسيطرة على العالم . والتاريخ اليهودي بأسره إن هو إلا تعبير عن هذا النموذج وعن هذه المؤامرة الأزلية المستمرة . واليهود - من ثم - هم المسؤولون عن الشرور والمنكرات في كل زمان ومكان . فهم على سبيل المثال الذين أراقوا دم المسيح (حسب الرواية المسيحية) . وهم الذين وضعوا السم للرسول (ﷺ) في الشاة المشوية . وهم وراء مؤامرة عبد الله بن سبا (ثم أتباعه من بعده) للقضاء على الإسلام . وهم الذين قاموا بدس الإسرائيليات دساً على الدين الحنيف . بل ويُنسب إليهم ذبح أطفال المسلمين وإستخدام دمهم في صنع خبز الفطير الذي يأكلونه في عيد الفصح . وفي العصر الحديث هم وراء أشكال الانحلال المعروفة العلنية والخفية وهم وراء المحافل الماسونية التي أسسوها أداة لمؤامراتهم . وهم وراء البهائية التي تسعى لإفساد الإسلام وكل العقائد . بل وهم على اتصال بعالم الجريمة للمساعدة في إفساد العالم . وهم الذين أدوا إلى ظهور الرأسمالية بكل بشاعتها والبلشفية بكل إرهابها والإباحية . وهم الذين أسقطوا الدولة العثمانية (من خلال يهود الدونمة) ويتحكمون في الصحافة ووسائل الاعلام . وهم الذين ضغطوا على الامبراطورية البريطانية لتصدر (وعد بلفور) وهم الذين يحركون - الآن - اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية لتحقيق مآربهم وتنفيذ مصالحهم .

والصهيونية ليست مرتبطة بظهور الامبريالية الغربية وبهيمنتها على العالم وإنما هي مجرد تعبير عن الشر الأزلى الكامن فى النفس اليهودية ويرى هذا الفريق (التأمريون) أن اليهودى يعانى من ازدواج الولاء ويقاوم الاندماج فى الأغيار ويقع ضحية لعنفهم معه .

وعن (بروتوكولات حكماء صهيون) يقول د/ عبد الوهاب المسيرى⁽⁹⁷⁾ :

إنها وثيقة كُتبت عام 1897 م فى بازل بسويسرا (عام انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول) وتشمل أربعة وعشرين بروتوكولا (وثيقة أو اتفاقية) فى نحو مائة وعشر صفحات ونشرت عام 1905 م . ملحقا لكتاب من تأليف الروسى (سيرجى نيلوس) . وتلك الوثيقة المنشورة مزورة لأنها :

1- وثيقة روسية بالدرجة الأولى والأخيرة .

2- محاولة لبيان الخطر العالمى لليهود على لسان حكماء صهيون .

وثمة رأى يقول أن الصهاينة يقومون بالترويج لهذه البروتوكولات لأنها تخدم المشروع الصهيونى الذى يهدف إلى ضرب العزلة على اليهود وتحويلهم إلى مادة خام صالحة للتجهيز والتوطين فى فلسطين المحتلة . ويساهم بعض أعضاء النخب الحاكمة فى الترويج لهذه البروتوكولات لتبرير العجز العربى والتخاذل أمام العدو الصهيونى . وقد أثبتت الانتفاضة الفلسطينية مدى زيف تلك الدعاوى المذكورة فى البروتوكولات .

وعن (التلمود) يقول د. المسيرى⁽⁹⁸⁾ :

إنه من أهم الكتب الدينية عند اليهود . وهو الثمرة الأساسية للشريعة الشفوية (السماعية) وهو تفسير الحاخامات للشريعة المكتوبة (التوراة) أى

(القرائية) . وهناك تلمودان :

1- التلمود الفلسطيني أو الأورشليمي (تلمود أهل الغرب) .

2- التلمود البابلي . (تلمود أهل الشرق) .

وكلا منهما مكون من المِشناه والجِماراه . والمِشناه في كل من التلمودين لاختلاف بينهما . أما الجِماراه فاثنتان وضعت إحداهما في فلسطين والأخرى في العراق (بعد السبي) والتلمود البابلي هو الأكثر تداولاً وهو الكتاب القياسي عند اليهود لأن الجِماراه البابلية أكمل وأشمل من الفلسطينية .

ويضم التلمود ملاحظات مهينة ضد المسيحية كعقيدة . فيذكر التلمود أن المسيح عيسى (عليه السلام) كان يهودياً مرتدّاً كافراً . وأن تعاليمه كفرٌ بين . وأن المسيحيين كفره مثله . وأن أمه حملت به سفاحاً من جندي روماني يدعى (بندارا) ويضم التلمود أجزاء عن محاكمة المسيح في السنهردين . ويقر بأن اليهود هم الذين صلبوا المسيح . ويعتبر التلمود - لذلك - مسئولاً عن عدم اعتناق اليهود المسيحية . وإذا كانت صهيون هي الوطن الوهمي البعيد فإن التلمود أصبح هو الوطن المتنقل . وحل التلمود محل التوراة في العصور الوسطى باعتباره كتاب اليهود المقدس الأساسي . ومن القرن السادس عشر الميلادي أخذت (قبالة الزواهر) والكتب القبالية الصوفية الأخرى تحل محل التلمود . وفي الوقت الحالي فإن الأغلبية العظمى من أعضاء الجماعات اليهودية يرفضون التلمود بل ويجهلون ماجاء فيه (كان مكتوباً بالآرامية) .

وأثر التلمود واضح على قوانين الأحوال الشخصية لليهود . والتصور التلمودى للإله يشكل نكسة للفكر التوحيدي وللرؤية التى طرحها الأنبياء فى العهد القديم . ويخلع التلمود العديد من الصفات الإنسانية واليهودية على الإله . ويتناسى التلمود الفرق بين الأخيار والأشرار من الأغيار (غير اليهود) ويطالب اليهود أن يستخدموا مقياسين أخلاقيين . واحد للتعامل مع اليهود وآخر للتعامل مع الأغيار . والتلمود لا يرحب بالمتهودين لأن اليهود وحدهم يجسدون روح الإله . وأصبح التلمود مجالا للتعويض عما يلاقونه اليهود من اضطهاد فتحول التلمود إلى صياغات لفظية يمارسون من خلالها الانتقام من أعدائهم وإظهار التفوق اليهودى ويتكون التلمود من نص وشرح وتعليق وتعليق على التعليق وإضافات شتى واستمرت عملية وضعه مئات السنين فى أزمنة وأمكنة مختلفة (من السبى البابلى حتى القرن التاسع عشر الميلادى).

وعن (الإسرائيليات) يقول (د. المسيرى) (99):

الإسرائيليات هى مجموعة من القصص والتفسيرات لقصص وأحكام القرآن الكريم . ولما كان القرآن الكريم لم يذكر قصص الأنبياء كاملة فإن كتاب الإسرائيليات يلجأون إلى ملء الثغرات - فى تفاسيرهم - بالعودة إلى كتب اليهود الدينية . ومما تتناوله الإسرائيليات عقائد مثل المسيح المخلص والمهدى المنتظر وآخر الأيام وعذاب القبر واسم الإله الأعظم . وتتسم معظم الإسرائيليات (بل كلها) بطابعها الحلولى المتطرف الذى يتناقض وبشكل حاد مع الفكر التوحيدي . وتساهل المفسرون وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها عن أهل التوراة ولا تحقيق عندهم . وكلها تفاصيل روائية لا فائدة من معرفتها . وقد دخلت الإسرائيليات إلى كتب التفاسير عن طريق اليهود الذى اعتنقوا الإسلام فى مرحلة مبكرة مثل كعب الأحبار .

ولكن بعد فترة لم يعد اليهود الذين أسلموا هم وحدهم مصدر الإسرائيليات بل كان كثير من المفسرين المسلمين يعودون بأنفسهم إلى الكتب الدينية اليهودية أو الفولكلور اليهودي لتفسير القصص القرآني. كما أن الوجدان الشعبي نسج وولّد قصصا وتفسيرات على منوال الإسرائيليات .

وعن (يهود المارانو) يقول يقول د. المسيري : (100)

إنهم اليهود المتخفين (فى أسبانيا والبرتغال) الذين تراجعوا ظاهرياً عن اليهودية وادعوا اعتناق الكاثوليكية (المسيحية) حتى يتمكنوا من البقاء فى شبه جزيرة أيبيريا مع تراجع الحكم الاسلامى وبعد طرد يهود البرتغال عام 1480م ويهود أسبانيا عام 1492 ويطلق عليهم تعبير (كونفرسوس) أما المسيحيون الجدد فيسمون (كريستائوس نوفوس) .

واسم يهود المارانو العبرى هو (أنوسيم) أى المُكَرَّهين أو الذين أكرهوا على التنصر واستمر أغلبهم فى التخفى حتى بعد أن أصبح من حق اليهود ممارسة شعائر دينهم علناً فى أسبانيا والبرتغال . وقد تأثروا بالطقوس الكاثوليكية . وهم يشبهون من بعض الوجوه ظاهرة (المورييسكيين) وهم العرب المسلمون الذين اضطروا إلى التنصر بعد استرداد المسيحيين لأسبانيا (الأندلس) .

وعن (يهود الدونمة) يقول د. المسيري (101):

هؤلاء اعتنقوا الإسلام طواعية دون قسر . والدونمة تعنى المرتدين: وهم جماعة يهودية تركية شبتانية من اليهود المتخفين استقرت فى سالونيك وأشهرت إسلامها تشبهاً بالماشيح الدجال (شبتاي تسفى) . وكانوا يمارسون

شعائرهم اليهودية سرا . وهم عدة فرق منهم اليعقوبية والأزميرية . وكانوا يحلون لأنفسهم كثيراً من تحريمات التوراة (تبادل الزوجات - الزنا .. الخ).

وعن (الماسونية) يقول د. المسيري⁽¹⁰²⁾:

تعرف بأنها مجموعة من التعاليم الأخلاقية والمنظمات الأخوية السرية التي تمارس هذه التعاليم . والتي تضم البنائين الأحرار والبنائين المقبولين أو المنتسبين (الذين لا يمارسون حرفة البناء) . وتلك الطائفة تؤمن بالحرية والمساواة الإنسانية . وهي علمانية . ويتم توريث المعلومات فيها والخبرات المختلفة من خلال النقابات الحرفية . وظهرت الماسونية الرمزية أو الفلسفية أو النظرية التي حلت محل الماسونية الفعلية . وبداياتها كانت علمانية (الماسونية الأولى/ الفكر الربوبي) . وتحولت في مرحلتها الثانية إلى ثورة إلحادية (الماسونية الثانية) ثم تحولت إلى - بعد أن فقدت دورها الثوري - ما يشبه النوادي التي تضم أعضاء لهم مصلحة مشتركة وتشكل إطاراً يتبادل داخله الأعضاء الخدمات (الماسونية الثالثة) . وظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية محافل ذات طابع اجتماعي ترفيهي أغلب أعضائها من الماسونيين ويقال لهم (الحرميون) وفيها يسمح للنساء بالانضمام إليها . وتعد نوعاً من الابتذال وهو يشار إليه بالماسونية السوقية أو المتأمركة أو ماسونية عصر الاستهلاك وما بعد الحداثة (الماسونية الرابعة) . وقد وصف البابا كلمنت الثاني عشر عام 1738 م الماسونية بأنها ديانة وثنية غير مقدسة.

وقد حلت الماسونية مشكلة اليهود الذين كانوا يريدون الانضمام والاندماج في مجتمع الأغيار ولكنهم لا يريدون التنصّر . وكان المطلوب منهم - اليهود

وغيرهم - إزاحة وتهميش الدين وإعادة تأسيس عقيدتهم على العقل (العلمانية) لا الغيب (الدين) . ولذلك انخرط اليهود بأعداد كبيرة فى المحافل الماسونية لأسباب منها :

(أ) الماسونيون معادون للكنيسة والكهنوت . وهذه نقطة لقاء بينهم وبين أعضاء الجماعات اليهودية الذين فقدوا إيمانهم (وهؤلاء أغلبية يهود العالم) .

(ب) التركيب المهني والوظيفي لليهود يجعل أغليبيتهم الساحقة من القطاعات التى تشكل أعضاء المحافل الماسونية (العناصر المالية والتجارية والمهنية) .

(ج) الماسونية حركة أممية تتجاوز الولاءات القومية . وعنصر اليهود المهاجرة ليس لها ولاء قومي قوى بل الولاء للمصالح المالية وغيرها.

وعن (العبرية اليهودية) يقول د. المسيرى⁽¹⁰³⁾:

يمكن تفسير ذلك لأسباب عديدة منها :

1- العباقرة فى الغرب الحديث يحققون تميزهم لا بمقدار تعبيرهم عن يهوديتهم وإنما بمقدار تخليهم عنها وتصادم معدلات العلمنة . (مثال اسبينوزا - ماركس - فرويد-اينشتاين . وكلهم ملحدون)

2- تركيز اليهود فى الحقل الاعلامى جعلهم يسلطون الأضواء على الأنشطة التى يقومون بها واعطائها الأهمية أكثر مما تستحق .

3- تخليهم عن الدين يشعر اليهود بعدم حرمة أى شئ وتحررهم من قيود الحلال والحرام وسباحتهم مع تيارات العلمنة والمادية فبرزوا فى قطاعات مختلفة .

4- كونهم من العناصر المهاجرة التي لا تنتمي لمجتمع بعينه ولا لنظام يقيد حركتها فأصبحوا عناصر حركية متحررة من القيم والمطلقات تبحث عن الحراك الاجتماعي .

5- ارتباطهم بالطبقات الحاكمة ساهم في زيادة بروزهم .

6- تميزهم الوظيفي حيث يضطلعون بوظائف معينة دون غيرها .

وعودة إلى مبادئه . المسيرى يؤكد وينبه على أن:

الحركة الصهيونية ليست جزءاً من تاريخ يهودى عالمى وهمى ولا هى جزء من التوراة والتلمود وإنما هى جزء من تاريخ الامبريالية الغربية . ويدلل على ذلك بأن الصهيونية لم تظهر بين يهود اليمن أو الهند أو المغرب وإنما ظهرت بين يهود العالم الغربى . وهى لم تظهر فى العصور الوسطى وإنما ظهرت مع التشكيل الاستعماري الغربى . والساسة الإسرائيليون يدركون هذا تماماً وهم لا يكفون عن الحديث عن أهمية إسرائيل كقاعدة عسكرية وحضارية وأمنية للغرب وهى قاعدة رخيصة التكلفة للغرب أرخص من بناء عشر حاملات للطائرات تكاليفها خمسين مليار دولار كانت الولايات المتحدة الأمريكية ستضطر لبنائها وإرسالها للمنطقة لحماية المصالح الأمريكية . وعلى هذا فإن إسرائيل تعتبر (دولة وظيفية) وكنز استراتيجى بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية.

وعن (الوصايا العشر) التى ورد ذكرها كثيراً فى أسفار العهد القديم يقول (عاطف عبد الغنى)⁽¹⁰⁴⁾ إنها :

1- احفظ السبت :

وقيل فيه أن الله ما اختار اليهود شعباً له إلا ليحفظوا السبت . ويقال أيضاً أن الكتاب المقدس فسر مسألة السَّبْيِ الذي استمر حوالى سبعين عاماً فاعتبر أن الأرض فى هذه المدة كانت تستوفى (سبوتها) وهذا مما يتفق مع اعتقادات الكهنة . والطقس السبتي (أى راحة يوم السبت) يبدوا مقنعاً كإجراء طبيعى اجتماعى صحى يهدف إلى الراحة الجسدية والذهنية التى يحتاج إليها البشر لمواصلة الحياة . ويوم السبت (اليوم السابع) يدعى اليهود أن الله لما خلق السماوات والأرض فى ستة أيام كان فى حاجة إلى يوم يرتاح فيه وكان هذا اليوم (يوم السبت) هو اليوم السابع [سيأتى توضيح دينى لتلك الفرية فى الفصل السادس].

2- لا يكن لك آلهة أخرى أمامى (عدم الشُّرك بالله):

وهى وصية تدعو إلى التوحيد ونبذ الآلهة الأخرى (سواء فى السماء كالنجوم والكواكب أو الأرض كالتماثيل وغيرها) .

3- لاتزن :

ولقد وردت الشريعة الأولى فى سفر الخروج تنهى عن فعل الزنا . ولكنها لم تناقش تفاصيل تلك الجريمة ولا عقابها مثلاً فعلت مع باقى الجرائم التى ورد تحريمها ضمن الوصايا العشر وتدارك الكهنة ذلك الأمر فأوردوه فيما بعد فى نص سفر التثنية⁽¹⁰⁵⁾ بكثير من التفصيل أهمها رجم الزانى والزانية بالحجارة إذا كانا محصنين (متزوجين) والزواج من الفتاة المزنى بها مع تعويض أهلها بالمال إذا كانت غير مخطوبة. ولا يحق للرجل فى هذه الحالة طلاق تلك المرأة مدى الحياة.

4- لا تقتل :

ومن القتل الجماعي (الإبادة) والتحريم الذي أقرته التوراة لبني إسرائيل فجعلته دستوراً لحروبهم مع الآخرين إلى حد القتل الذي يُطبَّق على الإنسان جزاءً لجرم ارتكبه (العين بالعين والسن بالسن) .

5- لا تسرق :

والسارق يُعوّض عن سرقة (سِفَر التثنية يجيز سرقة الغريب ويحرمه بين اليهود بعضهم البعض) .

6- أكرم أباك وأمك :

أى برّ الوالدين . وتقرن التوراة ذلك بطول العمر على الأرض التى يعطيها الرب لبني إسرائيل .

7- لا تشتهه :

وقصر النص تحريم الاشتهااء على مال القريب فقط . أما فيما يملكه الغريب فقد أطلق اليد فيه (تأصلت صفة الجشع فى بنى إسرائيل ولم يعد اليهودى يفرّق بين القريب والغريب) .

8- تحريم الربا :

تحريم الربا فى النص مقصود به تحريم الربا من اليهودى . ولكن بالنسبة للأجنبى (غير اليهودى) فهو مباح .

9-رفض الرشوة :

لأنها تعمى المبصرين .

10-الأمر بالإحسان :

فلا يطالب المرتهن برد الرهن إن كان ثوبا عندما يأتي المساء على
الراهن فلعل هذا الثوب غطاء لصاحبه .

ويشير (عاطف عبد الغنى) إلى أن تلك الوصايا هى خاصة فى
التعامل بين اليهود بعضهم البعض أما فى تعاملهم مع الأجانب والأغيار
(غير اليهود) فكل شئ مباح .



الهوامش

- (1) سورة الذاريات : 56-58
- (2) سورة إبراهيم : 4
- (3) سورة النحل : 36
- (4) سورة النساء : 105
- (5) ديانة الساميين: (روبرتسن سميث) ص 18-22
- (6) نفس المصدر السابق : 39
- (7) كتاب الموتى الفرعوني : (والسن بدج) ص 249 وما بعدها .
- (8) ديانة الساميين : (روبرتسن سميث) ص 74
- (9) نفس المصدر السابق : ص 89
- (10) سفر هوشع : 9 : 3
- (11) سفر عاموس : 7 : 17 & سفر يشوع : 22 : 19
- (12) سفر صموئيل الأول 14 : 35 .
- (13) سفر القضاة : 6 : 20 & 13 : 19
- (14) كان (عمري) أحد ملوك إسرائيل قد اشترى جبلا من شخص يدعى (شامر) وبنى عليه مدينة سميت (الشامرة) ثم تحول اسمها إلى (السامرة) وإليها ينسب السامريون (يهود الشمال - إسرائيل) أما اليهود الذين سكنوا الجنوب وأقاموا مملكة (الجنوب - يهوذا) فقد ظلوا يسمون العبرانيين . واختصت كل طائفة منهما بتوراتها .
- (15) أساطير التوراة : (عاطف عبد الغنى) ص 27
- (16) اختلاق إسرائيل القديمة : (كيث وايتلام) ص 18.

- ¹⁷ (تاريخ نقد العهد القديم : (زالمان شازار) ص 101
ونفس الرأى للناقد العبرى ش.ل.هيرش.
- ¹⁸ (أساطير التوراة : (عاطف عبد الغنى) ص 89 - 93 .
- ¹⁹ (نفس المصدر السابق : ص 92.
- ²⁰ (سفر اللاويين : 14 : 1-9 & سفر العدد 12 : 1-6
- ²¹ (أساطير التوراة : ص 100 وما بعدها .
- ²² (سفر يهوديت : 10 : 2-8 & 10 : 17 ، 18 & 16 : 8-11
- ²³ (سفر الخروج : 4 : 10
- ²⁴ (سفر التكوين : 32 : 24-30
- ²⁵ (سفر إرميا : 2 : 20 & 3 : 6 ، 8 ، 9 .
- سفر حزقيا : 16 : 15 & 16 : 25 ، 26 & 23 : 8 - 12 & 23 : 20 ، 21 .
- ²⁶ (سفر أخبار الأيام الثانى : 26 : 32
- ²⁷ (سفر عزرا : 9 : 7
- ²⁸ (سفر أشعيا : 45 : 1
- ²⁹ (سفر يشوع : 24 : 14
- ³⁰ (انبعاث أمة : (ريتشارد كروسمان)
- ³¹ (عصور فى فوضى : (إيمانويل فلايكوفسكى).
- ³² (تاريخ نقد العهد القديم : (زالمان شازار) ص 96.
- رسالة فى اللاهوت والسياسة : (سبينوزا)
- ³³ (دورة الدين اليهودى : (موفق محادين) ص 166
- ³⁴ (نفس المصدر السابق : ص 167 .
- ³⁵ (نفس المصدر السابق : ص 167 وما بعدها .
- ³⁶ (سفر التثنية : 31 : 1 ، 2
- ³⁷ (سفر التثنية : 32 : 48 ، 49 ، 52 & 34 : 4.

- 38 سفر التثنية : 31 : 9
- 39 (رسالة في اللاهوت والسياسة : (سينوزا)
- قراءة سياسية للتوراة : (شفيق مقار) ص 380 - 385 .
- سفر الخروج : 33 : 11
- 40 (قراءة سياسية للتوراة : (شفيق مقار) ص 380 - 385 .
- سفر الخروج : 32 : 19
- 41 (قراءة سياسية للتوراة : (شفيق مقار) ص 380 - 385
- سفر التثنية : 34 : 5
- 42 (سفر التثنية : 34 : 10
- 43 (سفر التكوين : 14 : 14 & سفر التثنية : 34 : 1
- 44 (سفر التثنية : 3 : 14 & سفر العدد : 32 : 41
- 45 (سفر القضاة : 10 : 14
- 46 (سفر التكوين : 40 : 15
- 47 (سفر التكوين : 36 : 31 & سفر العدد : 7 : 24
- 48 (آرام دمشق وإسرائيل : (فراس السواح) ص 11 ، 12
- 49 (نفس المصدر السابق : ص 182 - 185
- 50 (نفس المصدر السابق : ص 268 - 270
- 51 (التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي : (توماس ل . طومسون) ص 80 - 82
- 52 (نفس المصدر السابق : ص 22 - 25 .
- 53 (نفس المصدر السابق : ص 292.
- 54 (نفس المصدر السابق : ص 5
- 55 (نفس المصدر السابق : ص 91 وما بعدها .
- 56 (نفس المصدر السابق : ص 107 - 110
- 57 (أركيولوجيا فلسطين قبل العصر الهيليني : (هـ . ويرت)

- 58) تاريخ فلسطين القديم : (جى . ألستروم) G.Ahlestrom
- 59) التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي : (توماس ل.طومسون) ص 124 ، 131 ، 189 ، ص 234.
- 60) نفس المصدر السابق : ص 219 - 229 .
- 61) دورة الدين اليهودى : (موفق محادين) ص 14 - 16 .
- 62) سفر إرميا : 3 : 6 & 17 : 1 ، 2
- سفر حزقيال : 20 : 21 - 28 ،
- سفر الملوك الثانى : 23 : 4 - 20
- 63) الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود: (شاحاك) ص 88 ، 89
- 64) المفهوم المادى للمسألة اليهودية : (إبراهيم ليون) ص 18 ، 19 ، 32 ، 49
- 65) دورة الدين اليهودى : (موفق محادين) ص 53
- 66) نفس المصدر السابق : ص 54 .
- 67) جريدة الراى الأردنية : العدد الصادر فى 1995/9/2 . (كانتور)
- 68) احذروا الصهيونية : (يورى ايفانوف) ص 17
- 69) دورة الدين اليهودى : (موفق محادين) ص 57
- 70) الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود: (شاحاك) ص 10-12.
- 71) الدولة اليهودية : (هرتزل) .
- التحرر الذاتى : (ليوبنسكى) .
- 72) دورة الدين اليهودى : (موفق محادين) ص 72 ، 73 ، 75 ، 76
- 73) الدولة اليهودية : (هرتزل) .
- 74) التحرر الذاتى : (ليوبنسكى) .
- 75) الأممية الشيوعية وفلسطين : (ماهر الشريف) ص 70 - 72 .
- 76) احذروا الصهيونية : (ايفانوف) ص 56
- 77) نفس المصدر السابق : (ايفانوف) ص 44 .

- 78 (دورة الدين اليهودى : (موفق محادين) ص 119 .
- 79 (سنة دخول القدس : (د. أحمد أبو النور) ص 43 .
- 80 (التلمود : عبارة عن موسوعة تتضمن الدين والشريعة والتأملات الميتافيزيقية والتاريخ والأدب والعلوم الطبيعية وغيرها . ويتضمن فصولا عن الزراعة وفلاحة الأرض والصناعة والمهن الأخرى ويغضى كل جوانب الحياة الخاصة لليهود .
- الكنز المرصود فى فضائح التلمود : (د. محمد عبد الله الشراوى) .
- التلمود تاريخه وتعاليمه : ظفر الدين خان .
- 81 (سفر الخروج : 31 : 18
- 82 (سورة الأعراف : 145
- 83 (سنة دخول القدس : (د. أحمد أبو النور) ص 66 ، 67
- 84 (نفس المصدر السابق : ص 70 ، 71
- 85 (نفس المصدر السابق : ص 71
- 86 (نفس المصدر السابق : ص 74
- 87 (بروتوكولات حكماء صهيون : ترجمة (محمد خليفة التونسي) من البروتوكول الرابع .
- 88 (نفس المصدر السابق : (من البروتوكول الخامس)
- 89 (نفس المصدر السابق : (من البروتوكول الخامس)
- 90 (نفس المصدر السابق : (من البروتوكول العاشر)
- 91 (نفس المصدر السابق : (من البروتوكول الرابع)
- 92 (نفس المصدر السابق : (من البروتوكول السابع)
- 93 (نفس المصدر السابق : (من البروتوكول التاسع)
- 94 (نفس المصدر السابق : (من البروتوكول الحادى عشر)
- 95 (سنة دخول القدس : (د. أحمد أبو النور) ص 76 وما بعدها .
- 96 (اليد الخفية : (د. عبد الوهاب المسيرى) ص 9-13 .

-
- 97 (نفس المصدر السابق : ص 14 ، 16 ، 20 .
- 98 (نفس المصدر السابق : ص 21-40 .
- 99 (نفس المصدر السابق : ص 79 - 81 .
- 100 (نفس المصدر السابق : ص 81-90 .
- 101 (نفس المصدر السابق : ص 100 وما بعدها .
- 102 (نفس المصدر السابق : ص 115 - 135 .
- 103 (نفس المصدر السابق : ص 219 وما بعدها .
- 104 (أساطير التوراة : (عاطف عبد الغنى) ص 29 وما بعدها . وهي مذكورة في سفر الخروج : 20 : 7-17 & سفر التثنية : 5 : 15 - 21
- 105 (سفر التثنية : 22 : 13 - 30

الفصل الثاني

رؤية تاريخية / دينية

تمهيد

إن تاريخ بنى إسرائيل لم ينشأ منعزلاً عن باقى توارىخ الشعوب المعاصرة له . بل تأثر ذلك التاريخ - إلى حد كبير - بشعوب كثيرة أهمها الشعب المصرى (القديم والحديث) حيث كانت الهيمنة المصرية تبسط يدها على ممالك ودويلات الشام بالاضافة لغيرها من الأمم ولقرون طويلة . وبالمثل مع باقى الأمم القديمة والمعاصرة كان التأثير واضحاً للشعب الإسرائيلى بمن حوله وبمن احتضنه داخل حدود دولته فى شتى النواحي الحياتية والثقافية والدينية وغيرها . ولكى نتعرف جيداً على شعب من الشعوب يجب أن نلم بحياته الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية وغيرها وحياته من حوله من الأمم والشعوب لتكون الرؤية صادقة وأمينه لهذا الشعب الذى أثار الكثير من الجدل والقلق قديماً وحديثاً. تلك الرؤية الموضوعية بدون تجاوز أو تضليل أو افتراء .

يقول (إرنست جلنر) Ernest Gellner (1):

إن القومية ليست إيقاظ الشعور بالذات لدى الأمم . بل إنها تخترع الأمم حيث لا تكون موجودة .

ويعتقد (ديفيز) Davis : (2)

أن ميلر وهيز Miller & Hayes (1986) يمثلان ذروة الكتابات التاريخية التوراتية . وأن الطريق إلى الأمام - إن وجد - سيبدو رهناً بالمناهج (المتوافقة) للعلوم الاجتماعية : علم الاجتماع . الانثروبولوجيا وعلم الآثار

القديمة . وستقلب النتائج مكانة الأدب التوراتي وبدلاً من السؤال عن كيفية تفسير التاريخ بواسطة الأدب ينبغي لنا أن نسأل عن كيفية تفسير الأدب بواسطة التاريخ . وإذا كان البحث الأدبي يدير وجهه بعيداً عن التاريخ -تركيز على النص وليس على ما وراء النص . نظل للمؤرخ مع تلك مهمة مشروعة . لكن هذه المهمة ستفصل تدريجياً عن النقد الأدبي.

ويعتقد (جن) (3) Gunn أيضاً :

إن دراسة التاريخ سمضى فذما بطريقة مماثلة . ويتكهن بأن النتائج لن تشبه ما الذي حدث . التاريخ التالي . إذ سيكون تقسيم التاريخ إلى فترات أكثر رحابة . وسيعتمد على النقد الأدبي (بما فى ذلك البنىوى) فى تخصصه للنصوص .

ويقول (فنكلشتين) (4) finkelstein الأركيولوجى الإسرائيلى:

إن استيطان الإسرائيليين فى القرنين الثانى عشر والحادى عشر ق.م وتحولهم من مجتمع مكون من قبائل متفرقة إلى مملكة منظمة هو واحد من أكثر الفصول إثارة وإلهاماً . وفى الوقت نفسه إثارة للجدل فى تاريخ أرض إسرائيل .

ويؤكد (مندهول) :

على خصصه إسرائيل المبنية على عقيدتها .

وتقول (كينيون) (5) Kenyon :

إن عمر مملكة إسرائيل لا يزيد عن ثلاثة أرباع القرن . وكانت الفترة الوحيدة التى أصبح فيها اليهود قوة سياسية مهمة فى غرب آسيا . وقد سجلت أمحاديها بمباهاة فى التوراة . وكان لهذا كله أثر عميق على فكر اليهود

وتطلعاتهم. لكن على الرغم من ذلك فإن المكتشفات الأثرية المتعلقة بهذه الفترة شحيحة جداً .

ويقول (كيث وايتلام) ⁽⁶⁾ K. whitlam :

إن هناك فِرَق من العلماء تناولوا التاريخ الإسرائيلي . يمثل الفريق الأول (من العلماء التوراتيين) كل من : أولبرايت & برايت (Albright & Bright) وآلت & نوت (Alt & Noth) ومندنهول & جوتوالد (Mendenhall & Gottwald) . وهؤلاء اعتبروا التوراة كتاباً تاريخياً ⁽⁷⁾ . فجاءوا بالكتاب المقدس في يد والمجراف في اليد الأخرى إلى فلسطين . وهذه الفئات الثلاث لم تختلف إلا في تفسير أسباب نشوء إسرائيل القديمة (الغزو -التغلغل السلمي - الثورة الداخلية) على الترتيب . ثم ظهر فريق آخر في الثمانينات من علماء توراتيين حاول تحدى أفكار الفريق التقليدى . وكان هذا الفريق مكوناً من آلستروم (Ahlstrom) وليمشى (Lemche) وفنكلشتاين (Finkelstein) وكوت ووايتلام (Coote & Whitlam) وطومسون (Tompson) وديفر (Dever) وغيرهم .

وهذا الفريق انتقد الفريق الأول لعدم عمل حسابات للمعلومات الأثرية المتزايدة في المنطقة . وإن كان هذا الفريق (الأخير) لم يتمكن من الإفلات من قبضة الدراسات التوراتية التقليدية فظل سجيناً لها . ممّا ساهم في إسكات التاريخ الفلسطيني وطمسه بدلاً من إيجاد فضاء له لكي يعبر عن نفسه كموضوع قائم بذاته .

ومن أبرز الباحثين ضمن هذا الفريق (توماس ل . طومسون) ⁽⁸⁾

الذى يقول :

إن مجموع التاريخ الغربى لإسرائيل والإسرائيليين يستند إلى قصص من العهد القديم من صنع الخيال . [بسبب هذا الكتاب طُرد طومسون من منصبه فى جامعة ماركويت فى ميلووكى وكان يعمل بها أستاذاً لعلم الآثار] وفى كتابه الأخير ⁽⁹⁾ يقول :

فى تفسيره للنقش الذى ورد على (لوح مرنبتاح) الحجرى والمكتشف فى تل العمارنة أن اسم إسرائيل يرجع إلى القرن 13 ق.م . حيث كانت إسما لشعب كنعان (فلسطين الغربية) الذى يقول النقش إن جيش الفرعون المصرى دمره . وربط إسرائيل بكنعان فى هذا النقش المبكر لا يمكن اعتباره مرادفاً لإسرائيل الواردة فى التوراة وإنما هو مجرد أول ورود تاريخى لاستخدام اسم إسرائيل معروف لدينا . وهذا لا يشير إلى إسرائيل التى نعرفها من الكتابات الآشورية والنصوص الفلسطينية القديمة . فإسرائيل تلك كانت دولة محلية سيطرت على المرتفعات شمالى القدس . وقد ظهرت للوجود بعد بضعة قرون من الفرعون مرنبتاح . وهذا لا يمكن اعتباره مرادفاً لإسرائيل التوراتية . فإذا كان نقش مرنبتاح يعبر عن أي حقيقة تاريخية فإن التوراة لا تذكر عنه شيئاً .

وللخوض فى التاريخ الإسرائيلى علينا ألا نغفل تاريخ الأمم والشعوب المحيطة والمعاصرة لكى نتفهم ماهية الكيان السياسى الذى تكون ونشأ وسط الامبراطوريات القديمة التى لها ثقلها . وحجم هذا الكيان الإسرائيلى وعمره دون تهوين أو تهويل . وهذا ما سنتناوله بالتفصيل .



مصر القديمة

كانت توجد صعوبة كبيرة فى فهم اللغة المصرية القديمة إلى أن جاء (شامبليون) الفرنسى وحل رموزها بعد اكتشاف حجر رشيد . ومنذ هذا الوقت أخذ تاريخ البلاد الحقيقى ينجلي شيئاً فشيئاً مما قضى على الأساطير والخرافات التى نقلها كُتّاب اليونان الذين رادوا وادى النيل وكتبوا عنه . وباستمرار أعمال الحفائر وحل رموز النقوش التى كانت على جدران المعابد وفى أوراق البردى فى وادى النيل بدأ كشف النقاب عن تاريخ البلاد الحقيقى . ونشأ (علم ما قبل التاريخ) وهو الذى يبحث فى حل مسألة أصل الإنسان قبل التاريخ أى قبل ظهور الكتابة وذلك بدراسة بقايا العظام الإنسانية والآثار الأخرى . وكان السبق فى صياغة هذا العلم للعالمين (بوشيه) و (بيرن) حيث وضعامولفاً يبحث فى عصر ما قبل التاريخ وجاء بعدهما طائفة من العلماء توصلوا إلى تثبيت هذا العلم ببحوثهم . ففي العصر الحجري وجد أن القدامى كانوا يستعملون الطران المذهب ثم المصقول . ثم تلا ذلك عصر استعمال المعادن بدءاً بالنحاس ثم البرونز ثم الحديد . والعصر التاريخى هو عصر استعمال الكتابة والقراءة فى تدوين الحوادث والأعمال . على أن الأمم لم تتساو كلها فى الوصول إلى هذه الدرجة (الكتابة) بسرعة واحدة أو فى وقت واحد . فالبلاد المصرية مثلاً والأقطار الكلدية تعرفان الكتابة والقراءة منذ آلاف السنين قبل التاريخ الميلادى فى الوقت الذى بقيت فيه زمناً طويلاً تجهل وجود الحديد . وفى المقابل نجد سكان ممالك البحر المتوسط مكثوا عدة قرون مدفونين فى ظلمات عصر ما قبل التاريخ ومع هذا كانوا يعرفون الحديد منذ أزمان طويلة قبل الفتح الرومانى . وكان العالم الفرنسى

(أرسلان) Arcelin أول من أثبت وجود علم ما قبل التاريخ في مصر .
وتبعه في ذلك كثيرون منهم لانرمان Lanarmont وهنرى Henry والأب
رتشارد وجاء جاك دي مرجان الأثرى ببحث أيد فيه فكرة وجود عصر ما
قبل التاريخ في مصر وأثبت بالبراهين قَدَم الآلات التي يرجع عهدها إلى ما
قبل التاريخ عن الآلات التي بقى الإنسان يهذبها بطريق العادة على نمط
سالفتها في العصور التاريخية ثم يستعملها (فى حياته اليومية).
وأثبت (مرجان) بصفة نهائية أن عصر الحجر المذهب في مصر قد سبق
عصر الحجر المصقول وأن هذا العصر الأخير قد خلفه عصر استعمال
المعادن . وقد مهدت أبحاث (فلنדרز بترى) و (دى مرجان) السبيل لايجاد
صلة بين عصر ما قبل التاريخ المصرى وعصر الدولة القديمة . وقد أطلق
على هذه الفترة (عصر ما قبل الأسرات) وعثر الأثرى (لجران) والعالمان
(ستون) و (كار) وغيرهما على محطات أخرى جديدة فى هذا المضمار .
وقد أشار (شيفينفورت) الألمانى على وجود عدة محطات فيها آلات يرجع
عهدها إلى عصر ما قبل التاريخ . ويُعد العصر الحجري القديم الذى وجد فيه
أول أثر لبقايا الانسان ينقسم إلى ثلاثة عصور :

(1) العصر الحجري القديم الأسفل :

ويشمل ما يقابله فى أوروبا من الصناعات الشيلية والآشيلية (نسبة
لبدة شيلى التى وجد فيها أقدم صناعة من عصر الحجر القديم السفلى) .
وهذا العصر لا يمكن تحديده على وجه الدقة (التقديرات المعتدلة تقدره بعدة
آلاف من السنين) وهذا العصر يقع فى أوائل الزمن الجيولوجى الرابع وبعد
نهاية عصر الجليد الأول . وآلات هذا العصر من الحجر الصلب ذو حافة
كالشفرة الحادة (تستعمل كسكين أو كمقشط) .

(2) العصر الحجري القديم المتوسط :

وهو العصر الذى يتفق مع عصر جليدى طويل امتد حتى العصر الحجري القديم الأعلى . وهو العصر الذى سكن فيه الإنسان الكهوف العميقة وآلات هذا العصر من الطران (حجر صلب حاد وصَوَان) مثلثة الشكل مرهفة الحد سُميت بظهر السلحفاة لقربها من هذا الشكل . ووجدت أيضا الآلات المدببة (الحجرية) والبَلَط (جمع بَلْطَة) . ويتميز بوجود الماموث (الفيل كثيف الشعر) وجاموس البحر .

(3) - العصر الحجري القديم الأعلى :

وفى هذا العصر سر وجود الماموث وبدأ ظهور الوعول ذوى القرون المتفرعة والحصان . ويسمى بعصر فن الحفر الدقيق وعصر صناعة العاج وحفره . وفيه ظهرت الآلات دقيقة الصنع .

وتلى تلك العصور الثلاثة ما يسمى (بالعصر الحجري المتوسط) الذى يتميز بوجود الآلات المصقولة كالسكاكين والخطاطيف . وتلى ذلك (العصر الحجري الحديث) وفيه تفهقر الجليد الذى ظل إلى يومنا هذا . وهو عصر استعمال المعادن (النحاس والذهب) فى أدوات الزينة واستعمالات أخرى محدودة . وهو العصر الرابع فى تكوين القشرة الأرضية (نهاية العهد البلوستسينى وبداية العصر الهليوسينى) وهو فجر الأزمان الحديثة وبداية تكوين دلتا نهر النيل بمصر واستعمال العظام فى صناعة الأدوات وكذا صناعة الفخار والنسيج . وبدأ الإنسان يعيش عيشة الرعاة والفلاحين .

وتلى ذلك العصر (عصر المعادن) وظهور صناعة جديدة غطت على صناعة الطران . وظهرت آلات وحلي من النحاس والذهب فى بادئ الأمر ثم عُرِفَ بعد ذلك استعمال البرونز والأوانى الفخارية التى اختفى فيها يد الإناء . وفى هذا العصر ظهرت ديانة فى الوجه البحرى (أعرق فى القدم من مثيلتها فى الوجه القبلى) وعلى جدران أهرام سقارة (خلال الأسرتين الخامسة والسادسة) دُونت متون الأهرام .

وكانت هناك معتقدات دينية تركز على أساس متين (وجدت حيوانات عُنِي بدفنها بعد تكفينها كما يحدث فى العصر التاريخى وكانت تُعبد وتُقَدَّس وذلك فى جبانة عصر البدارى). ويلاحظ فى تلك المقابر والجبانات وجود ترتيب للأدوات التى كانت توضع مع المتوفى (مواد غذائية وأدوات زينة وآلات) وهو ما يعنى الاعتقاد بوجود حياة ثانية بعد البعث من الموت . وكذلك وجدت بعض الدمي (نصبت خلف جدار القبر) ومراكب صغيرة وحيوانات متوحشة وأليفة ورقى وتمائم سحرية (وهو أيضاً ما وجد فى العصر التاريخى) وتدل على معتقدات القوم الجنائزية . تلى ذلك العصر (عصر الأسرات) .

وقد كانت مصر مسكونة منذ عصور ما قبل التاريخ بقوم من الجنس الحامى (نسبة إلى حام بن نوح) ويقال إنه نشأ من البلاد نفسها أى أفريقى الأصل . غير أنه عند نهاية عصر ما قبل الأسرات نجد تغييرات حدثت عن طريق الهجرة . وأهم العناصر الجديدة التى دخلت البلاد يبدو أنها من أصل أسيوى وكانت لها مميزات خاصة تختلف عن الشعب الأصلى . وهؤلاء الآسيويون قد اختلطوا شيئاً فشيئاً بالسكان الأصليين واندمجوا فيهم . ويرجح دخول أولئك الآسيويين من عدة طرق :

أ- من شبه الجزيرة العربية (عن طريق البحر الأحمر من جهة فقط) .

ب- عن طريق أعالي وادي النيل .

ج- من سوريا ودخلوا مصر عن طريق فلسطين فسياء فشرقي الدلتا ثم انتشروا في الدلتا الغربية ثم الوجه القبلي .

ويقال أن النازحون (أو الغزاة) قد أدخلوا في البلاد معرفة المعادن (خاصة النحاس) وادخلوا كذلك عبادتهم وديانتهم وكتاباتهم وفنونهم ونظمهم السياسية والاجتماعية . ولا شك أن دخول هذا الجنس إلى مصر قد أتى تدريجياً من غير عنف . ومما لا جدال فيه أن العلاقة بين مصر - في أقدم عهودها - وبين آسيا كانت موجودة . وليس هناك ما يثبت لنا أن المدنية المصرية كانت مدينة للأسيويين بإحضار الحيوانات المنزلية (كالثور والحمار والماعز والخنزير) وكذلك باستحضار أقدم الحبوب (مثل الشعير والقمح) بل إنه بالعكس كانت هذه وتلك قد وجدت في وادي النيل منذ وجد الجنس الأفريقي الأصلي ومنذ بداية العصر التاريخي نجد أن الاندماج بين الجنسين كان عظيماً جداً فأصبح من الصعوبة بمكان أن نعرف بشيء من الدقة الفوارق بينهما .

ولأن عصر (مينا) موحد القطرين هو العصر الذي ظهرت فيه الكتابة المصرية يحتم علينا بأن نحكم بأن الجنسين قد عاشا معاً زمناً طويلاً قبل أن يحدث هذا الاندماج الكلي .

إن تاريخ أول سنة لبدء حساب المصريين للسنة المصرية الشمسية هو عام 4241 ق.م . حيث أن أول يوم في السنة الشمسية اتفق تماماً مع ظهور نجم الشعرى اليمانية وهو يوم بدء فيضان النيل - وبالرجوع ثلاث دورات أو مرات يتفق فيها ظهور الشمس والشعرى اليمانية وهو ما يحدث مرة كل 1460

عام بحساب فلكى ثابت $3 \times$ مرات = 4380 ق.م . ولما كان بدء الحساب هو عام 139 م . فإن تاريخ أول سنة لبدء حساب المصريين للسنة المصرية الشمسية يكون :

4380-139= 4241 ق.م

وهناك مصادر أثرية أخرى تدل على ذلك التاريخ مثل أخبار الحروب التى قام بها الملوك . ثم النقوش الدالة على تاريخ أفراد عظماء القوم وترجمة حياتهم ثم المراسيم الملكية وكانت تكتب على الحجر فى معظم الأحيان وتوضع فى المعابد والمدن . وأيضا الأوراق البردية التى كانت تحتوى على موضوعات إدارية أو قضائية أو أدبية . وكذلك أيضا قوائم أسماء الملوك (ويرجع معظمها إلى عهد الدولة الحديثة) مثل قائمة الكرنك (قائمة تحتتمس الثالث) وقائمة (حجر بلرم) وقائمة (سقارة) وقائمة (العرابة المدفونة - أبيدوس) ووثيقة أو ورقة (تورين) هذا بالإضافة إلى آثار أخرى وجدت فى الممالك المجاورة لمصر مثل آثار وجدت فى جزيرة (كريت) وآثار عثر عليها فى (فلسطين وسوريا) من أوائل الدولة القديمة وآثار أخرى فى بلاد (مابين النهرين) وما وراءها . وهناك مصادر أخرى اعتمد عليها فى تدوين التاريخ المصري القديم نقلها لنا الكتاب الإغريق والرومان مثل (هيكتاته الملاطى) المؤرخ الإغريقي . وكان قد عاش عام 550 ق.م وزار وادي النيل وتباحث مع الكهنة المصريين فى طيبة عندما كان يضع شجرة الأنساب وتاريخه للوبيا (ليبيا) . ومن بعده جاء المؤرخ الإغريقى (هيرودوت) حوالى عام 450 ق.م وقد زار الدلتا وأسوان (ألفنتين) والفيوم . وقد أخبره الكهنة أن (مينا) هو أول ملوك مصر . ثم عدّوا له - نقلا عن كتاب لديهم - أسماء 340 ملكا . وقالوا أن مابين أول ملك وآخر ملك 341 جيلا من الناس وأن كل ثلاثة أجيال تعادل مائة عام . أى أن تاريخ

البشر عندهم يبلغ 11340 عاما . وقبل هؤلاء الملوك كان يحكم مصر الآلهة وفى أوائل عصر البطالمة ظهر المؤرخ (هيكاتة الأبدري) ووضع كتاباً لم يصلنا منه غير مقتطفات قصيرة أشار إليها (ديدور) فى كتاباته . وفى هذا العصر كنز يعثر كذلك (مانيتون) السمنودى وهو أهم المؤرخين الذين كتبوا عن مصر . وقد أخبرنا المؤرخ اليهودى (يوسيفوس) المولود عام 37 م . أن مانيتون كان مصرى الجنسية وكان كاهنا عظيما وكاتباً فى المعابد وماهراً فى لغة بلاده وفى اللغة الإغريقية أيضا . ووضع (مانيتون) هذا مؤلفاً عن مصر تلبية لأمر بطليموس فيلادولف (الثانى) منقولا عن النقوش المصرية وذلك فى عام 270 ق.م . نقله لنا ناقصا - ومختصرا - يوسفوس اليهودى والذى ألف معالا للرد على (أبليون) النحوى السكندرى الذى كان يبغض اليهود بشدة وينسبهم إلى أصل أبرمى ومن منشأ دنس نجس . وقد طردهم المصريون من بلادهم مع موسى (عليه السلام) . فرد يوسفوس بأن هؤلاء الدنسين هم الهكسوس الذين هم من نسل يعقوب ويوسف . وقد دخلوا مصر فاتحين وليسوا عبيداً . ولكى يؤيد رأيه نقل حرفيا بعض المقتطفات عن مانيتون فى الفصل الخاص بالهكسوس وطردهم من مصر على يد ملوك الأسرة الثامنة عشرة . وشفع ذلك جدول يحوى أسماء الملوك من عهد (تحتمس الأول) إلى عهد (رعمسيس الرابع) وعددهم 21 إسماع ذكر سنې حكمهم والشهر الذى حكم كل منهم فيه (منقولا عن المختصر الذى وضعه المؤرخون نقلا عن مانيتون) . ويعد ذلك المختصر (مختصر مانيتون) المصدر الأصيل لكتاب العصر المسيحى عن تاريخ مصر إلى أن كُشف عن أسرار اللغة المصرية (حجر رشيد وشامبليون) . وأهم هؤلاء الكتاب (سكتس جوليوس أفريكانوس) وقد نقل المختصر فى كتابه التاريخى الذى وضعه عام 220م . ويأتى بعده (يوزيب) عام 270-340م وقد

نقل عن المختصر من نسخة تختلف عن تلك التى نقل عنها (سكتس الأفريقى) . ويأتى بعد مانيتون مؤرخ عظيم اسمه (ديدور الصقلى) الذى ألف كتابا عن مصر وكان قد زار وادى النيل عام 60 ق .م وجاء بعدهم آخرون مثل (أرسطوسين السرىنى) 275-194 ق.م . و(استرابون) عام 27م. والمؤرخ (بلوتارخ) عام 120م .

وفى أواخر الأسرة الثامنة عشرة أتى الفرعون منفتاح أو (مرنباح) إلى منطقة الأهرامات وترك نقوشا تدل على مقدار اهتمامه بأبى الهول . وأدهش ماكشف فى هذا المكان أن قوما من الكنعانيين وفدوا على مصر وسكنوا فى منطقة أبى الهول فى عهد الدولة الحديثة (أواخر الأسرة 18) ويدل على ذلك لوحة الفرعون (آى) إـ جاء فيها أنه اقتطع ضيعة للحيثيين فى هذه الجهة . ودلت اللوحات المكتشفة على أن هؤلاء الكنعانيين كانوا يسكنون فى هذه المنطقة فى بلدة سميت باسم إلههم الذى كانوا يعبدونه فى بلادهم (الإله حورون) وهذا الإله كان يمثل عندهم بشكل (حور الأفق) وكان يمثل بصقر . فقد رأى فيه هؤلاء الآسيويون أنه يمثل إلههم الذى تركوه فى بلادهم ولذلك أطلقوا عليه اسم (حورنا) أو (حورون) أو (حول) . ومن ذلك يتضح جليا أن الاسم الجديد الذى أصبح يطلق على أبى الهول هو اسم سامى الأصل . ولا عجب فى ذلك فقد عبد المصريون آلهة آسيوية أخرى مثل (ستخ) الذى أصبح موحداً مع الإله (ست) إله الحرب . وكذلك آلهة (عشترت) التى وحدت مع الآلهة (حتحور) . وأطلق الكنعانيون على الحفرة التى فيها أبو الهول اسم (بر- حول) أو (بيت حول) وهو الذى نحور فيما بعد إلى اسم (أبو الهول) . وقد أقام هؤلاء الكنعانيون فى مستعمرة على بعد حوالى 2.5 كيلومتر من أبى الهول تسمى الآن (الحارونية) نسبة إلى الإله (حورنا) أى أبو الهول الذى عبده المصريون والكنعانيون

وقدسوه بصفته إله الموتى وحارس الجبانة (كان يمثل الإله رع عند الغروب أى آتوم) . ولقد سميت قبائل البدو (العنصر الذى نزح إلى كل أنحاء سوريا منذ بداية القرن 14 ق.م) باسم (خبيري) وأيضاً (سلاجز) أو (جاز) وهذه الأسماء لا تدل على اسم جنس بل تميز اسم جماعة معينة من السكان .

وقد جاء ذكر اسم قبائل (سوتى) أى البدو مع (خبيري) فى رسائل تل العمارنة . وقد كانوا يعملون جنوداً مرتزقة أو يجتمعون جماعات للنهب والسلب . وهم قبائل سامية (نسبة إلى سام بن نوح) وجاءوا بلفظ (عبرو) فى اللوحة التى كشف عنها د. أحمد بدوى فى منف . وهم (خبيري) الذين ذكروا فى خطابات تل العمارنة . وهؤلاء أقاموا بسوريا (آرام) وفلسطين (كنعان) منذ عهد البرونز المتأخر . وقد ذكروا كثيراً فى إسرائيل الكنعانية فى القرن 14 ق.م بوصفهم مغيرين وعصاة على السلطة المصرية . وكانوا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً مع الآراميين (السوريين) فى تقاليدهم القومية . وهم على العكس من الكنعانيين الذين لا تربطهم بهم أية رابطة . فهؤلاء ليسوا فلاحين متوطنين مثل الكنعانيين بل هم قوم رعاة رحل . فقد نزح إبراهيم (عليه السلام) بعد ولادته إلى (حوران) ومن ثم إلى (حبرون) وقد جاء فى سفر التثنية أن جد هؤلاء القوم آرامى :

*ثم تصرخ وتقول أمام الرب إلهك آراميا تائها كان أبى (10) .

وتدل البحوث على أنه من الجائز أنه كانت توجد روابط بين العبرانيين و (خبيري) وهذه الروابط لغوية وتاريخية وتؤكد بوجود علاقة بين العبرانيين (خبيرو) والإسرائيليين .

وفى الوقت نفسه نميز بينهما بأن كل الإسرائيليين كانوا من العبرانيين (خبيرى) ولكن ليس كل العبرانيين إسرائيليين. ومن المعروف أن الإسرائيليين قد تدفقوا على الأرض الجبلية فى فلسطين (إفرايم) فى القرن 14 ق.م. إذ تدل الآثار على أنهم فى عهد (مرنبتاح) بن رعسيس الثانى كانوا قد استوطنوا هذه البقاع. ومن أجل ذلك لا يمكن أن نرجع غزوهم فلسطين إلى عهد (سيتى الأول) أو عهد (رعسيس الثانى). بل لا بد أنهم قد قاموا بغزوهم فى عهد ما قبل (أمنحتب الثانى). والظاهر أنهم كانوا يسكنون الشمال الغربى لبلاد العرب (أى أرض مدين) فكانوا يضربون خيامهم فى منطقة سيناء البركانية ومن ثم اعتنقوا عبادة التوحيد فى بيت الإله (يهوه) إله النار وقد كان عرشه على صورة تابوت (تابوت العهد)⁽¹¹⁾ وكانوا يحملونه معهم أينما ساروا ويسكن بينهم أينما حلوا.

ولا يبعد إذن أن الإسرائيليين كانوا فيما سبق فى الوقت نفسه يتكلمون لهجة آرامية أيضاً وأن اللغة العبرية قد انتقلت إلى الكنعانيين لأنهم كانوا يقيمون معهم. ومنذ ذلك العهد كان الأجانب الذين على اتصال بالإسرائيليين يطلقون عليهم اسم (عبرين) أى العبرانيين. ومن ثم سميت لغتهم بالعبرية وهذه التسمية ليست إسماً لقوم من الناس بل نعتاً (وصفاً) لهم⁽¹²⁾ ومعناه قوم من العبر المقابل لنهر الأردن (العبر فى اللغة العربية معناه شاطئ النهر أو البحر) ومما يدل على أن العبرانيين كلن لهم على ما يبدو أهمية واسعة النطاق أن قبائل الألواح (يهوه) التى أنزلت على موسى (العليه السلام) قد أطلقوا كلمة (عابر) الجد الأول لجنسهم على كثير من القبائل العربية وعلى الجد الأول (سام) :

*وسام أبو كل بنى عامر⁽¹³⁾.

وبنو سام هم قوم لهم اسم يتسمى به أشراف البدو الذين لهم سلسلة نسب كما أن (بنى إسرائيل) لهم كذلك سلسلة نسب خلافا لسكان المدن الذين ضاعت أنسابهم على الرغم من أنهم من أصل عريق . أى أن كلمة (عبرى) لها علاقة وثيقة بكلمة (خبيرى) من جهة النطق والمعنى كما أن الكلمة تدل على عنصر من الناس فى آسيا الصغرى (الخيتية)⁽¹⁴⁾

وكان أول تعدد قامت به مملكتا (خيتا) تركيا و (متكى) شمال سوريا على الأملاك المصرية هو باكورة الأخبار التى وصلت إلينا عن زحف (خبيرى) (العبرانيين فيما بعد) وقد جاءتنا عن طريق خطابات تل العمارنة التى أرسلها أمير ببلوص (جيل) وريبادى (رب هداد) إلى الفرعون (أمنحتب الثالث) وجاء فيها :

منذ اليوم الذى غادر فيه والدكم (صيدا) وأظهر عطفه على بلاد (خبيرى) لم يعد فى استطاعتى أن أحصل على شىء .

إن علم الآثار منفرداً لا يمكنه أن يمدنا بنوع المعلومات التى تمدنا به الوثائق المكتوبة لأن معظم القطع الأثرية تكون عارية من النقوش . والمخطوطات تبحث فى الآراء والحوادث والشخصيات أما الآثار فخاصة بالأشياء الأكثر مادية وكلا المصدرين مكمل للآخر كما أنه لا يمكن الاعتماد على واحد منهما دون الآخر⁽¹⁵⁾ .

فعلى أثر سقوط الأسرة الثانية عشرة حتى حوالى ختام الأسرة الثالثة عشرة ظهر على مسرح السياسة المصرية قوم من الأجانب ملكوا البلاد (الريف خصوصا) وتحكموا فى أقدارها قرابة قرن ونصف . وهؤلاء المغتصبون لم يهبطوا على البلاد فجأة فاستولوا عليها كما يزعم المؤرخون ولكنهم تسربوا إليها على مهل وببطء حتى نشروا ثقافتهم ومبادئهم

ووضحت أمامهم سبل مصر وشعبها فانقضوا عليها بجيش جرار سيطروا به على الدلتا ثم امتد سلطانهم إلى مصر الوسطى . وسماهم المصريون بالهجم والطاعون و (الهكسوس) ⁽¹⁶⁾ وكان ذلك عام 1730 ق.م وهم لم يكونوا همجاً ولا متوحشين بل كانوا مثقفين ذوي حضارة وعرفان . ونهلت مصر من موردتهم واستتارت بمدنيتهم التي انتظمت فنون الحرب ونواحي الصناعة وأخذت عنهم من المخترعات. ولقد استشعر المصريون المهانة والذل من تحكم الدخيل في خيرات ومقدرات البلاد فهبوا تحت قيادة الفرعون (أحمس الأول) الذي طاردهم حتى خارج حدود مصر ⁽¹⁷⁾ . وهو أول فراعنة الأسرة الثامنة عشرة والمؤسس الأول لبناء الامبراطورية المصرية التي امتد سلطانها وثبتت دعائمها في أواخر عهد العاهل العظيم (تحتمس الثالث) الذي يلغبه مؤرخو الغرب (نابليون الشرق) حيث صارت الامبراطورية المصرية تمتد أعالي نهري دجلة والفرات شمالاً حتى الشلال الرابع جنوباً وحافظ على هذا الكيان أخلافه حتى نهاية عهد (أمنحيب الثالث) إلى أن جاء الفرعون (إخناتون) يحمل لواء عقيدة التوحيد الذي اهتم بنشر تعاليمه وانصرف عن أحوال البلاد الداخلية والخارجية حتى تقلصت الدولة . وخلفه من بعده (توت عنخ آمون) ثم (حور محب) الذي أعاد للبلاد سؤدها السالف وسمعتها الحربية التي كانت قد تداعت .

وعن (الهكسوس) يقول د. سليم حسن في موسوعته القيمة ⁽¹⁸⁾ :

إنهم استولوا على البلاد بنفس طريقة (الكاسيين) الذين استولوا على بابل . وعنهم يقول المؤرخ المصري (مانيتون) الذي أخذ المؤرخ المصري (يوسيفوس) عنه أنهم - أي الهكسوس - واليهود هم عنصر واحد . وذلك في محاولة لرفع شأن قومه اليهود . وينفى د. سليم حسن ذلك كلية ويفنده ويشير

فى ذلك المجال إلى أن الآثار التى تركها لنا الهكسوس ضئيلة وأن عدداً كبيراً من تلك الآثار قد انتحلوها لأنفسهم باغتصابها من الآثار المصرية القديمة . وعلى سبيل المثال تمثال (أبو الهول) الذى نسبوه لأنفسهم وهو فى الأصل للملك (أمنمحات الثالث) . وقد وجدت بعض الآثار المتفرقة المنسوبة إلى الملك (خيان) أعظم ملوك الهكسوس فى بغداد وكريت فبدا وكأن نفوذ الهكسوس قد وصل إلى تلك البلاد البعيدة وهو غير الحقيقة المؤكدة بأن هذه القطع الأثرية المتفرقة وجدت بتلك البقاع عن طريق التجارة أو الهداء . والواقع أنها قطعاً مصرية فى صورها وصناعتها ولو كانت تخص الهكسوس لكان منها الكثير فى تلك البقاع وغيرها .

والجدير بالذكر أن الفرعون (تاعا) الثانى الملقب بالشجاع (سقن رع) هو أول ملك بدأ النزاع بينه وبين ملك الهكسوس مما أدى إلى قيام البلاد كلها دفعة واحدة فى وجه أولئك الغزاة ⁽¹⁹⁾ . وبعد موت (سقن رع) خلفه (كامس) ثم (أحمس الأول) الذى طارد الهكسوس إلى خارج حدود مصر . وظل الهكسوس فى فلسطين وسوريا حتى عهد (تحتمس الثالث) 1447-1479 ق.م بل ويحتل حتى عهد (أمنحتب الثانى) 1420-1448 ق.م الملقبان بـ (ضارب الهكسوس الذين هاجموه) .

ومن الملاحظ أن المعادن التى عثر عليها فى فلسطين كان النحاس هو المعدن الهام المستعمل فى العهود التى قبل عصر الهكسوس ولكن عند وفود القوم الجدد على البلاد أمكننا أن نرى بداية حلول عصر استعمار البرونز (عصر البرونز الأول ⁽²⁰⁾) ومن المعلوم أن أول ظهور للبرونز فى أى مجتمع كان له دائماً تأثيراً انقلابياً فى الصناعة . وقد أحضر الهكسوس

هذا المخترع الفنى معهم إلى البلاد فى صورة راقية مثل الأسلحة والأوانى وغيرها .

وأهم ما جلبوه هو العربات التى تجرها الخيول (يقال أن الحصان حيوان خاص بالهكسوس بعكس الحمار الذى كان يُركب فى مصر منذ زمن بعيد جداً قبل عهد الهكسوس) . وبفحص اتجاه حركة هجرة الهكسوس اتضح لنا أنهم قد استوطنوا سوريا وفلسطين قبل أن يحتلوا مصر .

ومن الآثار وجد أن الهكسوس كانوا معاصرين لأهل ببلوص (جُبيل) الواقعة على شاطئ سوريا ولكنها لم تكن خاضعة لنفوذهم قبل عام 1730 ق.م ومن المصادر الأثرية عُلِمَ أن نفوذ الهكسوس الثقافى قد قضى عليه بالحروب الطاحنة التى شنها (تحتمس الثالث) ومن بعده ابنه (أمنحوتب الثانى) أى حوالى عام 1445 ق.م ويلاحظ انتشار الثقافة الحورانية فى أجزاء كبيرة من فلسطين وسوريا فى عهد الهكسوس المتأخر (1445 ق.م). والعنصر الهكسوسى الحورانى الذى كان يعيش فى فلسطين وسوريا فى تلك الآونة يمكن أن يكون منتسباً إلى عصر حورانى فى نفس البلاد فى نهاية هذا القرن وهو ما يعزز وجود قرابة وطيدة بين أهل (مِتنى) و (الحورانيين) منذ حوالى منتصف القرن 17 ق.م وهم الذين كانوا يقطنون سوريا وفلسطين وانشثروا جنباً لجنب . وإن كان ثقافة الهكسوس قد تغيرت من أساسها حوالى منتصف القرن 15 ق.م (1445 ق.م) ففى (مَجْدُو) الفلسطينية وجد أن الرسوم على الفخار الملون لا تخرج عن كونها رسوم حورانية محورة وكذلك يظهر أن طراز الأختام الاسطوانية المستخرج من (كركول - نوزى) كانت من خصائص العهد الأخير كما كانت من خصائص العهد الأول . ويدل فحص

الهيكل التي وجدت هناك على أن نفس العنصر فى كلا العهدين كان واحدا .

وكان العالم الكنعانى الذى واجه العبرانيين عندما دخلوا هذه البلاد يركز إلى حد بعيد على شعب أساسه من الهكسوس .

ولمحاولة إمطة اللثام عن أصل وموطن الهكسوس الأصلى نجد أنهم :

(1) قد استخدموا معدن البرونز (نحاس مخلوط بقليل من القصدير) :

ومعلوم أن فكرة صناعة البرونز نفسها كانت معروفة فى سومر والأناضول بتركيا (فى النصف الأول من الألف الثالثة ق.م) رغم أن مصدر النحاس فى سومر لم يكن موجوداً . ويقترح (لوكاس) أن كلا من أرمينيا وإيران قد تكون مصدرأ لاستخراج القصدير (الصفيح) .

(2) الحصان : له علاقة أصلية بالأقوام الآرية (الهنود والإيرانيين) .

(3) طراز حصون الهكسوس : وهو الحصون المستطيلة ينسب للآريين

أيضا (مشابه لمبانى إيران وبلاد ما وراء بحر خوارزم) وهو ما يدعم أنهم ينحدرون من (أو هاجروا عبر) بلاد القوقاز .

فى محاولة أخيرة من د. سليم حسن ⁽²¹⁾ للتفسير يتجه نحو الثوابت

الدينية فيقول أن إبراهيم (إلهام) (إله) هو بدوى قد صور يزور مصر فى رحلة سلمية . والواقع أنه قد قرن غالبا بين رحلته ورحلة (أبش) الذى سار على رأس قافلة لزيارة مصر فى عهد (سنوسرت الأول) . ومن غريب الصدف أن هذا العصر هو العصر الذى لاحظنا فيه لأول مرة أدلة على وجود الهكسوس فى مصر . وبعد فترة من الزمن دخلت كل أسرة (يعقوب) (إله) واتخذوها موطناً لهم (أرض جاسان أو جاشان بمحافظة الشرقية) . وهذا الحادث يذكرنا باحتلال الهكسوس للوجه البحرى . وواضح أن

الهكسوس كان العنصر السامى قوياً فيه . وكذلك يظهر أن الحورانيين قد لعبوا دوراً هاماً فى هجرة الهكسوس . ومن المحتمل أيضاً أن بعضاً من طائفة (خابيرو) المختلطة الأجناس قد صاحبوا المهاجرين وكذلك أيضاً الهنود والإيرانيين⁽²²⁾ . ولكن يجب عند فحص مسألة التكوين القومى للهكسوس أن تعالج وجهات النظر اللغوية والجنسية والثقافية بنفس الدرجة من الأهمية .

وفى عهد (أمنحتب الرابع) أى (إخناتون)⁽²³⁾ ساءت الحالة الأمنية فى فلسطين وازدادت حالات السلب والنهب والاضطرابات والتقتيل . وقد حاول أمير (خاسور) وهى معقل جبلى أن يتحد مع قبائل (خبيري) ليمد رقعة إقليمه فاستولى على مؤاب (إياب) و (بيلآ) جنوب الضفة الأخرى لنهر الأردن و (لابايا) فى الجنوب واستمر فى زحفه (يعاضده ميلكيل وتاجى) حتى استولى على ولايات (سهل يزراعيل) الواحدة تلو الأخرى مثل شونم وبورقانا وجتريمون وغزة وغيرها . أما (شكيم) وإقليمها فقد أعطاها لقبائل (خبيرو) . وبعد تفاقم الأمور أرسل الفرعون الأمير (خانى بن مري رع) وكان يحمل لقب (ابن الملك) أو نائب الملك لياتى برعوس أعداء الفرعون . ولما كان فى جيش كبير فقد أعلن الأمراء ولاءهم للفرعون دون أى مقاومة . وقبل الفرعون خضوع (ميلكيل) و (تاجى) أما (لابايا) فلم يغفر له خطيئته ولم يقبل شفاعته ووكل مهمة إحضاره كخائن و غادر أمير (عكا) غير أن الرشوة لعبت دورها فأخلى سبيله خلسة . ولكنه اغتيل فى أثناء هروبه . وكذلك هرب (إياب) أمير (بيلآ) من قائد الملك . وعادت الحملة المصرية ومعها الأسرى من الساميين إلى مصر وليس بينهم أسير واحد من (خيتا) . وبعد قليل أخذت قبائل (خبيري) يتوغلون فى البلاد

ناهبين الأماكن المأهولة وفارضين الضرائب الفادحة على مدن الساحل مثل غزة وإيالون وصرعا ولاكش وحتى عسقلان . وفى أورشليم جاهد (عبدى خيبا) أن يصد قبائل (خبيرى) وميلكيل وإينا لاباى (الذى أغتيل) على الأقليم الساحلى (كلنا وقملا) التابع لشواردانا . وآزوه فى ذلك (سوراتا) أمير (عكا) وأمير (أكشاب) ولكن سرعان ما دب الخلاف وبدأ كل منهم يعمل لحسابه حتى استولى (شواردانا) أمير (كلنا وقملا) على ثلاثين مكانا وكان فى الوقت نفسه يحرص (ميلكيل) قبائل (خبيرى) عليه مما اضطره إلى طلب النجدة من الفرعون .

وعملت يد القتل فى الأمراء بدرجة عظيمة حتى صارت مدن الولايات الفرعونية لا ولاة لها . وفى ذات الوقت اكتظ الإقليم الجنوبى من فلسطين بقبائل (خبيرى) وأصبحت كل مدن الداخل معادية للحكم المصرى (مدن منحدرات جبال يهودا جنوبى حبرون) واستجد (عبدى خيبا) بالفرعون دون جدوى . ولما أرسل بعد ذلك القائد (ينخام) الذى كان يثق به قوم فلسطين عجز أن يفعل شيئا حاسما فى هذا الجو المضطرب فضلا عن أنه فى السنين الختامية لحكم (إخناتون) كانت السيادة المصرية قد تفككت عراها وانحلت أواصرها خارج البلاد وداخلها .

وتمكن (حور محب) قائد الجيوش المصرية فى عهد (توت عنخ آمون) الذى خلف (إخناتون) بوصفه وصياً على العرش . تمكن من إخماد ثورات (خبيرى) (أى اليهود فيما بعد) وصحبه فى تلك الحروب مليكه (توت عنخ آمون) وساق جماعات من الأسرى من فلسطين (آسيويين وأوربيين) وخلف (حور محب) الذى حكم خمسة أعوام قائده ووزيره الأكبر وولى عهده المسن (رعمسيس الأول) الذى

حكم عامان ثم خلفه (سیتی الأول) الذى حكم تسعة عشر عاما وسار على نهج (تحتس الثالث) وقلده عن قصد فاسترد السيطرة على موانئ الساحل الفينيقي بعد حملته على شمال فلسطين وأخضع لبنان ثم بعضاً من سوريا . وقد كان للعبرانيين ضلع فى الحركة التى قام بها البدو (الثورات والفوضى ضد الحكم المصرى) إذ كانوا يسعون لتوطيد أقدامهم فى فلسطين . ولهذا السبب المباشر قام (سیتی الأول) بمهاجمة قبائل (شاسو) أى البدو الآسيويين فى فلسطين الجنوبية وأفلح فى إعادة السيطرة المصرية على كل فلسطين وجنوبى سوريا .

وهناك إشارتين فيهما شك كبير فى عهد الملك (داود) (الملك) والفرعون (نخو) أو (نخاو) وأيضاً فى عهد الفرعوني (شيشنق) و (تيرهاقا) لبلدة (قادش) وكان من الطبيعى أن تحدث داخل تلك الممتلكات النائية الثورات والاضطرابات بسبب المنازعات التى كان يخلقها التنافس وبسبب تراخى الحكام المصريين (المحليين) وضعفهم أو بسبب نزوع أهل هذه الجهات للحرية وعدم التقيد بالنظم القانونية .

ففى فلسطين كان البدو (شاسو) يقومون بحركات هجرة لا تنقطع خصوصاً قبائل البدو الرحل من قبيلة (إسرائيل) التى وفدت من الشرق واستوطنت إقليم أفريم (اسم مشتق من أفرات التى ما بين راما وبيت إيل) الجبلية الذى لم يسكنه من قبل إلا نفر قليل جداً . وكانت تلك القبائل فى العادة من الخارجين الذين لا يخضعون لأحكام ولا يمكن كبح جماحهم بسهولة . وقد ذكرهم الفرعون (مرنبتاح) ابن (رعسيس الثانى) فى لوحته المشهورة (بنى إسرائيل) أو لوحة تل العمارنة والتى عدد فيها الأصقاع التى قهرها وتسלט عليها فى فلسطين . وقد جاء باللوحه :

* وإسرائيل قد خربت وليس لها بذرة (أى خلف) .

وهذه هى الوثيقة الوحيدة التى جاء فيها ذكر إسرائيل فى النقوش المصرية فى عهد مرنبتاح . وهذا برهان على أنهم استوطنوا بلاد فلسطين قبل عهد (مرنبتاح) بزمان بعيد . وجاء ذكر قبائل البدو (شاسو) فى إحدى لوحات معبد الكرنك يمثل الفرعون (رعمسيس الثانى) وهو يطلأها بقدميه وهم مقيدون بالحبال تحت سنايك خيله . ومن كلمات تلك اللوحات الجدارية :

* وقد وقعت مذبة عظيمة فى أرض شاسو (البدو) ونهبت تلالهم وقتلوا عليها . وأقام المباني فى مدنهم بإسمه المخلد .

وهناك غير تلك القبائل قاطعى الطرق كان يوجد قبائل وطوائف أخرى مسالمة فى عهد الدولة الوسطى ثم فى عهد (حور محب) وهم الذين وفدوا على مصر بقصد التجارة أو لرعى الأغنام والماشية وقطنوا الحدود المصرية خصوصا وادى طميلات بأرض جاسان أو جاشان بالشرقية حالياً وهو بمثابة مدخل لمصر من آسيا . وقد ذكر لنا أحد الموظفين فى خطاب حكومى ينسب إلى الفرعون (مرنبتاح) أنه كتب لرئيسه قائلاً :

إن بعض بدو (شاسو) (أدوم) قد سمح لهم حسب التعليمات التى لديه أن يجتازوا الحصن الذى فى إقليم (سكوت) أى تل المسخوطة فى وادى طميلات ليتاح لهم رعى ماشيتهم بالقرب من (بتوم) أى بيت آتوم (كان المرور فى هذا الوادى شديد الحراسة) وعن ذلك الموضوع جاء فى سفر التكوين⁽²⁴⁾ :

* فأتى يوسف وأخبر فرعون وقال : أبى وأخوتى وغنهم وبقرهم وكل مالهم جاءوا من أرض كنعان . وهو ذا هم فى أرض (جاسان) . وأخذ من

جملة أخوته خمسة رجال وأوقفهم أمام الفرعون . فقال فرعون لأخوته ما صناعتكم ؟ فقالوا لفرعون : عبيدك رعاة غنم نحن وآباؤنا جميعا . وقالوا لفرعون : جئنا لنتغرب فى الأرض . إذ ليس لغنم عبيدك مرعى لأن الجوع شديد فى أرض كنعان : فالآن ليسكن عبيدك فى أرض جاسان (جوش أو جاشان) .

وهذه الصورة التى جاءت فى (الأساطير الإسرائيلية) قريبة الشبه بالتى ذكرناها فى عهد (حور محب) كما تصف لنا حالة المعيشة فى أرض فلسطين وقلة مواردها بالنسبة لمصر . وقد أنشئت أحياء كاملة للمهاجرين من الكنعانيين والفينيقيين الذين جاءوا إلى مصر مصطحبين معهم آلهتهم وأربابهم المحليين وهكذا اختلط الدم المصرى وحتى الملكى (مثل مومياة الملك سىتى الأول) بالدم الأجنبى (الساميين واللوبيين والنوبيين وغيرهم) . وفى جو السلام الذى ساد البلاد لأكثر من ست وأربعين سنة من عهد (رعمسيس الثانى) بدت مظاهر الترف والبذخ فى القصر الفرعونى وكذا أمور المحسوبية فى التعيين فى الوظائف الهامة والعالية (كما كان ذلك فى عهد تحتمس الثالث) خصوصا من الآسيويين . وترك لنا (مرنبتاح) ⁽²⁵⁾ أشودة عظيمة يصف لنا الهزيمة الساحقة التى أنزلها باللوبيين - الذين أغاروا على مصر من الغرب - كما أشار فيها إلى ما قام به من أعمال جليلة وماصبه من نكبات وأنزله من ويلات بأقوام البلاد الأخرى المجاورة التى تألبت عليه وقد ذكر من بينهم قوم (بنى إسرائيل) للمرة الأولى - ربما فى تاريخ العالم - ومن ثم تشعبت الآراء وتضاربت الأقوال فى حادثة خروجهم من مصر وفى إسم الفرعون الذى غادروا البلاد فى عهده لدرجة أن بعض المؤرخين أنكروا حادثة الخروج تلك وقالوا إنها مستعارة من حادثة أخرى هى خروج الهكسوس من مصر . وكذلك التضارب فى تفسير عبورهم البحر . أهو بحر

القلزم (البحر الأحمر) أم خليج السويس أم يم نهر النيل فى أحد فروعـه .
 وكان هؤلاء اليهود يسكنون فى شرق الدلتا (أرض جاسان بمحافظة
 الشرقية) وكان (رعسيس الثانى) قد سخرهم فى إقامة عاصمة ملكه
 التى جاء ذكرها فى التوراة باسم (رعسيس) ودلت الكشوف الحديثة على
 أنها (بررعسيس) أى (قنتير) الحالية بالقرب من مدينة فاقوس بالشرقية .
 وهى التى خرجوا منها مولين وجوهم شطر فلسطين . ومن أجل ذلك
 أصبح من المرجح أن خروج بنى إسرائيل من مصر قد وقع فى عهد
 (رعسيس الثانى) أو عهد ابنه (مرنبتاح) .

ويلحظ فى (رسائل تل العمارنة) أن ذكر بعض القبائل البارزة جدا
 فى الوثائق المصرية لم تذكر فى المتون الخيتية وخصوصا (شردانا)
 و (بلست) أى فلسطين . وقبائل شردانا كانت تحارب فى صف مصر أو
 عليها فى فترة تبلغ مائتى عام . أما قبائل بلست أو بلستى الذين ذُكروا فى
 التوراة لم يأتوا إلا متأخرين إذ لم يظهر إسمهم إلا فى عهد (رعسيس
 الثالث) .

والتقاليد العبرية تتفق هى والتقاليد الإغريقية على أن
 الفلسطينيين (البلست) من جنس أجنبى (يسمون شعوب البحر sea people
 وغالبيتهم من كريت) . وقد كانوا لا يختنون (يختلفون فى ذلك عن
 الساميين) . وتدل الشواهد على أن الفلسطينيين قد ساروا براً مخرقين آسيا
 الصغرى قاصدين شمالى سوريا (يستعملون عربات تجرها ثيران) وهاجموا
 مصر من جهة البحر أيضا . ومن المرجح أنهم جاءوا من مكان ما فى شمال
 بحر إيجه وكان احتلالهم لجزر كريت كمرحلة من مراحل هجرتهم إلى مصر
 والشام .

ويضع د. سليم حسن تصوراً للطريق الذى سلكه بنى إسرائيل عند هجرتهم (خروجهم) من مصر إلى فلسطين (معتمداً على القص فى النص التوراتى) (26) مبيناً أن الفرعون وعرباته قد ساخت فى الأوحال حينما أدركوا قوم موسى (عليه السلام) وأن بعض الركاب قد سقط مغشياً عليه ولم يغرق الفرعون (مخالفاً فى ذلك ماجاء فى القرآن الكريم) (27) وأن واقعة الخروج والمواجهة كانت فى (بحر البوص) بمنطقة المنزلة .. الخ .

فى عام 950 ق.م قام شيشنق الأول بتأسيس الأسرة الثانية والعشرين (الدولة اللبوية فى مصر) وكان شيشنق هذا قد زوّج ابنه أوسركون الأول (وولى عهده فيما بعد) من ابنة فرعون (بسوسنس) ليكون أهلاً لتولى العرش . وقد قام (شيشنق الأول) أو شيشق (كما ذكر فى التوراة) ببناء ما تهدم من المعابد وإعادة أوقافها والقضاء على الفوضى وإرجاع الأملاك إلى ذويها وبعد ذلك عمل على توحيد البلاد واتباع سياسة حكيمة لم يلجأ فيها إلى القوة (نصّب أحد أبنائه فى وظيفة الكاهن الأكبر لآمون فى الكرنك وبذا قضى على أسرة الكهنة القدامى) وأقام عاصمته فى مدينة (بوبسطة) أى الزقازيق . وفى عام 930 ق.م (فى عهد سليمان (عليه السلام)) أغار على فلسطين وانتصر على العبرانيين وأعاد النفوذ المصرى إلى هذه الأصقاع الآسيوية ونعمت مصر بالثراء العظيم (من غنائم الحروب) حتى أن مصر عاشت على تلك الكنوز والغنائم لقرنين من الزمان تتفق منها . واستمر حكم تلك الأسرة (22) حوالى قرنين ونصف وأصبحت مصر فى نهايتها نهياً للكوشيين (السودانيين والأثيوبيين) ثم الأشوريين ثم الفرس فالإيونانيين فالرومان ثم العرب (الفتح الإسلامى) .

وعن (العبريين) يفرد لهم د. سليم حسن فصلاً (28) فى موسوعته التاريخية فيقول :

تدل البحوث العلمية والنقوش الأثرية الباقية على أن قوم (العبرانيين) هم رابع قوم استوطنوا بلاد سوريا . وهم على الترتيب :
الأموريون - الكنعانيون - الآراميون ثم العبرانيون .

ففى العهد الأمورى كان مركز الجاذبية للشئون السورية فى الشمال وفى العهد الكنعانى انتقلت القوة المركزية إلى الشاطئ وفى عصر الآراميين كانت فى الداخل . وفى زمن العبرانيين انتقلت القوة إلى الجنوب فى فلسطين.

وعن أصلهم يقول د. سليم حسن :

- الظاهر أن دخول العبرانيين أرض فلسطين كان فى ثلاث هجرات :
- (1) الهجرة الأولى : بدأت من بلاد (مسوبوتاميا) وكانت فى القرن 18 ق.م . والى من جرائها انتشار (الهكسوس الحوريين) على الشاطئ الشرقى للبحر الأبيض المتوسط .
 - (2) الهجرة الثانية : وكان لها علاقة بقوم الآراميين فى القرن 14 ق.م وهم الذين عاصروا (إخناتون) .
 - (3) الهجرة الثالثة : وكانت من مصر والجنوب الشرقى فى عهد (موسى ويوشع) فى نهاية القرن 13 ق.م .

وقد كان الكنعانيون يؤلفون معظم السكان عند الهجرة الأولى للعبرانيين . وقد تزواج المهاجرون الجدد بأهل البلاد من الأموريين فكان العبرانيون خليطاً من الساميين والحوريين والخيتا وأقوام أخرى ينتسبون إلى الجنس السامى . وقد نبذ العبرانيون لهجتهم السامية القديمة وتكلموا باللهجة

الكنعانية (اللغة الفينيقية والعربية القديمة هما لغة واحدة بلهجتين مختلفتين) .
وتقول الروايات إن إبراهيم (عليه السلام) ومعناه الوالد السامي (إبرام) جدهم
الأول قد وفد من بلدة (أور) ببلاد (مسوبوتاميا) بالعراق عن
طريق (حاران) وقطن بجوار (حبرون) مؤقتاً وهي المعروفة باسم
الخليل حالياً . وقد أنجب إسحق (عليه السلام) ومعناه ليتة يضحك . وبعد أن
استوطن عدة سنين في (بادان آرام) انتخب (يعقوب) ومعناه ليتة يحمي
ليكون الابن المفضل على أخيه التوأم (عيساو) (29) ثم غير اسمه (أى
يعقوب) إلى إسرائيل بمعنى إيل يحكم . وقد تسمى (عيساو) باسم آخر
هو (أدوم) بمعنى أحمر . وفي نهاية الأمر استولى أخلافه من الأهالي
على جبل يسمى (سعير) وأصبحوا يسمون الأميين (30) .

وعلى ذلك حذف (عيساو) من مجرى حياة العبرانيين . وكان الابن
الحادي عشر من أولاد يعقوب (عليه السلام) هو يوسف (عليه السلام) . وهو الابن
الأكبر لراشيل وقد بيع في مصر حيث تبوأ أعلى المراتب إذ نصبه الفرعون
على خزائن مصر (وزيراً للمالية) . وبعد أن مكث نسل (يوسف) (عليه السلام)
وأخوته في مصر عدة أجيال عادوا إلى أرض الميعاد بقيادة موسى (عليه السلام) .

ولا نزاع في أن التاريخ اليهودي الذي كتب قبل عهد القضاة ليس
بتاريخ علمي ذي أسانيد . وعلى أية حال يبتدئ تاريخ إسرائيل الحقيقي
بوصفهم منذ خروجهم من أرض مصر في أواخر عهد (رعمسيس الثاني)
عام 1290 ق.م (31)

وكان أول انتصار للعبرانيين على الملك الأموري (سيحون) ثم انتصار آخر على الملك (عوج) الجبار. وكانت أول المدن الكنعانية المسورة (ذات أسوار) التي سقطت في فلسطين نفسها مدينة (لاخيش) أو لخيخ أي تل الدواير و (عاي) بالقرب من دير ديوان. وكذلك اجتازوا (أريحا) عاصمة مملكة الكنعانيين وأحرقوا كل ما فيها. أما (مجدو) في الشمال فلم تُخرب إلا بعد حوالي مائة سنة بعد ذلك. وقد كان من جراء توغل العبرانيين في بلاد (جليل) فتح (حاصور) أي تل الوقاص أو القداح عاصمة مملكة الكنعانيين في الشمال. والواقع أن ما يسمى بالفتح العبري كان بعضه بالسيف والآخر بالتوغل السلمي في أرض المن والسلوى. ثم بعد أن وطدوا أقدامهم قاموا بالتزواج من العناصر القديمة في البلاد. وقد قسمت هذه الأراضي بين الإحدى عشر قبيلة التي كان يتألف منها العبرانيون. فقبيلتا يهودا وبنيامين سكنتا الإقليم الجبلي حول (أورشليم) أما باقي القبائل فقد استوطنوا السهول الخصبة الواقعة في الشمال ومدة الاستقرار لهؤلاء القوم بين حوالي 1175 - 1075 ق.م وهي تتفق مع ما يسمى بـ (عصر القضاة)⁽³²⁾

وكان هؤلاء القضاة أبطالاً وطنيين وحكاماً ولدتهم الأحوال وقادوا قومهم لمحاربة الأعداء المجاورين أو الأجانب الغاشمين ومن أشهرهم (دبورة) و (باراق) وأيضاً (شمشون). وقد كان أقوى مناهض للعبرانيين في الاستيلاء على الأرض هم الفلسطينيون الذين ينحدرون في أصلهم إلى أقوام البحر الخمسة الذين وفدوا من بحر إيجه لغزو مصر. وحوالي عام 1050 ق.م هزم الفلسطينيون العبرانيون واستولوا على التابوت (تابوت العهد) الذي حملوه إلى (أشدود أو أشدود). وقد تفوق الفلسطينيون على أعدائهم

بمالديهم من أسلحة يتوقف صنعها على صهر الحديد . وقد احتكروا تلك الصناعة ولم يعلموها لأحد من الإسرائيليين .

وكان مصدر هذا المعدن هو ساحل البحر الأسود . وتعلم الكنعانيون أسرار تلك الصناعة من الفلسطينيين الذين انفرجت قبضتهم عن البلاد في عهد داود (عليه السلام) 960 ق.م وكانت هزيمتهم على يد داود الذي عرف سر صناعة الحديد (33) وبعدها فتح داود (آدوم) التي كانت غنية بخام الحديد .

والفلسطينيون بوصفهم مجتمعا أجنبيا في أرض فلسطين (ساحل البحر المتوسط) فإنه لم يكن لهم أى ضمان يضمن بقاءهم إلا استمرار تجديد دمائهم بالهجرة . وفي نهاية حكم داود (عليه السلام) بدأوا يختفون بوصفهم مستعمرة وعلى مر الزمان أصبحوا ساميين هضمتهم البلاد .

ونجد أن (نحميا) الذى كتب عنهم فى أواسط القرن الخامس ق.م لا يتحدث عن الفلسطينيين بل عن الأشدوديين . ومن اسم آلهتهم (داجون) إله الحب نعلم أنه مأخوذ من طائفة الآلهة الكنعانية . وكان مركز عبادته (أشدود) أما مقر عبادة زوجه (عشتاروت) فكان بلدة (عسقلان) .

وكان من جراء مقاومة الفلسطينيين إعطاء الفرصة لإنشاء المملكة العبرانية وهى التى بقيامها يبتدىء تاريخ الأمة العبرانية . وفى عهد العبرانيين نمت وترعرعت صفات قومية خاصة بهم وإن كان ينقصها المظهر السياسى . وقيل أن العبرانيين يعدّون الأمة الوحيدة بين الأمم السامية القدامى التى حافظت على أخلاقها القومية وشخصيتها بسبب عامل الدين (34) . وقد كان لجيرانهم الأدوميين والمؤابيين والعامونيين ملوك يحكمونهم . أما الفلسطينيون فكان لهم أسياد حافظوا على اتحاد مفكك . وكان

للفنيقيين حكومات مدنية وقد نما بعضها مثل (جبيل) و (صيدا) و (صور) وكان العبرانيون يحكمهم حتى تلك اللحظة (قضاة) . وقد نُصب (شاؤل) ملكا عليهم حوالى 1020 ق.م . وقد كان نظام الملكية مختلف عن الملكيات المجاورة فى أمرين حيث استمر نظام القبائل (من حيث الأغراض الادارية) وكان الملك يحكم حسب ما يمليه إلههم (يهوه) (يوحى بذلك بواسطة الكهنة والقديسين) . وقد كان انتخاب (شاؤل) Saul ملكا على العبرانيين سببا للثورة على الرؤساء الفلسطينيين . وبعد حرب طويلة قتل الفلسطينيين ثلاثة من أولاده وجرحوه جرحا بليغا وانتحر بعد موقعة (جبل جلبوع) . والمؤسس الحقيقى لمملكة العبرانيين هو (داوود) (عليه السلام) 1004 - 960 ق.م وهو الذى ارتدى درع (شاؤل) وابتدأ مجال ملكه تحت سيادة الفلسطينيين ثم أفلح بعد ذلك فى استقلال بلاده ووسع حدوده . وأصبحت أدوم ومواب وعمون تحت حكمه وقد انتخب (أورشليم) عاصمة لملكه وهى التى انتزعها من اليبوسيين Jebusites وجعل ديانة (يهوه) فى العاصمة الديانة الرسمية للمملكة الموحدة . وخلف داود ابنه (سليمان) (عليه السلام) على عرش الملك 960 - 925 ق.م وقد وصلت المملكة فى عهده أوج عظمتها من الرفعة والبذخ . وكان من نتائج حكمه أن اندمج العبرانيون فى مجرى الحياة والحضارة الشرقية . وأقام سليمان (عليه السلام) معبداً ضخماً كان خاصاً به فى أول الأمر ثم جعله عامماً للعبرانيين . وكانت شعائره وضحاياه (القرابين) تنعكس فيها العادات الكنعانية وعبيد المعبد كانوا من الكنعانيين (كلمة هيكل الكنعانية تعنى معبداً) .

وأقام (سليمان) (السليمان) بمساعدة صديقه الملك (حيرام) ملك فينيقيا أسطولاً من السفن لتجارة البحر الأحمر . وكانت قاعدة الأسطول (عيلانه) الرومانية أو (أزيون جبر) تقع عند تل الخليفة عند رأس خليج العقبة⁽³⁵⁾ .

ويلاحظ أن المملكة التي ورثها سليمان عن داود أكبر بكثير من التي تركها بعد مماته . وذلك لأن فلسطين اعترفت في ذلك الوقت بالسيادة الفرعونية ، وهي نهاية حكم (سليمان) (السليمان) خلص (رزون) الأرامي نفسه وبلاده من العبرانيين . وبسمت البلاد في عهد خلفه (رحبعام) ابنه الذي استبدل بـ (يربعام) الأفريمي عند انقسام المملكة . ففي الشمال مملكة (إسرائيل) التي كانت عاصمتها (شمعون) ثم (ترازه) ثم سماريه (السامرة) . وذلك تحت إمرة (يربعام) أما القبيلتان الباقيتان (12 قبيلة) تشكل المملكة الموحدة (وهما قبيلتا (يهوذا و سيمير) فقد بقي أهلها على ولايتهم لملكهم (رحبعام) وتآلفت منهما مملكة (يهوذا) في الجنوب وعاصمتها (أورشليم) . ودلت الحوادث على أن هاتين المملكتين كانتا تنافسان الواحدة منهما الأخرى وأحياناً تصل الأمور لدرجة العداء .

وبعد (عمري) أشهر ملوك إسرائيل (السامرة) عام 885-874 ق.م. خلفه (اخاب) 874-852 ق.م. تلاه (ياهو) 842 ق.م. الذي أعاد عبادة (يهوه) ثم (يربعام الثاني) عام 785-745 ق.م. ثالث نسل للملك (ياهو) ، وسع حدود المملكة إلى الشمال على حساب (آرام) وكانت هذه الفترة عهد استرخاء في مملكة آشور وعهد انحطاط في الدولة المصرية . وعندما نهى (تجرس بيلسر الثالث) أو (تغلات بلأزر) عرش آشور 747-727 ق.م. أعاد تمجيد الإمبراطور لآشور . فهزم دمشق (آرام) و (جلعاد) و (حنبلي) و (سهل شارون) وانكمشت مملكة إسرائيل (السامرة) . وفي

عهد (سرجون الثانى) 722-721 ق.م ساق أمامه خيرة شباب إسرائيل (السامرة) إلى الأسر فى ميديا (27.280 نسمة) . ومن تلك اللحظة قضى (سرجون الثانى) على مملكة إسرائيل أبديا .

وهؤلاء المنفيين (الأسرى) اندمجوا فى الأهالى على وجه عام (سكنوا فى خابور وحلح ومدن مادي ونهر جوزان) وحل محلهم قبائل من (بابل) و (عيلام) و (سوريا) و (بلاد العرب) ووطنوا فى سامريا (السامرة) وأقطارها . واختلط المهاجرون الجدد بالإسرائيليين المتبقين وتكونوا ما يعرف ب (السامريين) وقد كانت معتقداتهم الدينية متحدة مع عبادة (يَهُوَه) . وأما الانشقاق النهائى بين المجتمعين فقد حدث حوالى عام 432 ق.م [بعد عودة (عَزْرَا) أو أَزْرَا و (نحميا) أو نحميا من المنفى] . وازدادت العداوة والبغضاء بين اليهود والسامريين على مر السنين ولم يسمح بالتزاوج بينهم قط . وفى القرون الوسطى بعد الميلاد نما السامريون وترعرعوا فى (غزة) و (القاهرة) و (دمشق) وبلاد أخرى ولغتهم هى العربية ويقيمون فى (نابولوس) أى (نابلس) . أما بخصوص المملكة الجنوبية فقد انتهز (شيشنق الأول) فرصة الانقسام بين يهودا وإسرائيل (السامرة) فاقتحم البلاد حوالى عام 920 ق.م وضرب مدنها ونهب أورشليم وكان (عوزيه) أو إذا ريه ملك يهودا (782-751 ق.م) لطول فترة حكمه ليهودا قد أعاد نظام جيشه وأصلح معاقل أورشليم ونال انتصارات على فلسطين والعرب وتسلم جزية من العمونيين وأعداء آخرين . وكان من جراء القضاء على إسرائيل (السامرة) فى عام 721 ق.م أن تعرضت يهودا إلى هجمات مباشرة من آشور وأصبحت فى مستهل حكم (حزقيال) 721-693 ق.م خاضعة لآشور . وقد قام (سرجون الثانى) وخلفه (سنخرب) أو سنحاريب عام 705 - 681 ق.م بسلسلة حملات تأديبية على مدن الفتيقيين والفلسطينيين

ويهودا وانتهى الأمر بحصار (أورشليم) عام 701 ق.م ولم تسقط أورشليم ولكن القرى المجاورة أصبحت خرابا وبقيت يهودا مدة ثلاث أرباع القرن السابع ق.م بمثابة قطر تابع لـ (نِينَوَه) عاصمة الملك (سنخرِب) . وفى عهد (يوشع) الذى تولى عرش يهودا المخربة عام 636 ق.م وكان فى الثامنة من عمره اتسعت رقعة البلاد شمالا فى محاولة لتوحيد إسرائيل السامرة ويهودا . ولما سقطت (نِينَوَه) فى يد الكنعانيين بعد أفول نجم آشور عام 612 ق.م شجع ذلك مصر على مد حدود امبراطوريتها مرة أخرى إلى شمال سوريا . فتقدم الفرعون (نخاو) إلى يهودا والساحل وقتل يوشع فى المعارك (فى مجدو) عام 606 ق.م وخلفه (يوشيا) ابنه وأعاد عبادة (يَهْوَه) وحده . وقد تأرجحت (يهودا) بين سياسة الخضوع لحكم الفرات الجدد (الكلدانيين أو البابليين) والتحالف مع دولة مصر صديقتها القديمة . ولكن (يوأقيم) بن يوشيا اختار محالفة (نخاو) ملك مصر 608 - 597 ق.م فعينه الفرعون خلفا لأبيه وغير اسمه إلى (يَهْوُ يَاقِيم) وفى موقعة قرقيش عام 605 ق.م تمكن قائد الكلدانيين (نبوخذ نصر) أو بختنصر من هزيمة الفرعون (نخاو) وانتزع بذلك من مصر كل ممتلكاتها الآسيوية . ولم يكن لـ (يوأقيم) من القوة ما يناهض به (نبوخذ نصر) الذى دخل جيشه أورشليم عام 597 وقيد (يوأقيم) بالسلاسل كأسير إلى بابل ولكنه مات أو قتل وألقى بجثته خلف أبواب أورشليم . وفى عام 586 ق.م قام (نبوخذ نصر) بتخريب وهدم أورشليم وأخذ أهلها أسرى (50.000 نسمة) وخرب أيضا كل مدينة فى مملكة يهودا تقريبا وفى عام 564 ق.م أصبحت كل سوريا فى يد الكلدانيين .

ويلقى د. سليم حسن الضوء على العبرانيين فيقول (36) :

إن العبرانيين قد تعلموا الزراعة من الكنعانيين لأنهم كانوا في الأصل من البدو الرحل . كما أخذوا من الكنعانيين الشعائر الدينية والعادات . والشعائر المحرمة في التوراة حرمت فيما بعد لأنها لا تتماشى مع مبادئ الديانة اليهودية . والفن والعمارة الدينية عند اليهود مأخوذة من أصل كنعاني (هيكل سليمان الذي شيده بناءون من صور كان محاكياً لتصميم محراب كنعاني وكانت شعائر المعبد تتطلب أنغاماً موسيقية . وكان موسيقاروه ومغنوه الأول من الكنعانيين (ويهود تعلموا على يد الكنعانيين) والآلات المستخدمة كانت كنعانية الأصل (كانت معروفة في فلسطين قبل عهد داود بألفي عام) مثل الدفوف والصفارة والقيثارة والبوق .

والهجرة اليهودية إلى مصر كانت جزءاً كبيراً من هجرة السوريين حيث توجد قرى تحمل أسماء سامية (سورية أو آرامية) خلال العهد البطلمي (في القرنين الثالث والثاني ق.م) وتكثر الأسماء الآرامية في الأوراق البردية المصرية كما ثبت وجود عبادات لآلهة سورية في القرنين الثالث والثاني ق.م . وبرغم اختلاف السوريين عن اليهود في ديانتهم إلا أنهم كانوا يتكلمون لغة مشتركة . ولأن فلسطين في خلال القرن الثالث ق.م لم تكن تؤلف بمفردها وحدة إدارية خاصة (كانت سوريا وفينيقيّا تشمل المديرية أو المقاطعات الواقعة جنوبى سوريا وهى فينيقيّا وفلسطين وشرقى الأردن) ولذلك فقد خلط المصريون كل الأقوام الوافدين من سوريا وسموهم كلهم (سوريين) واللغة العبرية كانت تؤخذ خطأ - بسبب ذلك - على أنها اللغة السورية (الآرامية) ولم تكن لدينا وسيلة للتمييز بين اليهود والسوريين في الوثائق المتروكة لنا وبالتالي فلا توجد إمكانية لتحديد عدد اليهود المصريين .

وكان اليهود فى مصر يعيشون فى مجتمعات - فى مهجرهم كشأن غيرهم من المهاجرين - أى منظمات منفصلة نصف سياسية . لهم قوانينهم وعاداتهم ومبانيهم ومؤسساتهم وقادتهم وموظفهم وذلك فى محاولات منهم لإنشاء أجواء تشبه وطنهم الأصلى الذى أتوا منه . وبالمثل فقد أقام الكليكيون والمقدونيون والعرب والتراقيون والسوريون مجتمعات أخرى داخل المدن المصرية . والواقع أن اليهود لم يكونوا منحصرين فى أحيائهم . والمجتمع اليهودى ليس مرادفاً للحي اليهودى . ولم يمنح اليهود - أو غيرهم - حكماً ذاتياً سياسياً كاملاً فى مصر . ولهذا السبب لم يكن فى مقدور السكان اليهود بمصر أن يتحدوا فى نظام قومى واحد لأن ذلك كان يشكل خطراً على الدولة التى تأويهم . ولم يوجد فى الأوراق البردية ولا فى النقوش أى برهان على وجود مجتمعات يهودية فى العصر البطلمى . أما فى العهد الرومانى فلم يوجد سوى مجتمع يهودى فى (البهّسّا) .

ومن الملاحظ أن الغالبية العظمى من اليهود فى مصر لم يكونوا أغنياء كما لم تكن لهم أية صلة بالتجارة أو الربا (كما تقول البرديات) ورغم ذلك فإنهم قد نشئوا وفى دمهم الربا الفاحش . وانخرط اليهود فى سلك الجنديّة فى الجيش البطلمى لم يكن امتيازاً خاصاً قد منحوه . ولكنهم - كغيرهم - عملوا فى الجيش كمرتزقة حيث عمد البطالمة على عدم الاستعانة بالجنود المصريين الوطنيين (خصوصاً بعد الحرب العظمى التى وقعت بين ملك مصر وأنتيوكس الثالث عام 217 ق.م وكانت الغلبة فيها للمصريين) .

و عن (موقف اليهود السياسى فى مصر) يقول د. سليم حسن⁽³⁷⁾ :

إن تاريخ اليهود السياسى فى مصر فى عهد البطالمة ينقسم إلى عشرين ويعد عصر (حكم) بطليموس السادس (فيلومتور) عام 181 - 145 ق.م الخط الفاصل بين هذين العصرين . ويعد العهد الذى يقع بين حكم بطليموس الأول والسادس بالنسبة لليهود عهد استقرار حيث انتشروا فى كل أنحاء البلاد المصرية ووطدوا أنفسهم فى أعمال متنوعة وأسسوا مجتمعاتهم الخاصة بهم . وفى عهد (فيلومتور) بدأ عهد جديد فى تاريخ اليهود كان الدافع له أمران وقعا فى وقت واحد :

1- ميل الملك للساميين .

2- تدفق نهر جديد من المهاجرين اليهود إلى مصر (وفدوا من فلسطين) .
وقد أخبرنا (يوسيفوس) المؤرخ المصرى أن (فيلومتور) وزوجه (كليوباترا) قد وكلا أمر مملكتهما لليهود . ووضعوا الجيش المصرى تحت قيادة (أونياس) و (دوسيئوس) . وفى الحقيقة فإن ذلك مبالغة من يوسيفوس حيث أنشأ (فيلومتور) وحدة حربية يهودية تحت قيادة (أونياس) وذلك فى الوجه القبلى . وكان كره المصريين لليهود نابعا من كونهم أجانب وساميين (كراهة الساميين لم تكن ظاهرة جديدة فى مصر بل تمتد إلى دخول الهكسوس إلى مصر واستيلائهم على مقاليد البلاد ولدسائسهم التى لا تتقطع وكان هذا الكره طوال العصر الهيلانستىكى (البطلمى أو الإغريقى) لا يتعدى حدود الكتابات الأدبية (كتب الكاهن المصرى (مانيتون) أول تاريخ يحتوى على رواية مضادة لسفر الخروج لتكون تكذيبا لقصة الخروج) وزاد الكره فى العهد الرومانى فى صورة منهج منظم لطرد اليهود من كل المراكز التى وصلوا إليها فى عهد البطالمة سواء أكانت مراكز سياسية أو اجتماعية . ولما كانت اللغة الآرامية ليست لغة اليهود الوطنية فإن إحلال اللغة الإغريقية لم يؤثر فى الأسس القومية للحياة اليهودية .

وترجمت التوراة إلى الإغريقية وهذه الترجمة كانت بعيدة عن الأصل العبري والتوراة الأصلية (توراة موسى) التي غُيّرت وحُرِّفت كلماتها عن مواضعها وذلك أمر له أهمية سياسية في كل التطور الثقافي ليهود مصر . وقد كان اليهود في الإسكندرية (عاصمة الملك) مزهوين بإنجاز تلك الترجمة التي تمت في عهد (بطليموس الثاني) وقام بها 72 عالما يهوديا ندبوا خصيصا لذلك من فلسطين (الترجمة السبعينية) وقد كانت القوانين واللوائح التي تُولف الأساس القانوني لأعمال الحياة اليهودية هي القوانين العامة للإغريق في مصر وهو ما يسمى بـ (القانون المدني) وعليه فقد أصبحت حياة اليهود السكندريين الأسرية من حيث زواجهم وطلاقهم كانت تنظم بعقود حسب القانون الهيلنستيكي (الإغريقي) وبالتالي أصبح اليهود لا يعيشون حسب تعاليم التوراة .

فحسب تعاليم التوراة لا يقرض يهودى يهودى مثله بالربا ولكن حسب القانون المدني المطبق أصبح اليهود يقرضون يهوداً بفائدة منتظمة قدرها 24% (جاء ذلك في البرديات المصرية عن ذلك العهد) .

وعن الأدب في مصر القديمة :

نجد أن المصريين قد وضعوا المؤلفات الأدبية البحتة منذ عام 2000 ق.م وقبل ظهور الأدب العبري الممثل في المرويات التوراتية التي اختطها (عزرا) بعد ذلك بأكثر من إثني عشر قرناً . والأدب البابلي كان يترنح ولم يقصد به شيئاً أدبياً . وأهم أنواع الأدب المصرى القديم كان النوع الغنائى والعاطفى والقصص ثم الأدب العلمى والحكم والأمثال والتأملات . وإذا كانت إحدى الأمتين المصرية والبابلية أسبق من أختها وأقدم إنتاجاً فإن ذلك لا يعنى أن إحداها قد أخذت عن الأخرى أو تأثرت بها فقد كان لكل منها استقلالاً

يخضع للمؤثرات المختلفة مثل البيئة والاستعداد الفطري والدين والحضارة .
ومهما بلغ المدى الذى فاقت فيها بابل مصر فى القصة عامة فإن الأسبقية
لمصر فى اختراع الأقصوصة وصياغتها صياغة فنية ممتعة وتحليلها تحليلًا
نفسيًا مناسبًا (أخذ الأدب اليوناني أى الإغريقي الآداب الحديثة عنها) وفى
الأدب الغنائي كانت مصر وبابل كغصنى شجرة واحدة وبرغم انتاج بابل
الكبير فإن الانتاج المصرى كان يتميز بالقوة والعذوبة مع الأخذ فى الاعتبار
أن هناك الكثير من الأدب المصرى لم يكشف عنه الحجاب بعد. فالكثير من
النقوش والنصوص مازالت تحت الثرى . أما الأدب العبرى والقصى
والغنائى فلا يستطيع أن يتفوق عليهما (البابلى والمصرى) والأدب التعليمى
والتأملى (الأمثال والحكم) هو وحى مصرى خالص وكان ذلك نواة لأمثال
سليمان وحكمه فيما بعد . أما جمال الأسلوب وعذوبة الكلمات فالسابق والرجح
والتفوق للأدب المصرى القديم مثالاً لذلك قصة (الفلاح الفصيح) التى
كُتبت قبل 2000 ق.م فهى سلسلة من الأفكار السامية عن العدالة وحقوق
الإنسان صيغت ببلاغة وأداء رائع فى الأسلوب العذب (افتقدها الأدب
البابلى) . وقد بدأ الفساد فى ذلك الأسلوب الجميل يدب فى الأدب المصرى
منذ الدولة الوسطى حيث بدت الكلفة والصنعة والزخرفة اللفظية دون الاهتمام
بالمعانى السامية (يرى ذلك واضحاً فى قصة سنوهيت) ولا يمنع هذا من أن
نلمح قطع فنية راقية من وقت لآخر ولكنها قليلة (قصة الأخوين ، وقصة
الملك خوفو والسحرة وغيرهما كانت بمثابة قصص بسيطة بعكس قصة
سنوهيت وقصة نامون اللتان تُعدّان من أجود القصص القصيرة وأكثرهما
قُدماً) .

والأدب المصرى غذى الأدب العبرى والأدب الإغريقى بما يلزم للنمو
والارتقاء .

واستعراضاً للأدب المصرى القديم يقسمه د. سليم حسن⁽³⁸⁾ إلى تقسيمات مختلفة متتبعاً الآثار التى عثر عليها والدالة على وجود ما يمكن وصفه بالأدب :

أولاً: الدولة القديمة:

*الأسرتان الأوليان (3200 - 3000 ق.م) :

وهو عصر الاتحاد الأول (مينانعرمر) . لا توجد آثار أدبية ذات قيمة غير وثيقة اللاهوت المصرى والفلسفة الدينية.

*الأسرة الثالثة (3000 - 2900 ق.م) :

توجد كتابات فى العقائد الدينية خاصة فى عهد الملك (زوسر) باني الهرم المدرج بسقارة .

*الأسرة الرابعة (2900 - 2750 ق.م) :

وهو عصر الأهرامات . لا توجد كتابات أدبية خاصة وإنما نقوش دينية .

*الأسرة الخامسة (2750 - 2625 ق.م) :

كان عهداً ذهبياً فى الأدب والفن والفلسفة الدينية . وظهرت كتابات عن الأخلاق والسير القويم والمواعظ الحسنة (نصائح بتاح حتب) كما وجدت وثيقة منقوشة على جدران هرم الملك (وناس) .

*الأسرة السادسة (2625 - 2475 ق.م) :

وفيهما ظهرت كتب جديدة فى النصائح . وتوسعوا فى فتوح البلدان .

*الأسرتان السابعة والثامنة (2475 - 2445 ق.م) :

كان عصر فوضى واضطرابات وفساد . وتمزقت فيها أوصال الدولة ووحدتها .

ثانيا : العصر الأهناسي :

*الأسرتان التاسعة والعاشر (2445 - 2160 ق.م) :

وفيه ظل تفكك البلاد موجوداً إلى أن أسس (خيتي) مملكة مصرية في أهناس (بالفيوم) وعادت حرارة الحياة مرة أخرى تدريجياً .

*الأسرة الحادية عشرة (2160 - 1995 ق.م) :

عادت وحدة البلاد وظهر نوع من الأدب الراقى (نتج عن الرجّات السياسية والحروب القاسية) وكانت الكتابات تدعو إلى اصلاح حال البلاد الاجتماعى فى ظل حكومة عادلة .

ثالثا : الدولة الوسطى :

*الأسرة الثانية عشرة (1995 - 1790 ق.م) :

وفيه امتدت رقعة البلاد مرة أخرى بالفتوحات والهيمنة على البلاد المجاورة ويعزى إلى (أمينحات الثالث) تحويل الفيوم إلى أرض زراعية منتجة وزاد الاصلاح والتعمير ويعتبر عصر تلك الأسرة بالعصر الذهبى للأدب (العهد الكلاسيكى) فظهرت القصص والأناشيد والتأملات (الأمثال) .

*عهد الهكسوس (1790-1580ق.م) :

وهو العهد الذى استمر حوالى قرنين من الزمان . وقد تمكن (كاموس) ثم (أحمس) عام 1580 ق.م من طرد الهكسوس من البلاد وبناء دولة فتيحة جديدة .

رابعاً : الدولة الحديثة :

وفيهما ظهر تأثير الآداب المصرية والحضارة المصرية فى الشعوب التى أعاد فتحها (أحمس) عند مطاردته للهكسوس وكان عصر ثقافة واسعة ومجد سياسى . وكان الغناء الرائع والغزل الطريف من سمات ذلك العصر .

*الأسرة الثامنة عشرة (1580 - 1350 ق.م) :

وفيه اتسعت رقعة المملكة (عهد تحتمس الأول وحفيده تحتمس الثالث). ويتميز هذا العصر بمحاكاة الأدب للطبيعة وغلبت اللغة العامية على الكلاسيكية القديمة . وكانت فيه فلسفة عقيدة التوحيد (إخناتون) .

*الأسرة التاسعة عشرة (1350-1200 ق.م) :

وفيهما حارب (سيتى الأول) ومن بعده ابنه (رعمسيس الثانى) بدو فلسطين ودولة خيتا (الحيثيين) وخذ انتصاراته فى صورة قصائد نُقِشت على جدران المعابد. وفى عهد ابنه (مرنبتاح) قامت الحروب مع اللوبيين وغيرهم وسجلت لوحة أدبية هامة (لوحة بنى إسرائيل) التى عثر عليها فى تل العمارنة .

* الأسرة العشرون (1200-1090 ق.م) :

وُجِدت آثار مختلفة في عهد (رعمسيس الثالث) ووثائق كتبت على البردي .

* الأسرة الحادية والعشرون (1090-945 ق.م) :

وفيهما تفككت المملكة مرة أخرى . فأسس رئيس الكهنة (حـرـحـور) أسرة جديدة . ونجد فيها (نصائح أمينموبى) لإبنه فى طيبة . وأمراء أسسوا ملكاً لهم فى مدن أخرى مثل تانيس .

* الأسرة الثانية والعشرون (945-745 ق.م) :

ومؤسسها (شيشنق الأول) الأمير اللوبي الذي توج نفسه ملكا على البلاد وتلا ذلك الفتح الأنثوبي (الكوشيين) لمصر عام 712 ق.م . وبعده الفتح الآشورى عام 670 ق.م ثم جاء (أبسماتك الأول) مخلص البلاد من المستعمرين (663-525 ق.م) وهبت نسمات إصلاحية لإحياء العلوم والفنون القديمة ولكن ما لبث أن غزا الفرس البلاد عام 525 ق.م ثم جاء الاسكندر الأكبر ليغزو البلاد ويطرد الفرس عام 332 ق.م.

والكنعانيون والبعبرانيون تأثروا بالناحية الأدبية المصرية وكذا الناحية الفنية وكان ذلك جلياً في أناشيد الإنشاد والمزامير (حَكم داود) . وقد توصل المصريون القدماء إلى أعلى شكل للكتابة وهو الحروف الأبجدية . وكان استخدام الحروف عوضاً عن المعانى التى لا يمكن تصويرها برسوم معينة وكانت كتابات المصريين القدماء بالمداد الأسود على أوراق البردى وأيضاً على الخزف والحجر الجيرى الناعم . ونلاحظ أن معظم القصص المصرية القديمة قد نُقلت بصورة أو بأخرى فى الأدب العالمى الجديد (فى أوروبا

والحبشة والهند ..) وأيضا القديم فنجد في (سفر الأمثال) العبري ما يشابه
تعاليم (أمينموبى) مشابهة قوية في الأفكار والأساليب فعلى سبيل المثال
نجد:

*فى تعاليم أمينموبى (39) :

لا تتكلمن مع إنسان كذبا فذلك ما يمقته الله .

*وفى سفر الأمثال (40) :

شفنا الزور رجس عند الرب .

*وفى تعاليم أمينموبى (41) :

لا تسخرن من أعمى ولا تهزأن من قزم ولا تفسدن مقاصد رجل أعرج ولا
تحفظن رجلاً فى يد الله .

*وفى سفر الأمثال (42) :

المستهزئ بالمعوز يعير صانعه والشامت للعطب لا يتزكى .

*فى تعاليم أمينموبى (43) :

احذر أن تسلب فقيراً معدماً وأن تكون شجاعاً أمام رجل مهيب الجناح .

*وفى سفر الأمثال (44) :

لا تسلب الفقير لكونه فقيراً ولا تسحق البائس عند الباب .

* وفي تعاليم أمينموبى (45):

* لا تزرحن الحد الفاصل بين الحقول ولا تحولن موقع خيط القياس ولا
تطمعن فى ذراع واحد من الأرض ولا تقذفن بحدود الأرملة (أى لا تعتدى
على حدودها) ، احترس أن تغير حدود الأرض المنزرعة .

* وفي سفر الأمثال (46) :

لا تزرح الحدود القديمة ولا تدخل حقول الأيتام .

* فى تعاليم أمينموبى (47):

حرّك الدفة حتى يمكن الرجل الخبيث أن يعبر إلينا . لأننا لا نرتكب
ما ارتكبه . ارفعه ومد يدك له . وأسلمه إلى ذراعى الإله . واملاً جوفه
بخبزك حتى يشبع ويعى .

* وفي سفر الأمثال (48) :

إن جاع مبغضك فأطعمه خبزاً وإن عطش فأسقه ماءً .
مما سبق نرى إلى أى حد تأثر الأدب العبرانى من كتابات حكماء القدماء
المصريين التى تسبقه بعدة قرون .

والأنشيد الدينية التى كتبت فى عهد (إخناتون) تمدح إله الشمس
الجديد . جاء فيها :

* أنت خالق الجرثومة فى المرأة
والذى يذراً من البذرة أناسا .
وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه .

مهَّدنا إياه حتى لا يبكى
ومرضعا إياه حتى فى الرحم .
وأنت معطى النَّفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلَقته
حينما ينزل من الرحم (أمه) فى يوم ولادته .
وأنت تفتح فمه تماما
تمنحه ضروريات الحياة

ما أكثر أعمالك
وهى على الناس خافية
يا أيها الإله الأحد
الذى لا يوجد بجانبه شأن (لأحد)
لقد خلقت الأرض حسب رغبتك
وحينما كنت وحيدا (لاشئء غيرك)
خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان
وجميع ما على الأرض
مما يمشى على رجليه
ومافى عليين يطير بأجنحته
*وفى المزامير⁽⁴⁹⁾ نجد :
ما أعظم أعمالك يارب
كلها بحكمة صُنعت
ملأنة الأرض من غناك

وعن الأغاني الغزلية هناك العديد من الكتابات القديمة التي وصلتنا وكان المقصود (كما صور ذلك فى النقوش) أن تغنى تلك الأشعار بمصاحبة العود (الهارب) والقيثارة كما ظهر ذلك على جدران مقابر طيبة . وأيضا قصائد المديح للملوك تشير إلى ما أتوه من ضروب الشجاعة وجلائل الأعمال وتعتبر المدائح المصرية القديمة والأناشيد الاجتماعية التي تتحدث عن الأخلاق والصفات الحميدة وغيرها تسبق ماجاء فى الأغاني العبرانية بقرون طويلة .

(كتاب صموئيل الثانى : الفصل الأول على سبيل المثال) .

وملحمة قادش (المسماة خطأ بقصيدة بنتاور) إحدى الأمثلة الرائعة لأدب المديح وكذلك قصيدة انتصار مرنبتاح (المسماة بلوحة إسرائيل) وكلتاها - كلتا القصيدتين - تخران بالاستعارات والتشبيهات المختارة ووصفاً للنصر العظيم والفخار لما أحرزاه الملكان (رعمسيس الثانى ومرنبتاح) على الأعداء . والأدب المصرى القديم هو الأساس والمنهل الذى أخذت منه الآداب العبرانية والأوروبية وغيرها بعد ذلك بقرون طويلة . وإذا كانت الحضارة الأوروبية يقال أنها أخذت عن العبرانيين ففى الحقيقة أن الحضارة الأوروبية ما أخذت إلا عن الحضارة المصرية القديمة لا عن غيرها (سواء العبرانيين أو الحضارة الصينية أو الهندية أو حتى الإغريقية) فحِكم (أمينموى) - كما تقدم - تسبق التوراة بقرون طويلة . ويرجح أنها ترجمت إلى العربية فى الأزمان الغابرة وبذيوها فى فلسطين صارت مصدراً أُسْتُقى منه جزء بأكمله من كتاب الأمثال فى التوراة .

ويؤكد (د. جيمس هنرى برستيد)⁽⁵⁰⁾ أن الانسان قد سما إلى تصور

خلقى عالٍ قبل أن تظهر الأمة العبرانية إلى عالم الوجود بألفي عام .

والمجتمع المصري القديم أثرت فيه ظاهرتين عظيمتين طبيعيتين هما :

الشمس والنيل . (الخضرة التي تُروى من مائه) . وقد تصور المصريون القدامى أن لهاتين الظاهرتين إلهين كان لهما السيطرة على التطور الدينى والعقلى منذ أقدم العهود . وهما (رع) إله الشمس و (أوزير) إله الخضرة . و (رع) أى الشمس المجسمة جعلوا مقره (أون) أى هليوبوليس أو عين شمس الحالية حيث حل محله إله شمس قديم يدعى (آتون) ورمزوا له بـ (الصقر) فى إدفو . وكان إله الشمس بصفته صقر أيسمى (حور) أو (حوريس) أو حور أختى أى حور الأفق (رع أتوم) . وأعتبر إله الشمس أنه منبع الخير والحياة . ومن أجل ذلك أصبح قرص الشمس ذو الجناحين المنشورين أعم رمز فى الديانة المصرية القديمة (فى الأدب العبرانى ⁽⁵¹⁾ هناك جناح الصباح وشمس العدالة التى تحمل الشفاء فى جناحيها) وكان إله الشمس حليفاً للفرعون وحامياً له . وتقول (منون الأهرام) عنه أنه مكّن للفرعون مصر السفلى (الوجه البحرى) وكذلك مصر العليا (الوجه القبلى) وهدم له معاقل آسيا . وهو أول إله خُلِقَ عادل عرفه التاريخ .

وفى منف يقوم (بتاح) بدور إله الشمس القديم (رع أتوم) الذى تحول إلى قاضٍ يحكم شئون البشر . والإله المحلى (بتاح) هو المسيطر على أصحاب الحرف والصناعات . وبذا أصبح (بتاح) العظيم هو قلب كل الآلهة ولسانهم . أى انتحل لنفسه وظائف إله الشمس (القلب هنا بمعنى العقل أو الفهم والادراك أما اللسان فهو رمز النطق وأداة التعبير عن أفكار العقل وأوامره) . وهذا التعبير الخارق للمألوف فى ذلك الزمان القديم هو نفس ما توصل إليه العلم الآن . وحقيقة الموت تركت تأثيراً عميقاً فى كل من

اللاهوت الشمسى واللاهوت الأوزيرى (الخير والخضرة) . ولا يوجد شعب قديم أو حديث احتلت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التى احتلها فى نفس الشعب المصرى القديم و (أوزير) يعتبر (ملك الأموات) دون غيرهم أما (رع) فإنه صاحب قوة عظيمة فى شئون عالم الأحياء (مع أنه كان كثيراً ما يشفع للموتى) . وتوجد عندنا الأدلة القاطعة على أن أقدم المبادئ الخلقية عند قدماء المصريين أخذت دورها فى النمو وهى مقرونة بإله الشمس (رع) لا بإله (أوزير) لأن نصائح (بتاح حتب) تقول بجلاء أن إله الشمس هو خالقها (أى خالق العدالة أى ماعت) أما (أوزير) فقد ظهر بعد ذلك العهد بألف عام قاضياً خُلقياً فى الحياة الآخرة . وبذلك بزغ الفجر عقيدة خلود الروح لأول مرة على عقول البشر باعتبار الأبدية أمراً يحصل عليه الإنسان بالروح لا بالجسد . واعتبر ملك ذلك الإله (رع) عالماً خُلقياً عظيماً يتولى الملك (الفرعون) فى الأرض إدارته وتدبير أموره نائباً عن الإله لفائدة الأمة المصرية .

والعدل عندما يكون مطبقاً (قائماً) يكون حقيقة عدلاً لأن العدالة (ماعت) أبدية : فهى تنزل مع من يقيمها إلى القبر عندما يوضع فى تابوته . ويثوى على الأديم وإسمه لا يُمحي من الأرض بل يُذكر بسبب عدله . وهكذا تكون استقامة كلمة الله . وكان على الوزير أن يقيم العدل لأن الإله الأعظم الذى يشرف على الدولة يمقت الظلم وليس ذلك اتباعاً لأمر الملك فقط (بعد ذلك بحوالى ثلاثة عشر قرناً من حكم إله الشمس رع نجد أن أنبياء بنى إسرائيل يعلنون بقوة سيادة يَهُوه الخُلقية على سيادة الملك عندهم) .

والعصر الذى ظهرت فيه (متون التواييت) يوافق عصر أبى الأنبياء (إبراهيم) (عليه السلام) 1800 ق.م . وهو عصر انتشرت فيه - فى مصر - الرقى بالسحر والتعاويذ والسحرية لمواجهة المصير فى الحياة الدنيا وفى الآخرة (درءاً للأخطاء فى الحياة الدنيا وحجاً لعذاب الآخرة ومنعه) .

وفى وصية الملك المسن إلى ابنه (مريكارع) يقول :

لاتركننّ إلى طول الأيام لأنهم (يعنى قضاة أو ملائكة الآخرة) ينظرون إلى مدى حياة الإنسان كأنها ساعة واحدة (كناية عن قصر عمر الإنسان فى الدنيا عن حياته الأبدية فى الآخرة) . والإنسان يعيش بعد الموت وأعماله تكون بجانبه كالجبال لأن الحياة الأخرى أبدية ولا يهمل أمرها إلا الغبى . أما من يصل إليها دون أن يرتكب إثماً فإنه سبقى هناك كإله يسير بخطى واسعة مثل أرباب الخلود (يعنى الأموات البررة الأطهار) .

وفى عصر الدولة الحديثة (1600 ق.م) وبعد بعثة إبراهيم (عليه السلام) نجد أن الأدلة تكشف لنا عن التطور الخلقى وتطور التفكير وعمقه . وأصبح من نتيجة ذلك أن صار المفكرون من المصريون القدماء وقتئذ يرون أن المسؤولية الخلقية لكل إنسان (قول الصدق والحقيقة والتحلّى بالفضائل) مترتبة بصفة قاطعة على إدراكه وفهمه الشخصى . أى أن المسؤولية شخصية وليست جماعية (الحساب فى الآخرة فردى) وعليه فقد أصبح القلب (خلال القرن الخامس عشر ق.م) الذى يُنعت بالمرشد الحكيم قد صار يوصف بأنه الوازع الباطنى (إله المرء) أى الضمير الحى اليقظ .

وقد برزت فكرة (العقيدة الحولية القومية) التى تقول بأن الإله يحل فى كل شىء . ولذا فقد كان الملك (الفرعون) هو ظل الإله (المحلى) على الأرض وكان يتصرف وكأنه إله يدرك مطالب شعبه فى

مصر . وتطورت تلك الفكرة ليصبح الإله عالميا (فى الدولة الحديثة 1600 ق.م) فعلى يد (تحتمس الثالث) أصبح الملك الإله (عالميا) ييسط سيطرته وهيمنته على أرجاء الأرض . (غزا تحتمس الثالث ممالك آسيا وأفريقيا وكون أول امبراطورية ثابتة الأركان فى التاريخ) وقد سبقه (تحتمس الأول) حيث قال أن ملكه يمتد إلى نهاية ما تحيط به الشمس . وقد قال (تحتمس الثالث) عن إله الشمس :

إنه يرى جميع العالم فى كل ساعة .

ومن بعده جاء (أمنحتب الثالث) الذى حكم 1411 - 1375 ق.م (قبل بعثة موسى) وهو الذى شيد الكثير من المعابد والعمائر وكتبت فى عهده (أنشودة الشمس) التى جاء فيها :

إنك صانع . مصور لأعضائك بنفسك
ومصور دون أن تُصور
منقطع القرين فى صفاته . مخترق الأبدية .
مرشد الملايين إلى السبل .

أنت خالق الكل ومانحهم قوتهم
أنت أم نافعة للآلهة والبشر
وأنت صانع مجرب
وراعٍ شجاع يسوق ماشيته
وأنت ملجؤها ومانحها قوتها ..
.. هو الذى يرى ما خلق

والسيد الأحد الذى يأخذ جميع الأراضى أسرى كل يوم بصفته واحداً يشاهد
من يمشون عليها .

وهو يخلق الفصول والشهور .

وتلك الصفات الواردة لإله الشمس فى الأنشودة تذكرنا وترجع بنا إلى
عهد النبأى التى وجهت إلى (مريكارع) وهى التى سُميت فيه الناس
(قطعان الإله) كما ترجع بنا أيضاً إلى أفكار (أبيور) حيث يقول (إنه
راجع لجميع الناس).

وقد أخذ (أمنحيب الرابع) أى (إخناتون) 1370 ق.م فى باكورة
حكمه يناصر فى حماسه فكرة جديدة للمذهب الشمسى وأعطى إله الشمس
إسماً جديداً خلص به المذهب الجديد من التقاليد المحفوفة بخطر الشرك فى
اللاهوت الشمسى القديم (آمون - رع) فصار إله الشمس يسمى (آتون) وهو
إسم قديم يطلق على الشمس المجسمة . ومنحه الملك الشاب (إخناتون) رمزاً
جديداً (قرص الشمس تخرج منه أشعة متفرقة إلى أسفل وفى نهاية كل
شعاع صورة يد بشرية) وهو رمز يشعر بالسيادة ويدل على السيطرة
القوية الخارجة من منبعها السماوى وهى تضع أيديها فوق العالم وعلى شئون
البشر الأرضية (السيطرة العالمية) وألفت أناشيد لإله الشمس الجديد
وبمقارنتها بما جاء فى المزامير نكاد نرى تطابقاً (راجع الصفحات
السابقة) . ويلاحظ أن الإله (أوزير) قد تجوهر كلية فلم يذكر فى كل
الوثائق الإخناتونية بل ولا فى أى قبر من قبور (تل العمارنة) عاصمة الملك
الجديد .

ونلاحظ ثمة تشابه فى شخصية (إخناتون) والسيد (المسيح) فقد كان (إخناتون) رسولا لكل من عالمى الطبيعة والحياة الانسانية⁽⁵²⁾ . وإذا كنا لم نسمع عن (حساب الآخرة) فى مقابر (تل العمارنة) فمن الواضح أن ذلك إنما يرجع إلى نبذ سحابة الآلهة وأنصاف الآلهة وعلى رأسهم (أوزير) ممن كانوا يؤلفون هيئة المحاكمة فى حساب الآخرة بشكلها الموضح فى (كتاب الموتى) الفرعونى . فأولئك الآلهة قد بادوا وبالتالى اختفى منظر المحاكمة التمثيلى باختفائهم .

وبعد عصر (إخناتون) فى القرنين الثانى عشر والحادى عشر ق.م انبثق فجر عصر (التقوى الانفرادية) والإلهام الباطنى الذى ينجى به المرء ربه وتلك أول مرة نجد فيها أن (الضمير) قد تحرر تماما فيعتذر المذنب ويندم على جهله وارتكابه المعاصى . والاعتراف بالذنب هنا يختلف تماما عن الاعتراف الذى ورد فى (كتاب الموتى) حيث كانت الروح لا تعترف فيه بأى خطيئة بل تدعى البراءة التامة .

ومن الملاحظ أن التطور الخلقى عند قدماء المصريين - كسائر عناصر ثقافتهم - قد وقف وانتهى أمره تقريبا قبل بداية الحياة القومية العبرانية بعد أن سار فى تدرجه حوالى خمسة وعشرين قرنا (3500 - 1100 ق.م) .

ويقول (ج .بريستيد)⁽⁵³⁾ أن الفلسطينيين (الكنعانيين) لم يأخذوا عن البابليين شيئا يذكر من معتقداتهم وآرائهم الدينية سوى ما يتعلق بالأوضاع الظاهرية والشعائر المرعية . أما العقائد الجوهرية المكونة لأركان الدين فلم يكن الأخذ عنها بمثل هذه السهولة . فقد تصور البابليون الأوائل آلهتهم ممثلة فى القوى الطبيعية (هم فى ذلك مثل المصريين القدماء) فكانت أقدم

معبوداتهم من آلهة الطبيعة مثل الإله (سن) إله القمر فى العاصمة (أور) وهناك من الأناشيد التى يرددوها ويؤلفها الكهنة فى بابل مايمائل ماكان موجوداً بمصر القديمة. وتلك الأناشيد تذكرنا (بالمزامير العبرانية) رغم أنها تسبق تلك المزامير بقرون طويلة . والذى يلفت النظر لتلك الحالة (فى معانى وألفاظ الأناشيد وفنون النحت) هو عدم معرفتهم شيئاً عن المحاكمة فى عالم الآخرة فيما بعد الموت .

وقد لاحظ (فسترمارك) أنه لا يوجد فى أى (مزمور) بابلى معروف لنا من التى وضعت للتوبة أية دلالة على أن فكرة الخطيئة فيها تشمل الذنوب التى ترتكب ضد البشر . فقد كان شعور البابليين أن الذنوب لم تكن إلا مجرد تعد ظاهرى على حقوق الإله . وإذا ما نظرنا إلى (قانون حمورابى) الشهير نرى أن الجرائم والأحكام الواردة فيه كانت متدرجة حسب الدرجات الاجتماعية التى يشغلها المتقاضون أو المذنبون . فكان الرجل صاحب المنزلة السامية ينال فيه رعاية ظاهرية أكثر من الرجل الوضيع الأصل . وهذا يختلف تماماً عن المحاكمات التى كانت فى مصر القديمة حيث كان الحكماء ووجهاء القوم يكررون دائماً ذكر عدم اكتراثهم للفوارق الاجتماعية بين طبقات الناس . فالكل سواسية أمام القانون . وكان هذا المبدأ من صلب دستور الدولة المصرية القديمة بعكس الحال عند البابليين حيث انتفت العدالة الاجتماعية ولذا لم تسهم مدنياتهم مساهمة جوهرية فى تاريخ أسيا الغربية الخلقى . وفى المملكة الخيتية (الجيثيين بتركيا) جعلوا العقوبات القانونية متدرجة حسب المركز السياسى و (الاجتماعى) الذى يشغله المذنب وكانت وطأة العقاب تُخفَّف إذا كان المجرم من أهل البيئة المحلية عن العقاب الذى يزداد إذا كان المجرم من رعايا الحكومات المجاورة .

وقد اتصل (العبرانيون) خلال أسرهم البابلى (وهم فى مرحلة متأخرة من مراحل تقدمهم الدينى) اتصالا وثيقا بالمدنية الفارسية ووقفوا على الكثير من ديانة (زروستر) ومذهب (زروستر) هذا مذهب مزدوج يدعو كل إنسان أن يقف إلى جانب قوة من اثنتين : فإما أن يملأ روحه بالخير والنور وإما أن يخلد إلى الشر والظلمة. وأية طريقة يسلكها الإنسان لابد وأن ينتظر بعد موته حسابا عنها فى عالم الآخرة. وقد وجدت نظرية قوية وأدلة تقول أن (زروستر) قد أخذ الكثير من ديانتته عن الديانة المصرية القديمة⁽⁵⁴⁾ . ولدينا الأدلة الوافرة الآن على أن التطور الدينى الذى أحرزه العبرانيون بعد عودتهم من المنفى (فى بابل) كان متأثرا بتعاليم (زروستر) الذى أخذ عن المصريين القدماء . وفلسطين الكنعانية كانت تحت النفوذ المصرى القديم وقبل أن يأتى العبرانيون فلسطين بأكثر من ألفى سنة . وتلك المدنية التى أخذها الكنعانيون والفينيقيون (عن الحضارة المصرية والبابلية) أثرت بدورها فى حياة العبرانيين . واتخذ العبرانيون الفاتحون اللغة الكنعانية لغة لهم .

ومن الحقائق المدهشة - كما يقول (بريستيد)⁽⁵⁵⁾ - أن يكون الإرث الخلقى لليهود (المرويات التوراتية المأخوذة عن مصر وبابل) قد وصل إلى المدنية الغربية من شعب خامل الذكر سياسيا ومنزوي فى الركن الجنوبى الشرقى من حوض البحر المتوسط . فهذا الشعب لم يقم له نظام قومى خاص به إلا منذ عام 1020 ق.م ولم يبق أمة موحدة إلا نحو قرن واحد . واستمرت حياة جزء منهم إلى القرن السادس (722 ق.م السبى الآشورى ، 586 ق.م . السبى البابلى) أى حوالى أربعة قرون . ويعتقد (بريستيد)⁽⁵⁶⁾ أن قصة (يوسف) المروية فى الأدب العبرانى تحاكي القصة المصرية

القديمة المعروفة بـ (قصة الأخوين) أنوبيس وباتا. وقصة يوسف تلك تعتبر برهاناً قاطعاً على أن الإسرائيليين في القرن الثامن ق.م كانوا قد دخلوا في عصر الأخلاق فعلاً.

ولابد أن تعاليم الحكماء المصريين القدماء الاجتماعية كانت قد كونت جزءاً من التقاليد الدينية لدى الفينيقيين والكنعانيين وبقيت بينهم عدة قرون قبل أن تظهر (المسألة الاجتماعية) وتشخذ عواطف الرجال ذوى الشعور الخلقى الحي من العبرانيين أمثال (عاموس) و (هوشع) في خلال القرن الثامن ق.م⁽⁵⁷⁾ وقد تأثر الأنبياء العبرانيون أيما تأثر بالمقابلة بين الرجل المستقيم والرجل الخبيث كما صورتها كتابات الحكيم (أمينموبى) حيث اقتبس (كاتب سفر إرميا) تلك الصورة كما بلى⁽⁵⁸⁾ :

* يقول أمينموبى⁽⁵⁹⁾ :

والرجل الأحق الذى يخدم فى المعبد مثله كمثل شجرة نامية فى غابة
ففى لحظة يفقد فروعه ويجد نهايتها فى مرفأ الخشب وينتقل بعيداً عن مكانه
والنار مأواه ، والرجل الحازم حقا ينتقى لنفسه مكانا .

فإنه مثل شجرة نامية فى حديقة يزدهر ويتضاعف ثمره ويجلس فى
حضرة سيده ، وثمرته حلوة ، وظله وارف ويجد آخرته فى الحديقة .

* ويقول النبى (إرميا)⁽⁶⁰⁾ :

ملعون ذلك الرجل الذى يتكل على الإنسان ويجعل البشر ذراعاً .
وعن الرب يَهْوُه يحيد قلبه ويكون مثل العرعر فى البادية ولا يرى إذا جاء
الخير . بل يسكن الحرة فى البرية أرضاً سبخة غير مسكونة . ومبارك ذلك
الرجل الذى يتكل على الرب يَهْوُه وكان الرب متكله فإنه يكون كشجرة

مغروسة على مياه وعلى نهر تمتد أصولها ولا تخشى إذا جاء الحر . ويكون ورقها أخضر . وفى سنة القحط لا تخاف ولا تكف عن الإثمار .

* بعض المزمور الأول^(١) :

١- صمى للرحل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار . وفى طريق الخطاة لم يقف وفى مجلس المستهزئين لم يجلس .

٢- لكر فى ناموس الرب يهو . مسرته . وفى ناموسه يلهج نهاراً وليلاً .

٣- فيكون كشجرة مغروسة عند مجارى المياه التى تعطى ثمرها فى أوانه . وورقها لا يذبل وكل ما يصنعه ينجح .

٤- ليس كذلك الأشرار لكنهم كالعصافى التى تذروها الرياح .

٥- لذلك لا تقوم الأشرار فى الحساب ولا الخطاة فى جماعة الأبرار .

ونلاحظ أن فكرة الحساب لم ترد فى سفر المزامير كله إلا هذه المرة. وكذلك نلاحظ أن تأكيد ذكر مجارى المياه فى الصور العبرانية أمر هام أيضاً لأن النصف الجنوبى من فلسطين (مملكة يهودا) شبه صحراوى (ومازال إلى الآن).

وقد اكتشف الباحث (جوجرسمان) أن هناك تشابه تام بين ماجاء فى (أنشودة إخناتون) وبين ماجاء فى المزمور 104 حيث نرى ونذكر رحمة الله ورأفته بخلقه أجمعين . تلك الطيبة والشفقة الإلهية المعبر عنها فى الأنشودة الإخناتونية (عصر التنسك الشخصى فى مصر) وهى التى كان لها التأثير الهام فى ظهور (التدين الشخصى) عند العبرانيين (بعد ذلك) . كما

أن تلك الأنشودة (المكتوبة في منتصف القرن الرابع عشر ق.م) أدت تدريجياً إلى اعتراف العبرانيين بالواحدانية .

وكذلك نرى أن محتويات الجزء الذى يؤلف نحو فصل ونصف فصل من (سفر الأمثال) العبرانى مأخوذ حرفياً عن حكم الحكيم المصرى (أمينموبى) بالاضافة إلى ما أخذته (القوانين العبرانية) وسفر (أيوب) و (شاول) و (إرميا) أيضا . ولا يخفى على المدقق أن (أمينموبى) قد اعتمد على حكم (بتاح حنن) الذى يسبقه بحوالى ألفى عام فى تأليفه كتابه المكون من ثلاثين فصلاً . وتلك الأخيرة هى التى انتشرت فى فلسطين وكانت تسمى باسم (ثلاثون فصلاً فى الحكمة) ثم أصبح يطلق عليها (الثلاثون) .

ويمكن الرجوع إلى الأسفار المذكورة لتبين مدى التطابق والتشابه مع الأخذ فى الاعتبار أن هناك تعديلات طفيفة تمت لتتناسب مع البيئة الفلسطينية. فعلى سبيل المثال يوصف الرجل الغنى فى حكم (أمينموبى) وله أجنحة الأوز (المنتشر فى مصر) . وفى (سفر الأمثال) نجد له أجنحة النسر وهكذا .. فالحكماء والأنبياء العبرانيين (كتبة الأسفار) كانوا ينتخبون المختارات ويقتبسون الاقتباسات من حكم (أمينموبى) لأن من الطبيعى أن يتأثر العبرانيون فى فلسطين كل التأثر فى أفكارهم وكتاباتهم بأداب مصر القديمة التى قبضت على زمام فلسطين ووضعها تحت سيطرتها الثقافية والسياسية مدة تفوق مدة نفوذ روما فى بلاد فرنسا القديمة . فالإسرائيليون بعد استيطانهم فلسطين كانوا فى الواقع يسكنون أرضاً من الأملاك المصرية مضت عليها فى هذه الحال قرون بأكملها وقد استمرت بلاداً مصرية عدة قرون بعد استيطان العبرانيين لها.

ويؤكد (فرانسوا دوما)⁽⁶²⁾ على عدة نقاط هامة :

- * تركت مصر أثراً عميقاً في فكر الكتاب المقدس أخلاقياً وميتافيزيقياً .
- * لم تعرف مصر هذه الجموع الغفيرة من العبيد التي تلحق العار باليونان وروما (كان الرق فردياً وليس جماعياً) .
- * تميز حكماء مصر بإنسانية بالغة وصلت إلى مستويات سامية من الأخلاق .
- * عرف الفن المصرى القيود وكان يرى أن الحرية قد تقتل الفن .
- * لم يترك المصرى القديم شيئاً للصدفة (جهاز سطح معبد دندرة فى الصعيد بالمزاريب رغم ندرة هطول الأمطار) .
- * حسن رعاية الأجانب (النازحين والأسرى) .
- * احتلال الكاتب مكانة مرموقة والتأكيد على ذاتية الفنان .
- * مولد القصة السيكلوجية (مثل سنو هي الفلاح الفصيح) .
- * شهدت مصر ازدهارات الرهبة .
- * لم تحاك مصر أحداً (كانت مبدعة وليست مقلدة) .
- * الحضارة المصرية القديمة تحتفظ دائماً بكل ما هو قديم إلى جانب الجديد .
- * رسوخ الإيمان وعمقه الذى كان أهم أسباب بناء الحضارة المصرية القديمة لأن الخوف من العقاب أو الرغبة فى المكسب المادى فحسب لا يبينان حضارة.
- * الكتابة على رأس الابتكارات العبقريّة التي توصل إليها المصرى القديم .
- * اللغة المصرية القديمة لهجة حامية سامية انفصلت فى وقت مبكر جدا عن الجذع المشترك للغات السامية والحامية والكوشية (النوبية- الأثيوبية) .
- * اللغة العبرية شأنها شأن اللغة المصرية لم تكن تكتب فى الماضى إلا بالاستعانة بالعلامات الصوتية الساكنة .

ويقول (إيمانويل فلايكوفسكى) (63) :

أنه لم يُعثر على أية وثائق مصرية قديمة تشير إلى أحداث الإقامة والخروج لبني إسرائيل من مصر . ولم تذكر أيضا مصر في قصص التوراة طوال فترة حكم القضاة اليهود بالرغم من الاحتكاك المستمر والمباشر بين مصر وفلسطين طوال فترة حكم الملوك اليهود حيث دأب فراعنة مصر على تسيير الحملات إلى فلسطين (وهى حملات نسي فراعنة مصر ذكرها فى آثارهم فيما بين القرن العاشر والسادس ق.م) ويتعجب فلايكوفسكى لذلك الأمر ويفترض لذلك أن زمن التيه فى صحراء سيناء قد يكون أكبر مما هو مذكور فى الكتب الدينية وأن فترة حكم القضاة فى فلسطين تختلف عما وصل إلينا . ولكنه يعود فيؤكد أن زمن الخروج من مصر تم فى فترة المملكة الفرعونية الحديثة (فيما بين القرن 16 ، 12 ق.م) ويسوق - لتأكيد كلامه عدة افتراضات :

* أقدم نظرية تنص على اقتران ظهور الإسرائيليين بظهور الهكسوس وتقرن الخروج بطرد الهكسوس من مصر . وقد سجل (مانيتون) المؤرخ المصرى أن الهكسوس بعد طردهم من مصر اتجهوا إلى سوريا وفلسطين وأنشأوا أورشليم .

* جادل (يوسيفوس) المؤرخ اليهودى المصرى كلاً من نظرية (أبيون) عالم النحو ونظرية (مانيتون) الكاهن المصرى إلا أنه فى النهاية قبل دعم نظرية أن اليهود هم الهكسوس .

* كتب (جوليوس) الكاهن الأفريقى بتفويض من الأب (أبيون) أن اليهود قد تمردوا تحت قيادة موسى (الشيخ) على (أحمس الأول) ملك مصر .

*كتب (إيزبيوس) وهو من رجال الكنيسة ناسباً وقوع الأحداث إلى عصر الملك (سنشيرييس) من الأسرة الثامنة عشرة . ولا يُعرف ملك بهذا الاسم في أى من العصور الفرعونية .

*تقول نظرية أخرى أن اليهود لم يقيموا أبداً في مصر ولكن الهكسوس هم من أقاموا فيها . ثم تم طرد الهكسوس ووصلت إلى مسامع الإسرائيليين بعض تقاليد هذا الشعب فضموها إلى تراثهم وأصبحت جزءاً من ماضيهم .

*تفترض نظرية أخرى أن عام 1580 ق.م يُعد حدثاً مبكراً بالنسبة للخروج اليهودي من مصر (الأسرة الثامنة عشرة) ولكن يمكن حدوثه في فترة ما تلى (إخناتون) لأنه من المستحيل على الإسرائيليين دخول فلسطين في عهد فراعنة أقوياء .

* اكتشف رسائل (تل العمارنة) المكتوبة على ألواح من الطين يعود تاريخها إلى عهد (أمنحتب الثالث وابنه إخناتون) وهي رسالة من أورشليم ويدور قلق كاتبها وهو يحذر الفرعون من غزو محتمل يقوم به اليهود (خابيرو) القادمون عبر الأردن وعليه يكون الخروج قد تم قبل زمن تلك الرسائل بجيل أو جيلين .

*الخروج في عهد (أمنحتب الثاني) يبدو متوافقاً مع التسلسل الزمني الذي ورد في التوراة (سفر الملوك 6 : 1 يحدد أن معبد سليمان قد شيد بعد الخروج بأربعمئة وثمانين عاماً وهو ما يوافق منتصف القرن الخامس عشر ق.م وهو عهد أمنحتب الثاني) وهو ما يوافق رسائل تل العمارنة . وأيضاً حدوث زلزال في التوقيت نفسه تسبب في سقوط حائط مدينة أريحا (جيركو) يؤيده حفريات تبين فيها ظهور آثار دمار ونيران على حوائط المدينة (1407 ق.م) وهو نفس ما ذكرته التوراة في السفر المذكور (سفر الملوك) .

* غادر اليهود مصر أيام طرد الهكسوس ووصلوا فلسطين باسم العبرانيين في عهد (إخناتون) ولكن ما بين الخروج ووصولهم إلى فلسطين هناك أكثر من مائتي عام (المعروف أنها توازي زمن التيه في الصحراء) كما أن يشوع بن نون (يوشع) لم يجد أى أثر لقبصة مصر القوية حين غزا فلسطين .

* نظرية أخرى تفترض وقوع الخروج أثناء الفوضى التى أعقبت حكم (إخناتون) وادعى أحد المؤرخين أن (موسى) لم يكن إلا أميراً مصرياً وتلميذاً لاختاتون حمل لواء دعوته (التوحيد) بين العبيد والفقراء ثم غادر بمن آمن منهم مصر .

* نقوش الغطاء الحجرى لتابوت مرنبتاح كتب عليه أن فلسطين أرملة لمصر وأن بذرة إسرائيل قد محيت ودمرت وهو ما يُعد أول ذكر لإسم إسرائيل فى وثيقة مصرية . ولكن مرنبتاح هذا لم يهلك فى البحر ولم يعان من فوضى العنف فى عصره وهو من هزم الإسرائيليين (فى فلسطين) .

* كثير من الإسرائيليين رجحوا أن (مرنبتاح) هو فرعون الخروج (1220 ق.م) وأن (رعمسيس الثانى) هو الطاغية الذى استعبدتهم ولكن وجود النقوش السابق الإشارة إليها بضعف ذلك الاحتمال . كما أنه فى هذه الحالة يصبح عصر الفضاة قرن واحد فقط لا عدة قرون (أربعة قرون) .

* افترض باحثون آخرون أن الخروج قد تم فى موجات متتالية فى عصر (مرنبتاح) وأنهم لم يظهروا بفلسطين إلا بعد غزو أقوام البحر (الفلست Sea peoples) لها حيث حارهم (رعمسيس الثالث) 1186 ق.م بعد ذلك .

* ادعى أحد الباحثين أن الإسرائيليين دخلوا مصر في عهد (مرنبتاح) بعكس ما يقال عن خروجهم في ذلك العصر . أثناء ذلك قام الآسيويين بعبور الحدود إلى مصر وحصلوا على موافقة السلطات بقبولهم كمهاجرين .

وكما افترض (فلايكوفسكى) ماسبق . آثار التساؤلات مرة أخرى عن اسم البحر الذى حدث عنده العبور^(٦٤) . وهل هو يام سوف (البحر الأحمر) أو خليج السويس أم خليج العقبة أو بحيرة سربونيس أو سيربون (بحيرة البردويل) أو أية بحيرة أخرى مثل بحيرة التمساح أو البحيرات المرة . ويطرح تفسيراً آخر وهو الإعصار الشديد (والرياح القوية التى تهب من المساء حتى الفجر وتدفع الماء إلى الانحسار) .

وعن موضوع (عمود النار والدخان) الذين ذكروا فى التوراة شكك (فلايكوفسكى)^(٦٥) من حدوثها ويعتبر ذلك مجرد إضافة من خيال الرواة الذين حكوا القصة ويعزو ذلك إلى حدوث بركان .

ويشير إلى نصوص (بردية إيبوير)^(٦٦) التى لا يعتبرها مجموعة من الأمثال (كما فسرهما لاوث وشاباس) ولا ألغازا (كما فسرهما بردجسن) ولا نبوءة (كما فسرهما لانج) ولا مجموعة نصوص صانح صاحبها انهيارات اجتماعية (كما فسرهما جاردنر وشيث) ولكنها - كما يعتقد - الرؤية المصرية لكارثة كبرى أو مجموعة كوارث متتالية (يفسرهما بأنها الضربات المتلاحقة التى أنزلها الرب على مصر قبيل حادث الخروج) فالبردية مخطوط لمناحة ووصف لخراب ورعب، ولتأكيد استنتاجه يقارن ما جاء فى البردية وسيفر الخروج فيقول :

*البرديّة⁽⁶⁷⁾ : البلاء انتشر فى كل أنحاء البلاد و الدماء فى كل مكان .

*سَفَرُ الخروج⁽⁶⁸⁾ : وكان الدم فى كل أرض مصر .

*البرديّة⁽⁶⁹⁾ : النهر دم .

*سَفَرُ الخروج⁽⁷⁰⁾ : فتحول كل الماء الذى فى النهر دماً .

*البرديّة⁽⁷¹⁾ : مصر السفلى (الوجه البحرى) تنتحب . كل القصور الملكية بلاموارد القمح والشعير والأرز والسّمك . كانت الحقول مخرّبة تماماً .

*سَفَرُ الخروج⁽⁷²⁾ : لم يبق شىء أخضر فى الشجر ولا فى عشب الحقل فى كل أرض مصر .

*البرديّة⁽⁷³⁾ : لم تكن الأرض نوراً .

*سَفَرُ الخروج⁽⁷⁴⁾ : فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة أيام .

*البرديّة⁽⁷⁵⁾ : إن الفرعون فُقِدَ فى ظروف غير عادية وأن ذلك لم يحدث قط لأى فرعون آخر .

*سَفَرُ الخروج⁽⁷⁶⁾ : فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءه فى البحر ولم يبق منهم ولا واحد .

وبالرغم أن البردية المهرتنة لم تحتو على أى ذكر للإسرائيليين صراحة أو حتى تلميحا ولم تشر إلى أى من قادتهم فإن ثلاثاً من الحقائق ظهرت بوضوح⁽⁷⁷⁾:

1- تمرد السكان .

2- فرار البؤساء والمساكين المسخرين للعبودية .

3- اختفاء الملك في ظروف غامضة .

و عن (الهكسوس) يقول (فلايكوفسكى) (٧٨) :

اختلفت نظريات الباحثين في أصل الهكسوس فأكد بعضهم أنهم من (الميتانيين) الذين انحدروا عن الجنس الارى . وقال الآخرون أنهم (ساسانيون) من بلاد فارس . وافترض البعض أنهم الإسرائيليون وقيل أنهم من العرب .

ومن الملاحظ أن الكتب المقدسة لم تشر إليهم أو تذكرهم، ويقول (المسعودى) عنهم :

أنهم غزوا سوريا ومصر وأسسوا أسراً حاكمة من القراعنة العماليق . ويزعم (فلايكوفسكى) (٧٩) في تفسير خاطيء لنقوش (لوحة كاريزفون) ونقوش أخرى على جدران مقبرة أحد ضباط (أحمس) وهو أمير مصرى وحاكم ولاية وتابع لملك الرعاة (الهكسوس) يدعى أنه في حرب التحرير ضد (أمو - الهكسوس) كان هناك جيش أجنبي يقاتل ضد الهكسوس (بالرغم أن النقوش لا تسجل أى مائر لملوك أجنبية) ويقترح لذلك الملك اليهودى (شاؤل) . وأن الشرق الأدنى منبى لشاؤل (الذى قتل فى تلك الحروب) لنيله حريته وتخلصه من نير عبودية الهكسوس ولولاه لما تغير مسار التاريخ هكذا .

ويستمر في ادعائه أن ميراث الامبراطورية الزائلة للعماليق (الهكسوس) قد انقسم بين المصريين والإسرائيليين حيث نهضت كل من مملكة يهوذا ومصر⁽⁸⁰⁾ ويفترض أن خروج الإسرائيليين - تبعاً لذلك - كان في أواخر المملكة المتوسطة . وأن الملكة (حتشبسوت) هي نفسها منحه (سبا) وأنها تتزامن وتعاصر حكم سليمان (عليه السلام) متخذاً ما جاء في الأسفار التوراتية دليلاً له في ذلك⁽⁸¹⁾ وعليه فإنه رحلة (حتشبسوت) الشهيرة إلى بلاد بونت لم تكن إلا رحلة إلى الأرض المقدسة في فلسطين (أورشليم) حيث جاء في كلمات عن الإله آمون يعود تاريخها إلى عصر (أمينحتب الثالث) في أواخر الأسرة الثامنة عشرة :

* حينما أولي وجهي إلى مشرق الشمس فإني أولي وجهي إلى بلاد بونت .

ومن ناحيتنا نقول - تفنيدياً لإدعاءات فلايكوفسكي - أن الملك (أمينحتب الثالث) قد حكم مصر من عاصمة مملكه في طيبة (الأقصر) والمشرق يكون حينئذ - باتجاه شبه الجزيرة العربية لا القدس (أورشليم) .

وفي دراسة لأحد علماء الحملة الفرنسية على مصر⁽⁸²⁾ يدعى (ديبوا - إيميه) جاء فيها (في محاولة منه للي الحقائق وتطويعها لأهداف معينة) :

إن قوة الشرائع والمؤسسات التي أقامها موسى (عليه السلام) هي التي يعزى إليها تلك الظاهرة السياسية التي جعلت الشعب اليهودي يحتفظ بعبادته وشرائعه ولغته وملامحه رغم أنه بات مشتتاً فوق الكرة الأرضية كلها خاضعاً لكل صنوف الحكومات لأن موسى (عليه السلام) قد قام بعزل شعبه وبشكل تام عن بقية البشر مما جعل فناءه مستحيلاً . إن اليهود منتصرين لم يستطيعوا أن يجعلوا من قوتهم أقوى من قوى الأمم التي أخضعوها كما

أنه عندما كانت تحقيق بهم الهزيمة فلم يكن بمقدورهم أن يختلطوا بالمنتصرين . وتعود غالبية النقائص التي تُعاب عليهم اليوم إلى حالة الإذلال على سبيلها في كل مكان . وكان أهم ما يقومون به حينئذ أن يشترخوا ، من سبوا . أما الذهب فقد بات هو الهدف الوحيد لطموحهم . وليست هناك شهوة تستطيع أن تتلف الإنسان في جسده وروحه أكثر من حب الذهب . وقد يكون من غير المجدي أن نحاول أن نثبت أن عيوبهم هذه تعود إلى شرسهم وتنظيمهم حيث أن البلدان التي نحسن فيها الأفكار والفلسفات والديانة السمة من قدر اليهود ينهض بينهم - هناك - رجال فضلاء وأدباء متميزون . وعلينا ألا ننسى بصفة خاصة أن الأمة اليهودية أظهرت وسط المحن والالام خاصية عظيمة حيث أنه إذا كان العفو يُعد شرفا للقوة فإن المشاعر الرقيقة تكون شرفا للضعف . لقد تجرأت أورشليم على قتال روما التي كان يرتعد أمامها أعتى ملوك الأرض ثم أقام اليهود المهزمون في روما بأيديهم المكبل بالقيود الحديدية النصب الضخم وقوس (تيطوس) Titus الذي تخلد نقوشه البارزة ذكرى سقوط المدينة المقدسة وتلك المهانة (دمر الامبراطور الروماني تيطوس أورشليم عام 70 م) .

وعن (نشأة اليهود) يقول (ديوا - إيميه)⁽⁸³⁾ :

على الرغم من التناقضات التي يعتقد بعض النقاد أنهم قد وجدوها في أسفار موسى الخمسة وعلى الرغم من اختلاف آرائهم حول زمن نشرها فإن الجميع مضطرون للاعتراف بأنها أقدم أثر مكتوب وصل إلينا . كما أنهم لا يستطيعون مهما تكن طبيعة آرائهم الدينية أن يرفضوا ما نجده في هذه الكتب من فائدة كبيرة ترتبط بالتاريخ لشعب كان رعويا جواباً ثم زراعياً

ثم جماعة من العبيد ثم عاد مرة أخرى إلى حالة التجوال ليصبح بعد ذلك غازيا .

[يلاحظ أن هذه الدراسة مكتوبة عام 1811 م وإيميه بصف الشعب اليهودي بأنه أصبح غازيا . فهل كان نشأته من الكاتب أم أن الكاتب بصفته من علماء الحملة الفرنسية على مصر يضم بأحد أهداف حملة الخفية لإيجاد وطن لليهود بفلسطين كما جاء نشأته على لسان نابليون قائد الحملة وقتها] .

لقد تولدت أحقاد واضحة وحروب دائمة بين الشعوب الرعوية والزراعية لأن الانسان كان صياداً وراعياً قبل أن يكون مزارعاً والأحقاد المتبادلة بين الفئتين (احتقار الزراعيين لجهل الرعاة وبدائيتهم دفع الرعاة للرد بقوة الساعد التي افتقدها المزارع) . فلقد سكنت قبائل العبرانيين بلاد ما بين النهرين وسوريا والجزيرة العربية وصحراوات مصر . وهناك نشأت ديانات التوحيد . أما في الأقاليم الزراعية مثل ضفاف الأنهار (مثل نهري روفيا وسيفيزا في اليونان) فقد عبد الانسان الطبيعة (منيرفا وأبو للو) .

وإبراهيم أو إبرام (إبراهيم ~~الشيخ~~) هو الذي بشر بوجود إله واحد ليجعل عبادته محل عبادة النجوم . وكان العبرانيون ينظرون إلى (إبراهيم) باعتباره زعيماً لجنسهم . ويتطابق تاريخ إبراهيم كما قرأنا في كتابات العبرانيين في غاطه الأساسية مع كتابات المؤلفين العرب [يدعى الكاتب أن القرآن من تأليف العرب] . ويستمد العبرانيون اسمهم من (عابر) أحد أجداد (إبراهيم) وقد تركوا أرض كلدان كي يمضوا إلى منطقة من أرض ما بين النهرين التابعة لسوريا . وكانوا وقتئذ وثنيين . وكان (تارح) والد (إبراهيم) من (ناحور) و (آران) على رأس قبائلهم . وعند

موت (تارح) انقسم القوم فظل بعضهم فيما بين النهرين تحت حكم (ناحور) وواصل الآخرون مسيرتهم إلى ماوراء الفرات وهما (إبراهيم) و (لوط) ولدا (آران). وتكرر حدوث انقسامات مماثلة عند الشعوب الرحل بسبب الديانة الجديدة التى بشر بها (إبراهيم) وهى ديانة لم يتبناها أولئك العبرانيون الذين ظلوا فى بلاد ما بين النهرين (كما يشير إلى ذلك سفر التكوين). وانفصل (إبراهيم) عن ابن أخيه حتى يستجيب لوحي مقدس. ولكى يحافظ (إبراهيم) على عقيدته وينأى بها عن اضطهادات الوثنيين فقد انسحب إلى جوف الصحراء وتقدم فى البداية نحو الجنوب عبر أرض السوريين وبعد ذلك دخل مصر ثم عاد إلى سوريا وهناك انفصل عن ابن أخيه (لوط) ثم عاد وانتزعه بعد ذلك من أيدي أعداءه. واستطاع (إبراهيم) بإتحاده مع ثلاثة من مشايخ الصحراء (عائر وأشكول وممرا الأمورى) أن يفاجئ الآخرين ويلحق بهم الهزيمة (رؤساء شنعار وعيلام والأسار وجوبيم الذين شنوا الحرب على ملوك سدوم وعمورة وأدمة وصوبيم وبالع أو صوغر). وبعد أن خلص إبراهيم لوطاً ذهب إلى أرض (أبيمالك) ملك فلسطين وقدم إليه ثيراناً ومعيذاً فسمح لهم بالإقامة. وقد أنجب (إبراهيم) إسماعيل وإسحاق. وقد أصبح (إسماعيل) بفعل جسارته زعيماً لقبائل عديدة تشكل اليوم الأمة العربية. أما (إسحاق) فقد أعقب والده وتحيل جولاته وحروبه وتحالفاته وسيرة حياته إلى الوجود الخاص والسياسى لزعيم من زعماء البدو. وبعد موت (إسحاق) انفصل ولداه (يعقوب) و (عيسو) أو عيساو. وتسمت القبائل التى اتبعت (عيسو) باسم الأدوميين أما يعقوب فقد استحوذ على الجزء الأكبر من ميراث أبيه وتسمى الرعاة الذين ظلوا محيطين به بشكل نهائى باسم العبرانيين أو الإسرائيليين. وكان ليعقوب إثنا عشر ولدا أشهرهم (يوسف) وفيما بعد أصبحت أسماء

ولديه وأخوته تشير إلى أسباط بني إسرائيل . وكان (يعقوب) قد أصبح شيخاً كبيراً حين ألجأته المجاعة إلى ترك ضواحي سر سبع والذهاب إلى مصر حيث حصل من فرعون على إذن بأن يسفر في أرض جاسان (وادي طميلات بالشرقية) . وكانت أسرة الملوك الرعاة (نهكسوس) تشغل في ذلك الوقت عرش مصر . ويدعى (إيميه) أن معاملة المصريين كانت سيئة مع الأجانب ولولا وجود الهكسوس بمصر لما استطاع يعقوب وأهله الدخول والبقاء بمصر . وبعد طرد الهكسوس (الرعاة) العرب كما يقول إيميه (الذين آووا العبرانيين بسبب أصلهم المشترك وتطابق عاداتهم وتقاليدهم فقد انسحب عليهم ماكان يكنه المصريون من أحقاد نحو هؤلاء الرعاة .

ويسوق إيميه بعض الخواطر والافتراضات المعروضة فيقول ^(٢٠) :

* لم يكن الرعاة الذين فتحوا مصر (الهكسوس) يتعلقون ببلد أكثر مما يتعلقون بآخر فقد كانوا رحلاً ومقاتلين . وسرعان ما قدر عليهم أن يعملوا بالملاحة على طريقة العرب الذين حملوا معهم إلى أسبانيا في القرن الثامن الميلادي الفنون والعلوم [يقصد فتح الأندلس] .

* إن الذين نقلوا إلى اليونان (الإغريق) فنون مصر هم هؤلاء الرعاة (نفس رأى فريرييه Freret) وإن كان ذلك لا يسلب عن مصر العليمة مجد أنها أمدت اليونان بالبذور الأولى لحضارتهم التي تطورت بعد ذلك .

* إن التباهج التي تمتع بها المصريون في عهد (رعمسيس الثاني) تحول دون أن تتسب لعهد الكوارث التي حربت المملكة وأدت إلى تخليص شعب الله (اليهود) [يقصد الابتلاءات التي نزلت بمصر تأييداً من الله لموسى (عليه السلام)] ورسمه .

*يعتقد (إيميه) أن (مرنبتاح) كان أميرا ضعيفا يؤمن بالخرافات وقاسيا .
وفى عهده فاض النهر بدرجة عظيمة ودمر القرى والحقول وأفرغت
العواصف والأعاصير والسيول الشعب وكانت هذه العلامات تنذر بغصب
السماء وأن عملية الهروب (الخروج) للعبرانيين لابد وأن تكون قد تمت فى
عهده .

*الرجال العظماء (أمثال موسى (عليه السلام) ومحمد (ﷺ) ونوم (85)
وليكوج (86) ومانكوكاباكا (87) كان يفيدون من ظواهر الطبيعة المعروفة لهم
جيدا كي يحيطون أنفسهم بالمهابة والقداصة وإدعاء المهارة أكثر من عامة
الناس [يخلط إيميه ويزج بأسماء أنبياء الله مثل موسى ومحمد (ﷺ)
ويضعهم فى سلة واحدة مع آخرين لاقداسة لهم ويدعى أنهما مهرة وحاذقين
فى اقناع شعوبهم بأن التشريعات التى يبلغونها لقومهم هى من عند الله برغم
أنه يلزم ويفترض أن تلك التشريعات من عند أنفسهم] .

*فى مقارنة غير مطلوبة ولا مرغوبة يقول إيميه أن فتوحات محمد (ﷺ)
وخلفائه (الفتوحات الإسلامية) تمت فى ظروف تكاد تكون متشابهة مع
ظروف موسى (عليه السلام) وفتوحات خلفائه رغم أن فتوحات اليهود من ناحية
الاتساع والأهمية لا تقارن بالفتوحات الإسلامية لأن (موسى) كان . كما
يدعى - يجابه فى زمنه أمما وشعوبا مخرسة بالقتال تشغل أرض سوريا
وفارس ومصر وبلاد العرب . أما عند ظهور (محمد) (ﷺ) فقد كانت -
كما يدعى - الامبراطورية الرومانية العملاقة وكذلك امبراطورية فارس قد
بليتتا من القدم بعدما اقتسما العالم وكانت الشعوب التى أخضعها هؤلاء تظن
أنها تحطم أغلالها بانتقالها من سيطرة سيد قديم إلى أيدى سادة جدد
[يحاول إيميه بذلك أن يزيغ التاريخ ونوابته بادعاء البطولة المطلقة لكل ما

هو إسرائيلي وتسفيه فتوحات المسلمين العرب مدعيا ضعف الامبراطوريتين المعاصرتين الروم والفرس [.

* اضطر موسى (عليه السلام) أن يوحى إلى قومه بالهلع من الأجانب كي يخلق من العبيد دولة متماسكة . وهو شعور ظلوا يحملونه بين جوانحهم طويلا . ولذا لم يعطون إلا للجيل العاشر من المتهودين الجدد الحق في دخول جماعة "رب .

* حين شعر موسى بأن قواه تخور وأن أجله قد قرب شاء أن يجعل من موته أمرا مفيدا في تحقيق مآربه فأعلن للشعب أن الرب قد رفض أن يدخله الأرض الموعودة لأنه قد شك مرة واحدة . واحدة فقط في قدرته (سبحانه)⁽⁸⁸⁾ وأعلن باسم الرب الخالد أن يشوع (يوشع بن نون) قد صار خليفة له ثم صعد (موسى) جبال عباريم ونبو وأشار بيده للعبرانيين إلى الأرض التي سيكافئهم بها الرب جزاء فضائلهم ولا سيما عقيدتهم الدينية .

ولإعادة ضبط ميزان تجاوزات الفرنسي (إيميه) وادعاءاته بأخذنا الفرنسي أيضا (د. جوستاف لوبون)⁽⁸⁹⁾ في دراسته عن اليهود مصححا لكثير من المعلومات وموضحا الحقائق فيقول عن اليهود :

لم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أى شئ تقوم به حضارة . واليهود لم يأتوا قط بأية مساعدة مهما صغرت في شيد المعارف البشرية ولم يجاوزوا قط مرحلة الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ .

ويشير (لوبون) إلى مسيو (رينان) الذي يقول بدوره أن النظام اليهودي بأسره ليس إلا وجها بسيطا للنظام الكلداني وأن أساطير البابليين المعقدة لم ينتحلها عالم الغرب المتمدن إلا بعد أن تحولت بمرورها من خارج

والإسلام يُعد هو الدين الوحيد الوثيق التوحيد الذى جاء به الساميون وهو الدين الوحيد الخالى من أى أثر لوثن. فهو يرفض الأنصاب رفضاً تاماً. ولم يجل بنو إسرائيل فى البحر كما كان يجول جيرانهم الفينيقيون . وهم لم يملكوا من الساحل الطويل زمن سوى القسم الممتد من يافا إلى رأس الكرمل وهناك يقع سهل شارون الذى تمتد مروجته وحصائده إلى البحر . وكانت فلسطين إحدى طرق العالم القديم الرئيسية كبابل . وكانت (مجدو) مفتاح أودية الجنوب و (قادش) مفتاحها فى الشمال . وبنو إسرائيل إذ كانوا عاطلين من أى فن وعلم وصناعة وهم إذ لم يزاووا التجارة إلا كوسطاء وجهوا عنايتهم إلى حقولهم وإلى مواشيهم . وتجد كتبهم المقدسة حافلة بالنعوت الرعائية وبالمقاييسات والأمثلة المقتبسة من حياة الفلاحين والرعاة . ولم تكن أرض الميعاد - فلسطين - غير بيئة مختلفة لبنى إسرائيل فالبادية كانت الوطن الحقيقى لهم . وتاريخ اليهود الحقيقى لا يبدأ إلا فى عهد ملوكهم. وكانوا أقل من أمة حتى زمن (شاول) . فقد كانوا أخطأ من عصابات جامحة ومجموعة غير منسجمة من قبائل سامية صغيرة تقوم حياتها على الغزو وانتهاب القرى الصغيرة .

ويشير (د. لوبون)⁽⁹¹⁾ إلى أن :

بنى إسرائيل حين فروا من ظلم فرعون وعبروا البحر فإنما لحق بهم عدد من المصريين الساخطين ومن الأسارى ومن العبيد المتمردين . وبعد نجاتهم - من فرعون - كانوا يصرون على أنهم شعب واحد ينتمى إلى نسل رجل واحد .

والحقيقة تكمن فى انتحال جميع الفارين لإسم بنى إسرائيل .

ولما كانت أرض سيناء فقيرة جدية لم تصلح لإعاشة أهل البدو أيضا فقد توجه بنو إسرائيل إلى الشمال وحاولوا دخول أراضي الشعوب الكنعانية الصغيرة . ولما دنوا من هذه الأراضي بهزم خصبها فاشتعلت نيران الحسد والحقد في قلوبهم . وتحول العبريون من أناس بدويين إلى أناس حضريين عندما رسخت أقدامهم في تلك الأراضي التي كانت محط أحلامهم . ولم يكن هناك فتح بالمعنى الصحيح على الرغم من أقاصيص مؤرخيهم المملوءة انتفاخا غير أن استقرارهم بفلسطين تم بالتدريج . فالعبريون قضوا زمنا طويلا ليكون لهم سلطان ضئيل في فلسطين لا أن يكونوا سادتها . والعبريون كانوا منقسمين كالكنعانيين إلى عدة عشائر تسمى أبناء يعقوب أو الأسباط . وقتالهم الجزئي كان بجماعات صغيرة تستولى كل منهم على قطعة من الأراضي (عصر القضاة) وذلك العصر كان يعتبره العبريون عهد بطولية تاريخية . وكان في فلسطين يعيش اليبوسيون والعصموونيون وطائفة من الأمم الصغيرة بجانب بني إسرائيل . وكان السلطان في تلك البقاع للفلسطينيين (أقوام البحر أو الفلست) وإذا كان خروج العبرانيين من مصر قد حدث قبل الميلاد بنحو خمسة عشر قرناً فهم لم يفكروا في تأليف أمة واحدة منهم ولم ينصبوا ملكاً عليهم إلا في أوائل القرن الحادي عشر ق.م وأولئك القضاة لم يستطيعوا بسط سلطانهم على جميع بني إسرائيل بل كان كل واحد منهم يتسلم قيادة زمرة واحدة من الإسرائيليين واستمر أولئك القضاة مدة أربعة قرون . و(شاول) بدأ بنو إسرائيل يؤلفون أمة فاستحقوا أن تفتح لهم صفحة صغيرة من التاريخ . وخلفه داود الذي أقام عاصمة ملكه في أورشليم بعد طرد اليبوسيين منها . واقتطف سليمان ملك أبيه داود حيث بلغ مصير الشعب اليهودي ذروته في عهده . ولما مات كان الانقسام والفوضى . وأقام سليمان هيكلًا للرب . وكان ماهراً في ربط شعبه بروابط المحالفات فتزوج

من إحدى بنات ملك مصر وارتبط مع ملك صور (حيرام) بصلات الصداقة والتجارة وشيد مدينة (تدمر) . أما مملكة الأسباط العشرة التي أقامها إبنه (يربعام) متخذاً شكيم ثم السامرة عاصمة لها فقد كانت مسرحاً لأفظع الفجائع . وعندما حلت سنة 721 ق.م هدم ملك نينوى الآشوري (سرجون) مملكة السامرة . وكان سقوط نينوى بعد ذلك سبباً في تأخير سقوط أورشليم . بيد أن ملوك يهودا في الجنوب أثاروا غضب البابلي (نبوخذ نصر) بمخالفتهم لفرعون مصر . فاستولى الملك البابلي على أورشليم في عام 586 ق.م . وجعل عاليها سافلها وهدم هيكلها وجعل اليهود أسارى فغدت أورشليم أثراً بعد عين . ومن العيب أن أصدر (كورش) ملك فارس مرسوماً أذن فيه للعبريين في العودة إلى فلسطين وإعادة بناء مدنها وهيكلهم ثم تلا ذلك سط الإغريق والرومان لسلطانهم على تلك المملكة الهزيلة ففي عام 70 م استولى (تيتوس) الملك الروماني على أورشليم وجعلها طعمة للنيران وشتت شمل اليهود . ويعرف عن اليهود وحشيتهم التي لا أثر فيها للرحمة مع أعدائهم (انظر نصوص سفر الملوك وسفر يشوع) .

وعن حياتهم الاجتماعية يقول د. لوبون (91) :

كانت كثرة الذرية مطلوبة وكان عقم المرأة يُعد عاراً وإذا مات الرجل عقيماً تزوج أخوه الأصغر بأرملته وصلاً لنسبه (كما جاء في التوراة) . وكان مبدأ تعدد الزوجات شائعاً بينهم على الدوام والبنكارة كانت أمراً معتبراً لديهم . ومن يغتصب فتاة يحمل على تجهيزها والزواج منها ولا يتم طردها أبداً . وإذا اغتصبت فتاة مخطوبة كان ذلك عملاً مساوياً لزنا الزوج فيقتل مغتصبها وترجم الفتاة لأنها لم تستغث بأحد . وتبرأ إذا وقع الحرم في البرية لاستحالة سماع صوت استغاثتها . ويعتبر زنا الأزواج جرماً فضيعاً يُعاقب

مرتكبه بالقتل (الرجم) والمقصود هنا زنا المرأة لا الرجل لأن الرجل يمكنه الزواج بأكثر من واحدة شرعيا وغير شرعي (عُرْفِي) . وسفاح ذوى القربى والمحارم واللواط والمساخقة ومواقعة البهائم من أكثر الآثام الشائعة فى الشعب فعَدَّتْ ضروب البغاء تكريماً لعشترت وعُدَّ الانهماك فى فى السكر تحت شجر الزيتون فى الليالى الرطبية نوعا من طقوس العبادة رغم غضب الأنبياء لتلك الأمور . وللنساء حق الميراث ولكم فى الأسيرة حق الاحترام كالأب وكان الموت جزاء من يضرب أباه أو أمه . والاعتداء على المال يعد ذنبا عظيما يجازى مقتطفه برد ضعفي قيمة المال المسروق أو أكثر (قد يصل سبعة أمثال) . والنظافة هى الترف الأول الذى حاول المشترون شره بين بنى إسرائيل . وكان اليهود على خلاف معظم الشرقيين يخشون الموت .

وعن ديانة اليهود يقول د. لوبون⁽⁹²⁾ :

لم يقتبس اليهود من مصر سوى جزئيات ظاهرية مثل صدره الأحبار وتابوت العهد أو الناووس السهل النقل . وفرعون مصر الذى كان يساوى الآلهة فى الديانة المصرية القديمة هو الذى يحق له وحده فتح الناووس وأن يرى شعار المرهوب الحافل بالأسرار . وفى اليهودية كان يحق للحبر الأعظم وحده أن يدخل مرة واحدة فى العام قدس الأقداس حيث تابوت العهد . و (إلهيم) هو الاسم الذى نراه قد أطلق على الألوهية فى أقدم أسفار اليهود . وعبد اليهود عجولا معدنية بعد خروجهم من مصر بطويل زمن لارتوائهم من مبادئ ما بين النهرين الدينية وكانت ذكرى عجل أبيس فى أذهانهم وإن كان العجل (بعل) يرمز إلى الرجولة وكان منتشرا فى جميع آسيا . وفى وادى الفرات نشأت ديانة بنى إسرائيل أو على الأصح

مختلف العبادات التي مارسها اليهود (بين إقامتهم بفلسطين وعودتهم من الأسر البابلي) . وعبد اليهود (بعل) وعشيرا أو (عشتروت) نقلا عن البابليين . وهركول (هرقل) من أصل بابلي ويتجلى مثاله في (نينيب) المعروف الذي كان يقتل الأسد بيد واحدة . ومر الأقاصيص التي انتحلها بنو إسرائيل طوعا قصة (تموز) الإلهي ابن عشتار الذي ذهب الآلهة لتبحث عنه حتى سواء الجحيم . وكان يمثل موت (تموز) الذي غدا (أدونيس) الإغريق نهاية الخريف . ومما رواه (حزقيال) أنه كان في زمانه نساء يبكين تموز في معبد الرب .

وأسفر الإصلاح اليهوهي (نسبة إلى يهوه) الذي قام به الملك (يوشيا) عن تطهير الهيكل من الأصنام مثل (مولك) إله النار الضار . أي الصاعقة و (بعل) الذي كان يعبد الفينيقيون والتي أدخلته (إيزابيل) الصيدونية (من صيدا أو صيدون) إلى العبريين . و (عشيرا) وهي عشتار الفينيقيين وعشتار بابل أو ميليتا بابل حيث الشعائر الشهوانية .

وقد وصف الأنبياء إشعيا وإرميا وحزقيال وأورشليم بالمدينة العاهرة التي لا تشبع من الفجور .

والموت لدى بني إسرائيل هو نوم عميق بلايقظة . والبعث والحياة الآخرة سكنت عنها أسفار التوراة تقريبا . ومما لا ريب فيه ، حود ثغرة عدة قرون لا تسدها الوثائق (المرويات أو الكنائس) التوراتية . وفي الأسفار التوراتية تبصر التاريخ والأساطير والتفصيل الخيالية والقصة الرعائية والقطع الروائية والنبد التعليمية والأنشيد الدينية والأغاني الحرية والقصائد الغزلية والمجموعات الحكيمية والنسبية والشرعية . وأهم الأسفار التاريخية هي أسفار القضاة والأخبار وأستير وحميا والمكابيين . أما أسفار موسى

الخمسة فتتألف من أساطير كلدانية ومن عدة قوانين دقيقة ترجع إلى زمن أحدث من الزمن الذى وصف فى سفر التكوين والخروج وكتبت تلك الأسفار الخمسة فى عهد الملوك وجميع الأسفار لم تكتب لحفظ ذكرى الوقائع فقط بل كانت غايتها إثبات شيء . وجميعها إذا وضعت بصيغة الجزم بدا حسن النية فيها هزيلا . وماتركه العبريون لنا من تاريخهم فقد دونه أحبار ملكيون كانوا يهدفون إلى نصر مبدأ الحكومة الملكية الإلهية .

وكتاب اليهود الذين كتبوا التوراة لم يكونوا مؤرخين صادقين ولكنهم كانوا وصافين أوفياء وصفوا وثنية بنى إسرائيل المتأصلة فيهم وطباعهم الرعائية (الرعوية) وسلاسل الأنساب التى لا حد لها وسمات الأخلاق الهاجئة .

وإذا كان الأساس كلدانياً فإن شكل الوصف عبرى . ومن الطرافة أن ينتج اليهود أدبا خفيفة ذات عفاف على الرغم من تحللهم الأخلاقى . وما عندهم من أخبار الدعارة تجده فى تاريخهم الخاص لا فى كتبهم التى هى وليدة الخيال الخالص . وسفر (نشيد الإنشاد) هو أكثر أسفارهم شهوانية وفيه أيضا الشعر الغرامى السامى . والأمثال وتتواعتها نراها فى سفر الأمثال ، سفر الجامعة وسفر الحكمة . وفى تلك الأمثال نبصر فكر بنى إسرائيل الحقيقى وهو الفكر النفعى العملى وهو الذى سيطر على شعب إسرائيل منذ دور الفتح . فأصبح الشعب ماهراً طامعاً وجشعاً فى الربح وضيقاً فى آفاقه غير مستعد للتضحية . فذكر فى سفر الجامعة أنه إذا لم تقتطف فى هذه نحياء الدنيا ثمرة آثارك فإنك ستتركها ميراثاً للأجيال القادمة .

إن الوهم التقى فى سِفَر أيوب والوهم الشهوانى فى سِفَر الجامعة قد اقتسما الناس لتعليقهم بالباطل إن لم يكن لشفانهم . ولا يزال العالم منقسماً إلى اليوم بين المثاليين والشهوانيين الباحثين عن المتع . ولم يكن أنبياء اليهود منصفين أبداً نحو بابل (العراق) بل يتوعدونها بالخراب والترمل والتكل [كما نلاحظ ذلك فى عصرنا الحالى تجاه ما يحدث للعراق منذ عام 1991 م] .

و عن نظريات (نشوء إسرائيل) يبين لنا (فراس السواح)⁽⁹³⁾ الكاتب السورى أنها أربعة :

(1) نظرية آلت فى التسرب السلمى : Albrecht Alt

حيث نشر الباحث الالماني (البريخت آلت) بحثاً ابتدأه بدراسة لأصل إسرائيل من عصر القضاة حيث اعتبر أن ما قبل ذلك من المرويات التوراتية هى عنده من الألب الخيالى التى تمت صياغته فى الفترة المتأخرة بهدف خلق أصول متجذرة لإسرائيل وديانتها فى الماضى البعيد . وقد لاحظ آلت أن الهضاب المركزية لفلسطين كانت شبه خالية من السكان خلال العصر البرونزى الأخير (خصوصاً منذ فترة تل العمارنة 1350 ق.م) ولم تكن تحتوى إلا على عدد قليل جداً من القرى الصغيرة والمتباعدة . وكانت مدينة (شكيم) فى الشمال هى المدينة الوحيدة المهمة فيما بين (أورشليم) جنوباً و (وادى يزارعيل) فى الشمال . وقد بقى وضع الهضاب المركزية على هذه الحالة حتى عام 1250 ق.م عندما بدأ مسرح الحدث التوراتى بالتوضح فى هذه الرقعة . وهذا الذى توصل إليه (آلت) قد أثبتته المسح الأركيولوجى (الأثرى والحفرى) للهضاب المركزية بعد أكثر من نصف قرن على ظهور دراسة آلت عام 1925 م . ويعتقد (آلت) أن الجماعات التى شغلت الهضاب المركزية كانت عبارة عن عشائر بدوية من أصول

مختلفة أخذت بالتسرب تدريجياً إلى هذه المنطقة وعلى فترات متقطعة ومتباعدة تسوق قطعانها الصغيرة عبر نهر الأردن باحثة عن مراعي جديدة في أرض كنعان . وكان هؤلاء الرعاة يتوقفون خلال الشتاء والربيع عند أطراف المناطق الزراعية فإذا ببست الأعشاب صيفاً أخذوا بالتوغل أكثر فأكثر نحو المناطق الزراعية من أجل رعي القش المتبقى بعد الحصاد وذلك بالاتفاق مع أصحاب الحقول الذين يدخلون معهم في علاقات منافع متبادلة . وشيئاً فشيئاً وجدت بعض هذه العشائر أماكن مناسبة لإقامتهم في المناطق الخالية العاصلة بين دويلات المدن الكنعانية والبعيدة عن نفوذ المراكز السياسية الهامة وعرى النفوذ المصرى فى وادى يزراعى فتوطنوا هناك وأخذوا بالاستقرار والزراعة دون أن يسببوا تهديداً أو مخاوف لأى فريق . ثم أخذت هذه العشائر المسالمة والمتباعدة عن بعض بالتقارب بعد فترة الاستقرار ومن المرجح أن عبادة واحدة نشأت بينها تدريجياً وتركزت طوقسها حول مقام مقدس أو مذهب مشترك . وفى أواخر عصر القضاة وقع الصدام العسكرى مع الكنعانيين على شكل حروب محلية محدودة . وهى التى أدت فيما بعد إلى نشوء تقليد الفتح العسكرى واكتساب كنعان بالقوة (مما يذكره سفر يشوع) ثم تتادت هذه الجماعات بعد أن أحست بوحدة مصالحها إلى إقامة المملكة الموحدة التى بدأت بحكم الملك (شاؤل) .

وهذه النظرية تختلف عما افترضه (أولبرايت) الذى اهتم بزرع جذور إسرائيل فى التربة الأوسع نغافة الشرق القديم . ومصطلح كنعان وصفة كنعانى عند (آلت) استخدمه للدلالة على دويلات امن الفلسطينية وما يتعلق بها خلال عصر البرونز الأخير وهى دويلات زراعية يحكمها ملوك متسلطون ومرتبطة ثقافياً بالعالم السورى وذات ديانة غليدية وثنية . أما مصطلح إسرائيل وصفة إسرائيلى فهو مفهوم تجرىدى عند آلت استمده

من نفى كل ما هو كنعانى . وهو يشير إلى ثقافة قَبَلية ورعوية بدوية ومعتقد دينى توحيدى ونظام حكم بدائى ديمقراطى . وعصر البرونز الأخير هو عصر كنعانى ويدل على كامل فلسطين قبل وصول الإسرائيليين . أما ما تسمّى من عصر الحديد فإسرائيل أو فلسطين فى طريقها لأن تغدو إسرائيل .

(2) نظرية الانتفاضة الداخلية :

يرفض (ميندنهل) Mendenhall من حيث الأساس نظرية الأصل الخارجى الرعوى للجماعات الإسرائيلية التى تسربت إلى المناطق الهضبية بحثاً عن المراعى . وهو يرى أن الجماعات التى شكلت إسرائيل فيما بعد هى شرائح فلاحية كنعانية لجأت إلى الثورة فى وجه حكام ودويلات المدن الطغاة . وأن خميرة هذه الحركة الثورية . كانت جماعة أبقة من العبودية فى مصر جاءت معها بعبادة (يَهُوه) التى تبنتها الجماعات الفلاحية الثائرة .

ويعقد (مندنهل) صلة بين (عبران) عصر الحديد الذين استهلوا هذه الثورة و (عابيرو) عصر تل العمارنة فى عصر البرونز الأخير . فالعابيرو والعبرانى عنده متعادلان . والكلمة تدل على تلك الشرائح الاجتماعية المحرومة فى مجتمعات الشرق القديم التى لجأت إلى التمرد والعصيان بسبب وضعها العام - على النظام الفاسد لدولة المدنية الكنعانية .

أما الباحث جوتوالد (Gott Wald) فقد تبنى نظرية مندنهل فى الانتفاضة الداخلية (الثورة) مع بعض التعديلات التى تعتمد على الأفكار الماركسية . فيقول أن الانتفاضة كانت طبقية (بالمفهوم الماركسى) لا ثورة

حيث تدبر الدويلات الكنعانية أرسنقراطية نبيلة تعمل على استغلال وقمع الشرائح الاجتماعية المحرومة .

(3) نظرية بوتقة الانصهار :

توصل الباحث (ماكسويل ميللر M.Miller) إلى أن اسم إسرائيل الوارد في نصّب الفرعون (مرنبتاح) يشير إلى تجمع لثلاث قبائل كنعانية في منطقة الهضاب المركزية هي أفرايم ومنسى وبنيامين . وكانت (أفرايم) هي القبيلة الرائدة في هذا المجتمع الذي ضم فيما بعد قبيلة (جلعاد) في عبر الأردن . ثم أخذ هذا التجمع في التوسع تدريجيا حتى بلغ عشر قبائل وهي التي دعته القاضيّة (دبورة) إلى القتال معها ضد (بايين) ملك حاصور^(٩٤) . ومع انتقال الحكم إلى الملك (داود) توسع الاتحاد القبلي ليشمل اثنتي عشرة قبيلة بينها قبيلة يهوذا الجنوبية . ويقول (ميللر) إن إسرائيل كمفهوم إثنى وسياسي قد نجمت عن بوتقة انصهار ضمت جماعات مختلفة ومتنوعة استغرق تقاربها واندماجها فترة طويلة من الزمن في عملية أكثر تعقيدا بكثير من الرواية التوراتية البسيطة التي يعرضها سفر يشوع أو سفر القضاة .

ووجد الباحث ليمخى (ليمشى) Lemche بعد دراسة نتائج علم الآثار أن هناك استمرارية ثقافية بين عصرى البرونز الأخير والحديد وهي ثقافة كنعانية محلية لا انقطاع فيها ولا فجوات ومن هنا فإن إطلاق صفة كنعاني على عصر البرونز وصفة إسرائيلي على عصر الحديد ليس له ما يبرره على الإطلاق . وثنائية كنعان - إسرائيل لا تقوم على أساس أركيولوجي وتاريخي حقيقي . ويرى (ليمخى) أن بعض الشرائح الاجتماعية المحرومة في مناطق السهول قد أخذت بالنزوح تدريجيا نحو الهضاب المركزية منذ عصر

البرونز الأخير وبشكل خاص بعد فترة تل العمارنة وأخذت بتشكيل وحدات سياسية بدائية ترابطت شيئاً فشيئاً بسبب عزلتها عن طرق التجارة المحلية والدولية وشكلت إسرائيل .

(4) نظرية الأركيولوجية الحديثة :

وهي بمثابة الصياغة العلمية لنظرية التهرب السلمي ونظرية بوتقة الانصهار وتمت صياغتها على يد الأرشيبوشوفيتش الإسرائيلي المحدثين بشكل رئيسي مدفوعين بنظرية التهرب السلمي والتسرب التدريجي . وأراد أصحاب تلك النظرية الحديثة انقاذ ما تبقى من السمعة التاريخية للرواية التوراتية عن طريق إثبات جوهر الرواية و سقطات جميع تفاصيلها .

وكان لكل من الباحث الإسرائيلي الأركيولوجي (فنكلشتين) Finekelestein والمنقب الإسرائيلي (زرتال) Adam Zertal دور كبير في إثبات تلك النظرية - غير أن الباحث (توماس ل . طوماسون) Thomas L. Tompson (95) قدم لنا المادة العلمية المستقلة عن مرويات التوراة تماماً (96) .

وعلى هذا فقد سقطت إلى غير رجعة نظرية الاقتحام العسكري لأرض كنعان من قبل القبائل الإسرائيلية الموحدة تحت قيادة يشوع بن نون وتدمير مدنها الرئيسية لأن نتائج التنقيب الأثرى في هذه المواقع تنفي تماماً الرواية التوراتية و تمسح الأركيولوجي للمناطق الهضبية التي كانت نواة هذه المملكة ينفي وجود عدة سكانية واقتصادية في هذه المناطق خلال القرن العاشر ق.م تسمح بعام مثل هذه المملكة . والتنقيب الأثرى في موقع أورشليم

* (سبق الإشارة إليه في الفصل الأول) انظر هامش (59، 60) .

ذاتها والذي أظهر أن مدينة أورشليم فى القرن العاشر ق.م لم تكن إلا بلداً صغيراً جداً بالإضافة إلى عدم العثور على أى شاهد أثرى على وجود أبنية ضخمة أو صروح مدنية وإدارية والهيكل الذى بناه سليمان كان محدود المساحة وليس كما يقولون أنه كان يربو على مساحة أورشليم ذاتها .

وعن نهاية مملكة إسرائيل (الشمالية) يقول (فراس السواح)⁽⁹⁶⁾ أنه حتى الحملة الآشورية الأخيرة على دمشق عام 773 ق.م إبان حكم الملك (حديانو) لم تكن مملكة يهوذا قد تشكلت ككيان واضح فى فلسطين . ولم تكن مدينة أورشليم قد دخلت معترك السياسة الإقليمية والدولية على حد سواء والنصوص الآشورية لم تتجاهل فقط وجود مملكة يهوذا (فى الجنوب) فى فلسطين بل تجاهلت كلياً مدينة أورشليم وكأنها غير موجودة على الخارطة السياسية للمنطقة . وبدأت أورشليم تكتسب بالفعل ملامح المدينة الكبيرة ساعدها فى ذلك أقول نجم السامرة (مملكة الشمال - إسرائيل) ودمار (لخيش) على يد آشور فى عام 722 ق.م والتغيير الجذرى فى الوضع السياسى فى فلسطين الكبرى واستيعاب أورشليم لأفواج النازحين من مناطق التدمير الآشورى إبان عهد (تغلات فلاصر الثالث) و (صارغون الثانى) وهكذا ظهرت مملكة يهوذا بقيادة النخبة السياسية والاقتصادية فى مدينة أورشليم التى تحولت إلى مركز سياسى إقليمى كبير . وقد بدأت المدينة عهدها هذا كعميل لآشور ثم قادها التدخل المتزايد فى شئون التجارة الدولية إلى حتفها بعد قرن ونصف تقريباً من ظهورها على مسرح الأحداث . فقد عاقب (تغلات فلاصر) مملكة إسرائيل على وقوفها إلى جانب دمشق قبل هجومه الأخير عليها فسلب أراضيها الشمالية وعين عليها ملكاً جديداً يأتمر بأمره . وخلف (شلمنصر الخامس) عرش أبيه (تغلات) ثم خلفه (صارغون الثانى) الذى طبق سياسة التهجير الجماعى فى

إسرائيل فأزالها من الوجود ككيان سياسى وشعب (يلاحظ أن سفر الملوك الثانى يحدثنا عن دمار السامرة ويعزو ذلك إلى شلمنصر الخامس لا إلى صارغون الثانى الذى لم يرد ذكره فى سفر الملوك إطلاقاً) .

وبسقوط السامرة عام 721 ق.م انتهت مملكة إسرائيل ولم تقم لها قائمة بعد ذلك وبطل استعمال اسم إسرائيل وحل محله اسم السامرة للدلالة على المقاطعة الشمالية التى استمرت من العصر الآشورى إلى العصر الرومانى أما يهوذا فقد زالت ودمرت عام 587 ق.م على يد (نبوخذ نصر) البابلى .

والتاريخ اليهودى الذى ابتدأ مع بناء أورشليم الجديدة وهيكليها الجديد ليس استمراراً على أى صعيد للتاريخ الإسرائيلى فى العصر الآشورى والعصر البابلى رغم النغمة الإعلامية الفارسية التى تحدثت بلغة الإحياء والتجديد (قورش ثم داريوس) . إن ما تم إحيائه فى مقاطعة اليهودية لم يكن خلقاً جديداً لمجتمع قوامه فئات اجتماعية دخلت العصر الفارسى وقد تغيرت تماماً . وفى الحقيقة فإن مسألة السبى (النفى) لم تعد بالنسبة لجماعة أورشليم الجديدة واقعة تاريخية بقدر ما غدت فكرة وواقعة نفسية تساعد على فهم هذه الجماعة لنفسها باعتبارها البقية الناجية من إسرائيل . إن التاريخ اليهودى ليس صفحة جديدة فى تاريخ فلسطين بل تاريخ مستقل فى أصوله ومساره ومصانره .

وعن تاريخ القدس يقول (د. سيد فرج راشد) (١٩٧) :

القدس سكنها اليبوسيون واتخذوها عاصمة لها حوالى عام 3000 ق.م ومن ملوكهم (ملكى صادق) بمعنى العادل هــو (ملكى) وهو أول من خطط لبناء المدينة ثم قام بتحصينها وكان (ملكى صادق) معاصراً لإبراهيم (عليه السلام) ومن لبوسيين أيضاً (سالم اليبوسى) الذى بنى قلعة على جبل يقع فى الزاوية الغربية للدفاع عن القدس وهو الجبل الذى أطلق عليه (جبل صهيون) فى عهد داود (عليه السلام). والقدس تتبع أهميتها لكونها نفع على طريقين من أهم طرق التجارة القديمة وكان المصريون القدماء يطلقون عليها اسم (يابيتى) أو يابيتى . وأحياناً يستخدمون اسمها الكنعانى (أوروسالم) والكلمة آرامية (أور) بمعنى موضع أو مدينة و (سالم) بمعنى السلام وهو اسم وثنى لإله سلامة القوافل . وعندما استولى عليها داود (عليه السلام) أصبح اسمها (مدينة داود) (98) ثم أطلق عليه الاسم العبرى (يوروشاليم أو أورشالايم) . وقد وجد اسم القدس وارداً فى نقوش الامبراطور الآشورى (سنحاريب) حوالى عام 700 ق.م تحت مسمى (أوروسليمو) وفى عهد الاسكندر الأكبر سماها اليونانيون (هيروسوليميا) ثم (إيلياكابيتولينا) فى عهد الامبراطور الرومانى (إيليس هديران) أو هيدريانوس بعد أن قضى على الكيان الدينى لليهود وفى أعقاب ذلك أمر بقتل كل من يدخلها من اليهود وظلت تعرف باسم (إيليا) حتى أوائل الفتح الإسلامى . وسميت (القدس) منذ إقامة دور العبادة المقدسة فيها . و (هيرودوت) المؤرخ اليونانى من 484 - 425 ق.م ذكرها باسم (قديتس) وهو اسم محرف من الآرامية (قديشتا) أما (بيت المقدس) (99) فقد أطلق على المدينة منذ الفتح الإسلامى . ومن أسمائها (الزيتون) . ومن أسمائها العديدة ورد اسم (شاليم) (100) و (ييوس) (101) و (صهيون) (102) و (أريئيل) (103) و (موريا) (104) و (إيلياء) (105) أو (إيلياء العظمى)

و (أورشليم)⁽¹⁰⁶⁾ ووردت أسماء أخرى مصدرها اختلاف الترجمة منها :
دار السلام ، مدينة السلام ، قرية السلام ، شلم ، أورشليم ، ييوس ، شليم ،
يبوش سليمان⁽¹⁰⁷⁾.

وما جاء برسائل (نل العمارنة) السبع يؤكد أن مدينة أورشليم كانت
خاضعة لفرعون مصر (أمنتب الثالث) حوالى (1413 ق.م) وخضعت
لحكم (إخناتون) عام 1375 ق.م ثم (توت عنخ آمون 1351 ق.م) ثم
(سيتي الأول عام 1314 ق.م) ثم (لمربتاح) ابن رعسيس الثانى حوالى
1279 ق.م⁽¹⁰⁸⁾.

والتسمية الغربية Jerusslem فى اللغات اليونانية واللاتينية والألمانية
والفرنسية والإنجليزية وغيرها . اشتقت من الاسم الكنعانى وهو مدينة
(يوروسالم) أو (يورشالم)⁽¹⁰⁹⁾ وتحدثنا التوراة على أن (موسى) (ﷺ) قد
توفى وأرض الميعاد على مرمى بصره فتولى (يوشع بن نون) قيادة بنى
إسرائيل وعبروا نهر الأردن واحتلوا (أريحا) بعد تدميرها وكذلك فعلوا مع
مدن (عاي) و (الجلجال) و (شيلوح) وبقية المدن الكنعانية التى احتلوها
أثناء تقدمهم إلى (ييوس) أى القدس .

وقد ظلت المدينة المقدسة إلى عهد (داود) (ﷺ) مدينة
لليبوسيين (سكانها الأصليين) أكثر من ألفي عام قبل عهد موسى (ﷺ)
كما بقيت بأيدي أهلها ثلاثمائة عام أثناء الوجود اليهودى فى فلسطين ثم
بعد دخولهم إليها فى عهد داود ومما يؤيد ذلك أن (داود) (ﷺ) حينما
أراد بناء الهيكل للرب فى القدس قام بشراء البيدر (جرن ومربض للماشية)
الذى كان ملكا لرجل ييوسى يدعى (أرونا) ولذلك عاش اليهود أقلية بين
اليبوسيين حتى كان السبى البابلى عام 587 ق.م ومن المعروف أنه قبل

ظهور الملكية سياسيا (عهد سليمان) كان اليهود يعبدون الله فى أى مكان. (عبدوه مع موسى أربعين عاما فى التيه فى سيناء وليس فى بقعة معينة) فأينما كانوا كانت (خيمة الاجتماع) التى بها تابوت العهد (التوراة) وفيها يقيمون الصلاة . وبعد موسى وهارون وعلى مدى ثلاثمائة عام (عصرى يوشع بن نون والقضاة) كانت أماكن العبادة متفرقة أما فى عهد سليمان فقد كانت العبادة تقام فى المعبد (الهيكل) الذى شيده. ولعله من المفيد أن نقول أن الحرم الإسلامى الشريف قد أقيم فى نفس المنطقة التى كان (ملكى صادق) يدعو فيها باسم الله العلى فى زمن (إبراهيم) (عليه السلام) . وكان هذا الحرم أكبر من ضعف مساحة جبل الهيكل داخل أسوار (سليمان) أو (نحميا) أو (هيرودوس) والحرم مستطيل الشكل يأخذ الاتجاه من الشمال إلى الجنوب (فى اتجاه قبلة المسجد الحرام بمكة) على خلاف هيكل سليمان فهو مستطيل يأخذ الاتجاه من الغرب إلى الشرق وهذا ينفى أن الحرم القدسي الشريف أقيم مكان الهيكل⁽¹¹⁰⁾ . ومن اللافت للنظر أن اسم مدينة القدس لم يرد ذكره فى قائمة الكرنك للمدن التى استولى عليها (شيشنق) فرعون مصر عام (924 ق.م) . بينما نجده واضحا فى سرد العهد القديم لهذه الأحداث (سفر الملوك الأول 1 : 14 : 2 وسفر أخبار الأيام الثانى 12 : 2 : 4) وأصبح نتيجة لحملة شيشنق أن مملكتى يهوذا وإسرائيل أصبحتا تابعتين لمصر من جديد يدفعون الجزية كل عام .

وأتيح للفكر اليهودى الدينى من زمن السبى (النفى) البابلى أن يترك أن (يهوه) هو الإله الواحد للعالم كله . وأدرك الذين فى المنفى أن ماحل بهم من شقاء كان نتيجة مؤكدة لعدم اتباعهم شرائع (يهوه) . وتكاثر عدد الأنبياء بينهم فى الأسر البابلى الذى حرمهم من إقامة طقوس عبادتهم بصورة مكتملة

(عدم تقديم الفرائين وبعدهم عن الهيكل فى القدس) ولذلك غيروا فى طريقتهم لممارسة هذه الطقوس فاستبدلوا القربان بالصيام والصلاة وتغاضوا عن أداء طقوس السبت فى معظم الأحيان .

و عن أسماء اليهود يقول : (د. عبد الجليل شلبى)⁽¹¹¹⁾ :

توجد للشعب الإسرائيلى عدة أسماء ولكنها غير مترادفة ولكن قد يستعمل أى اسم منها لجميع نحوزاً وهذه الأسماء هى :

(1) العبرانيون (العبريون) :

وهم الذين جاءوا مع (إبراهيم) (عليه السلام) من بلاد الكلدانيين إلى أرض كنعان وسموا بذلك لأنهم عبروا نهر الفرات متجهين إلى كنعان أو لأنهم عبروا نهر الأردن فى تجولهم فى بلاد الكنعانيين . وتغزى التسمية فى (التوراة) إلى (عابر بن سام بن نوح) وقد فند بعض المستشرقين ذلك لأن (عابر) لم يكن أكر أبناء سام ولا جداً أدنى لإبراهيم .

(2) الإسرائيلون :

هم أبناء يعقوب الذى كنى بإسرائيل الذى نسل اثنى عشر إبناً (الأسباط) وبهذا يخرج من أسرة الإسرائيليين كثير من العبرانيين مثل (لوط) وذريته و (إسماعيل) ونسله و (عيسو) بن إسحاق . فهؤلاء عبرانيون وليسوا إسرائيليون .

(3) اليهود :

وينسبون إلى يهوذا الإبن الرابع ليعقوب وكانت له رسالة دينية نسبوا إليها . وقيل أنها نسبة إلى مملكة يهوذا (الإقليم الجنوبى) .

وصارت الرسالة الدينية بعد ذلك فى بنى لاوى (ليفى) ويعرفون باسم
(اللاويين) . ولاوى اسم الابن الثالث ليعقوب ومن هذه السلالة هارون أخى
(موسى) (عليه السلام) .

وهارون (عليه السلام) عند اليهود هو الزعيم الدينى . أما (موسى)
(عليه السلام) فهو القائد السياسى . ولذا انحصرت - كما يدعون - الرسالة
الدينية فى هارون ونسله .

وأصل العبرانيين أنهم شعب من الشعوب السامية التى انحدرت من
الجزيرة العربية التى هى مهد الساميين جميعاً . وقد انفصلت منها
موجات متتابعة فى أحقاب متتالية بحثاً عن الرزق والتماساً لأمكنة
أخصب وعيش أرغد . ومن هذه الأجناس الفينيقيون والآشوريون
والكلدانيون والآثوبيون (الكوشيون) وغيرهم . ولم تكن (أور) UR
مقرهم الأصلى ولكنهم نزحوا إليها من الجزيرة العربية وكانوا بدواً متقللين .
وكانوا قبيلة بدوية صغيرة فى الجنوب الشرقى من الجزيرة العربية وكانوا
يستعملون الحُمُر (الحمير) الأهلية فى تنقلهم دون الإبل أو الخيول (لم تكن
لهم اشتباكات أو حروب فاستغنوا عن الخيول ولم يجوبوا الصحارى والتراحم
على الفزاعى والمياه فلم يستعملوا الإبل) وكانوا يقومون بالوساطة التجارية
بين العرب والهنود خصوصاً تجارة السيوف الهندية (من أهم معدات الحرب
وقتئذ) وانتهى هذا الشعب لأن يذهب إلى بلاد الكلدانيين وأرض الرافدين
حيث السومريون الأوائل (زراعة - تجارة - بناء معابد) ثم بعدهم
العيلاميون والبابليون ثم الأكاديون الذين ظهروا فى شمال سومر (3000-
2360 ق.م) وكانت الامبراطورية الأكادية مترامية الأطراف . وعلى هذه
الأمة وفد الشعب المسمى (خبيرى) أو (خبيرو) وذلك فى الربع الأول من

الألف الثانى ق.م (وجد ذلك الإسم فى رسائل تل العمارنة) . وكان إبراهيم (عليه السلام) ذو مكانة وبروز فى مجتمعه ولهذا جرؤ على مخالفتهم ومحابتهم وكان يدعوهم إلى عبادة الله الواحد خالق كل شىء (إل شاداي El shaday) وترك عبادة آلهة متعددة (الشمس والقمر والنجوم والكواكب ..) . وجاء فى شروح العهد القديم أن (تارحاً) أبا (إبراهيم) (عليه السلام) كان قد فقد ولده (هاران) أبا (لوط) (عليه السلام) فلم يطق الإقامة فى (أور) فتركها تخفيفاً عن نفسه. ويقال أن بلدة (حاران) هى مقر القبيلة الأصلية ولما جاء غارات العيلاميين مكتسحة ومدمرة حملت السكان على الفرار. وكانت أسرة (حاران) ضمن الفارين والراجلين إلى أرض كنعان . وفى عام 1960 ق.م دُمرت مدينة (أور) العاصمة تماماً . وقد مات (تارح) فى (حاران) قبل الرحيل والهجرة فآلت رئاسة الأسرة إلى أكبر أبنائه (إبراهيم) (عليه السلام) والذى تنقل وعائلته فى إقليم سوريا على حافة الصحراء كما انتقل إلى مصر وعاد منها بجارية (هاجر) تزوجها وأنجبت له (إسماعيل) (عليه السلام) وكانت زوجته (سارة) التى رافقته من (أور) عاقراً رزقت فيما بعد بولدها (إسحاق) (عليه السلام) الذى أنجب بدوره ولدان (عيسو) و (يعقوب) . وسمى (عيسو) لحمرة كانت به (آدم) . ونشأ من ذريته الشعب الآدومى (الآدوميون) . أما (يعقوب) (عليه السلام) فسمى بعد ذلك بإسرائيل (بمعنى جندى الله أو محفوظ برعاية الرب) وقيادة الأسرة أصبحت ليعقوب وكذلك أسند إليه كيانه الدينى. وتزوج يعقوب من ابنة خاله (لابان) (ليئة) التى أنجبت له أولاداً تسعة ثم من (راحيل) التى أنجبت له يوسف (بمعنى ليبارك الله) وأخاه . و (يوسف) (عليه السلام) هو الذى تولى - فيما بعد - أمانة خزائن مصر (وزير المالية) فى عهد المجاعة التى شملت مصر والشام وأتى بأهله أجمعين إلى مصر ويقال أنهم مكثوا فيها حوالى 220 سنة تكاثروا خلالها وزاد

عددهم . وكان من نسلهم (موسى و هارون) الذين خرجوا من مصر إلى أرض سيناء . ومكثوا فيها أربعين عاما (التيه) مات خلالها موسى و هارون فانطلقت قيادة الإسرائيليين إلى (يوشع) عام 1250 ق.م الذى ذهب بهم إلى بادية شرق نهر الأردن فى الجنوب الشرقى من سوريا وظلوا يوالون الحروب مع البلاد المجاورة للاستيلاء على أماكن خصبة وتأسيس دولة خاصة بهم . فكانت حروبه مع ملك الأموريين (سيحون) ثم على (عوج) ملك باشان ثم استطاع أن يقطع مدنا من مملكة كنعان فى فلسطين أهمها (أريحا) وهى مدينة مقدسة واستمرت الحروب لأكثر من ألف عام . وبعد الاستيلاء على تلك البقاع بدأ الإسرائيليون بتقسيم الأرض بينهم أحد عشر قسما (لأحد عشر سبطا) وبقى سبط (يهوذا) الإبن الرابع ليعقوب موزعا بين الأسباط الأخرى لأن الرسالة الدينية كانت مقصورة عليهم فجعل منهم معلمون فى كل سبط . واختار كل سبط رئيساً له فكان هؤلاء الرؤساء يعقدون مجالس للتشاور فى أمر الجماعة وتصريف شئونها . ويسمى الواحد منهم قاضيا . وعرف عهدهم باسم (عصر القضاة) وهو العهد الذى امتد حوالى مائة وستين عاما (1180 - 1020 ق.م) وفى أواخر هذا العهد كان الرئيس الدينى هو (صموئيل) الذى اختار (شاول) كأول ملك عليهم (اسمه طالوت فى القرآن) . وكان ملكا فاشلا لم يستطع أن يحقق لهم نصرا ضد الفلسطينيين بل انهزم هزيمة شنيعة فقد فيها ثلاثة من أبنائه ثم انتحر حزنا عليهم . وجاء (داود) ليقتل جالوت (جوليأت) زعيم الفلسطينيين ومد حدود دولة إسرائيل إلى أقصى ما وصلت إليه المملكة واتخذ أورشليم لتكون عاصمة الدولة . وبنى معبداً على أنقاض معبد لليبوسيين (أهل القدس) واستمر حكمه حوالى 40 عاما (1012 - 972 ق.م) كانت مليئة بالحروب والانتصارات والغنائم . وخلف (سليمان) أباه (داود) (السليمان) واستمر حكمه حوالى 40 عاما (971

(931 ق.م) وأقام عدة مشروعات تجارية ومعمارية وبنى هيكلًا فخماً وقصراً عظيماً وتزوج من ابنة أحد الفراعنة المصريين . وانقسمت الدولة بعده إلى مملكتين (يهودا) في الجنوب وعاصمتها (أورشليم) ومملكة (إسرائيل) في الشمال وعاصمتها (السامرة) ثم بدأ الصعف يدب في المملكتين وأصبحت إسرائيل محاصرة بخصمين أقوياء (مصر وبابل) وانحازت إسرائيل إلى قوة مصر وظلوا تحت هيمنتها لقرون واستعدوا بذلك عليهم ملك بابل وآشور . وكان غزو الملك (سرجون الثاني) لهم بعد ذلك .

وتوالى أنبياء وملوك إسرائيل بعد موسى ويوشع وسليمان حتى عاموس (750 ق.م) الذي أعلن أن (يهوه) إله الناس جميعاً وليس إله إسرائيل وحدها . و(عاموس) هو الذي أعلن أن الله محبة⁽¹¹²⁾ (وهو المبدأ الذي تبنته المسيحية فيما بعد) وأعلن أن المظاهر الدينية من الأناشيد والمحروقات ومسلمات المعابد كلها لا قيمة لها عند الله وإنما قوام العبادة هو الإخلاص لله وحذر بني إسرائيل أن يعتبروا أنفسهم شعب الله المختار وهم منغمسون في المعاصي (انظر سفر عاموس) . وإزاء الانحلال الخلقي والديني في الدولة أصبحت مهياة لأن تكون غنيمة للأشوريين الذين استولوا عليها بعد حوالى عامين من دعوة عاموس . وفيما بين عامى 745 - 727 ق.م ظهر (تجلات فلاسر) Tiglath Pileser امبراطوراً على دولة آشور وكان محارباً قوياً فأخضع في سلسلة من حملاته دمشق وجلعاد والحليل وغيرها وجعلها من ممتلكات آشور وعين عليها حكماً وفرض عليها جزية ثقيلة واضطرت إسرائيل أن تدفع جزية أيضاً . ولكن في عام 722 ق.م رفض (هوشع) ملك إسرائيل إذ ذاك أن يدفع الجزية وكان امبراطور آشور وقتئذ (سرجون الثاني) فحاصر السامرة ثلاث سنوات حتى استسلمت له وكانت هذه نهاية مملكة إسرائيل (السامرة) وأخذ (سرجون) جمهوراً من

الإسرائيليين سبائا (أسرى) إلى أقصى جزء فى امبراطوريته (ميديا) ثم غمر البلاد بسكان مجلوبين من القرى الآشورية والعيلامية والبابلية فأقاموا على أرض فلسطين وامتزجوا ببقايا الإسرائيليين بها . وكان الشعب الناشئ عن هذا الامتزاج وثنياً وتكون منهم السامريون الذين سكنوا (السامرة) واتحدت معتقداتهم الدينية بعبادة (يهوه) وظل هذا المزج قائماً حتى عاد (عزرا) و (نحميا) من السبى البابلى فدعيا إلى تنقية الإسرائيليين من الدماء الأجنبية وطردا من أورشليم حفيد الكاهن الأعلى لأنه تزوج من ابنة الحاكم السامرى . ولكن السامريين ظلوا يهوداً وبنى لهم هيكلًا على جبل (جريزيم) ومع الزمن ازداد العداء بينهم وبين الإسرائيليين وخصص السامريون معبدهم للإله (زيوس) وظلوا بعد ذلك طائفة مستقلة . أما المملكة الجنوبية (يهوذا) فقد كانت شديدة الصلة بميراث (داود) وملكها (رحبعام) بن سليمان . وقد حكمها تسعة عشر ملكاً وامتد عهدها نحو قرن وثلاث زيادة على المملكة الشمالية وأمضت نحو قرن فى هدوء شامل سالمة . حتى كان آخر ملوكهم (صدقيا) 597 - 586 ق.م وكان يدفع الجزية لـ (نبوخذ نصر) عدة أعوام ورأى أن يقف بجانب مصر ضد بابل وأن يقطع الجزية كما يفعل (هوشع) ملك السامرة من قبل فأرسل (نبوخذ نصر) جيشاً دمر أورشليم وهدم المدن الهامة واقتادوا حوالى خمسين ألفاً من السبائا إلى بابل . ولما زالت دولة كلدانيا وجاءت دولة الفرس قاد (كورش) الملك الفارسى (539-538 ق.م) الجيش الفارسى لتحطيم بابل وأعاد السبائا اليهود إلى موطنهم الأصلي ولكنهم لم يعودوا جميعاً فقد أثر أصحاب الثروات والمزارع أن يبقوا لممارسة أعمالهم بعدما امتزجوا بالبابليين . ومن العائدين (زروبابل) و (يوشع) . وفى عهد الامبراطور (ارتحشتا الأول) عادت مجموعتان أخريان بقيادة (نحميا) و (عزرا) وفى حوالى عام 333 ق.م جاء

(الاسكندر الأكبر) بجيوشه (العهد المقدوني) وهزم الفرس بقيادة (دارا الثالث) وبذلك دخلت فلسطين تحت حكم الاسكندر واستجابت الدولة الوثنية للثقافة اليونانية بسهولة (الفكر الهليني أى الإغريقى) لأنها أيضا فلسفة وثنية (كان أرسطو ضمن رجال الاسكندر) وتمسك اليهود بالتوراة التى كتبها (عزرا) فى فترة السبى وألف لها شروحا كى تفهم جيدا ويسهل اتباعها (التلمود) ولم يعد الكهنة هم المرجع فى كل شىء . وبعد موت الاسكندر استولى (سلوقس) أحد قواده وأقواهم على الجانب الشرقى من آسيا المقدونية وجعل عاصمته فى كابل وكان (بطليموس) قد استأثر بمصر التى أصبحت من نصيبه . أما القائد الثالث (أنتيخوس) فقد استولى على آسيا الصغرى وشاطئ البحر حتى غزة . وأدخل (بطليموس) فلسطين فى حدود مصر بمساعدة (سلوقس) لأكثر من قرنين (من عام 312 ق.م) وأصبحت هذه السنة هى بداية التاريخ السلوقى (اليونانى) وأصبح اليهود تحت حكم مصر وهاجر كثيرون منهم إلى مصر (عصر البطالمة) . وكانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية للحكومة . وكانت العاصمة (الاسكندرية) مركزاً لتجمع اليهود وترجموا التوراة إلى اليونانية (عام 270 ق.م) وسميت الترجمة (بالترجمة السبعينية) حيث استفاد منها اليهود الذين يتكلمون اليونانية . ومن هذه الترجمة نقلت فلسفة اليهود ودينهم إلى الأمم الأخرى . أما فلسطين فقد أصبحت تحت حكم السلوقيين بعد تقلص نفوذ البطالمة فيها وانتشرت الثقافة (الهليستنية) التى تختلف عن الثقافة (الهلينية) فى كونها خليط من الثقافة الأصلية مع ثقافات وافدة مشوهة من الفرس والهنود والبابليين . وأصبح التفكير الفلسفى منحطاً وتلوث بنزعات مادية وأخلاقية وضیعة حيث تفشت الإباحية (جذباً للشباب) فأهمل اليهود التوراة وتعاليمها وارتد بعضهم عن يهوديتهم وانتشر الفساد وأقيمت المعابد الوثنية وأمر بمزاولة

طقوسها وكانت الخزائير تُذبح على مذبح الهيكل وحرم الاختتان (الختان) وعبادة يوم السبت والاحتفال بالأعياد اليهودية وقراءة التوراة ومن يخالف ذلك يُعَدَم. وكان ذلك محاولة من (أنتيخوس) السلوقي لاستئصال الديانة اليهودية من البلاد نهائياً . وجعل الهيكل معبداً للإله (زيوس) كبير آلهة اليونان . وقام اليهود بثورة ضد الملك (ثورة المكابيين) بدأت سرية وصغيرة ثم ازدادت (الحاخام ماثثياس ثم ابنه يهوذا) حرب عصابات ضد المحتل (رافعاً لواء الغيرة على التوراة وتحرير الوطن) وسمى (المكابي) التي تعنى فى العبرية الضارب بالمطرقة . واستطاع أن يستولى على بيت المقدس وطهره من الوثنيات (165 ق.م) فى ديسمبر (عيد الهنوكة) وسمى العهد بعهد المكابيين . وفى عام 143 ق.م أمكن التحرير والاستقلال التام من الاحتلال والسيطرة السورية (التابعة للسلوقيين) . واستمرت المملكة المكابية خمسة وستين عاماً (168 - 105 ق.م) حتى جاء الرومان فأعفوا الأسيرة المكابية ووضع مكانها أسرة (هيرود) أو هيرودس وظهرت فرقتان جديدتان منبثقتان عن جماعة (القُرّاء العِبَاد) أى (الحاسيديم) وهم جماعة (الفريسيين) Pharisees وجماعة (الصدوقيين) Saducies وفى عام 66 ميلادية قام القديس (مناحم) قائد جماعة (الحماسيين الجليليين) بثورة وإعلان الحرب لتخليص بلاده من الحكم الرومانى . وحاول كل من الفريسيين والصدوقيين وقف هذه الثورة ولكنها اندلعت طائشة ضد الحكم الرومانى فى عهد (نيرون) الذى عهد إلى قائده (فاسباسيان) بإخمادها فدمر بعض المدن وأخضع المناطق الريفية ثم تقدم لحصار أورشليم فمات (نيرون) وأصبح (فاسباسيان) امبراطوراً بعده وعين ابنه (طيطس) أو (تيطوس) قائداً مكانه فحاصر أورشليم حتى استسلم اليهود بعد مشقة (انتحروا) ودمر ما تبقى من حصون ومبان . ودمر الهيكل عام 70م . وتدمير الهيكل كان فى واقع الأمر

نهاية الفتنة ونهاية الدولة اليهودية . واتخذت اليهودية الصورة التي احتفظت بها إلى أيامنا هذه صورة دين بلا معبد ولا كهنوت ولا قرابين . واختفت طائفة الصدوقيين وأصبح الفريسيون والأحبار زعماء شعب لا وطن له⁽¹¹³⁾ واختفت فرق اليهود العديدة ولكن بحكمة جماعة من الفريسيين قُدر لهم البقاء حيث كانت تعاليمهم غير مشددة (يرون أن الله أو يَهُوه رب الكون كله لا اليهود وحدهم وأن العبادة تُقام في أى مكان لا في الأرض المقدسة فقط وأن فقدان الهيكل لا يعنى قطع الصلة بالله) . وكان الفريسيون يقولون إننا نؤمن ببقاء الأرواح وفساد الأجساد . وتكونت في مدرسة (يوخنان) زعيمهم أوسع التعاليم اليهودية وتمت الشروح الشفوية التي تكون منها بعد ذلك (المِدرّاش) و (المِشْنا) والشروح الواسعة الأخرى وعزى أتباعه بأنه مادامت التوراة باقية فإنها كفيّلة بجمعهم حولها وربطهم مهما تباعدت أمكنتهم برباط مقدس . ويمكن أن تمثل المِدرّاش بالتفسير والمِشْنا بالفقه . وترجع بداية المِدرّاش إلى عهد (عزّرا) وقد قاومها الصدوقيون . وكان أول من بوّب ورَتّب (المِدرّاش) هو (عقيبا) أو عقيبة العالم الرّبّاني (50 - 135 م) وهو أول من عالج تنظيم قوانين (المِشْنا) ونظم أول دراسة تجمع المِشْنا والمِدرّاش والأخذ منهما معاً وعرفت هذه الدراسة باسم (الحلقة) Halachah أو (الهالاكا) .

ويتضح من ذلك كله أنه لا النصوص ولا القوانين اليهودية مما ورث عن (موسى) (عليه السلام) أو الأنبياء من بعده وأن الرّبّانيين والأحبار أدوا الدور الأكبر خلال القرن الميلادي الأول وأنهم حذفوا وأضافوا وهذبوا .

ولم يكن التلمود ثمرة تفكير . بل هو التفكير نفسه . فكل الأفكار المختلفة قد دونت فيه⁽¹¹⁴⁾ وليس من المستطاع فهم التلمود إلا إذا درس في ضوء التاريخ على أنه العامل الفعال الذى أبقي على شعب مطرود يتهدده خطر التفكك التام⁽¹¹⁵⁾ .

إن الاعتقاد بعودة المسيح الثانية هى التى أقامت صرح المسيحية وإن الأمل فى الدار الآخرة هو الذى أبقي عليها⁽¹¹⁶⁾ . وقد أمدت المسيحية روما بالنظام كما أمدتها اليهودية بمبادئها الخلقية وكما أمدتها بلاد اليونان (الإغريق) بفلسفتها الدينية وقد دخلت هذه كلها فى بناء الدين المسيحى مع ما دخله وما امتصه من الأديان المعارضة⁽¹¹⁷⁾ . وقد كانت المسيحية عند الامبراطور (قسطنطين) وسيلة لا غاية . لأنه لو كان مسيحياً حقاً لكان مسيحياً أولاً وحاكماً سياسياً بعدئذ⁽¹¹⁸⁾ . وكان قسطنطين قبل أن يعتنق المسيحية قد سوى من الوجهة القانونية بين الدين اليهودى وبين سائر الأديان التى يدين بها رعاياه . أما بعد اعتناقه المسيحية (تشبهاً بأمه) فقد اضطهد اليهود وفرض عليهم قيوداً وحرّم على المسيحيين أن يتصلوا بهم ونفى أحبارهم وجعل زواج اليهودى من مسيحية جريمة يعاقب عليها مرتكبها بالاعدام⁽¹¹⁹⁾ .

إن المسيحية لم تقض على الوثنية بل تبنتها (فى صورة لاهوت الكنيسة وطقوسها) . ومن بلاد فارس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام⁽¹²⁰⁾ .

اليهود من الفتح الإسلامي إلى العصر العثماني

ليس بمستغرب أن يفكر المسلمون في فتح بيت المقدس وهو البيت الذي ورد ذكره في القرآن وفي أحاديث النبي (ﷺ) والصحابة الكرام . ولقد كانوا مدفوعين لهذا الفتح بعوامل عدة منها ما هو ديني ومنها ما هو اقتصادي ومنها ما هو استراتيجي وحربي⁽¹²¹⁾ . فقد أُسرى بالنبي (ﷺ) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله . وما كان للنبي ليسرى إلى هذا البلد لولا أنه عرق الجزيرة النابض وقلبها الخفاق ومهبط الرسالات السماوية السابقة وأنه لحياء للعرب - أمة - في جزيرتهم إذا لم تكن تخومها الشمالية محمية .

وفي الحديث الشريف⁽¹²²⁾ :

* لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاث مساجد : المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى .

وقد حث النبي (ﷺ) قومه على غزو الروم للأسباب السابقة. ولكن المنية فاجأته قبل أن يدرك غايته فأكمل الخليفة الأول (أبو بكر) وصيته وراح يستنفر العرب من أجل فتح الشام كلها وليس بيت المقدس وحده . وقد جهز لهذه الغاية أربعة جيوش عقد ألويتها لأربعة من كبار القواد هم : عمرو بن العاص (إلى فلسطين) وشرحبيل بن حسنة (إلى الأردن) وأبو عبيدة بن الجراح (إلى دمشق) ويزيد بن أبي سفيان (إلى البلقان)⁽¹²³⁾ . وبعد أن هزم المسلمون الروم في اليرموك وفتحوا الشام ولّوا وجوههم شطر فلسطين . فتولى أبو عبيدة بن الجراح حصار إيلياء (القدس) وراح عمرو بن العاص يفتح المدن الفلسطينية الأخرى وكان أبو بكر الصديق قد انتقل إلى دار البقاء

وتولى (عمر بن الخطاب) الخلافة من بعده . وفى قول أن عمر بن الخطاب هو الذي أوعز إلى أبى عبيده أن يزحف إلى إيلياء فلبى أمر الخليفة واستدعى سبعة من مقادير الجيش فعقد لكل منهم راية ضاماً إليه خمسة آلاف مقاتل وأمرهم بالمسير إليها . وفى اليوم الأول سار (خالد بن الوليد) وفى اليوم الثانى تبعه (يزيد بن أبى سفيان) ثم (شرحبيل بن حسنة) فـ (المرقال بن هاشم) فـ (مسيب بن نجبة الفزازى) فـ (قيس بن المرادى) فـ (عروة بن مهلهل بن زيد الخيل) . وجاء من وراء الجيش قائده (أبو عبيدة) . ولما حل ركبه فى الأردن بعث إلى أهل إيلياء الرسل مزودين بالإنذار التالى:

بسم الله الرحمن الرحيم . من أبى عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وبالرسول (ﷺ) . أما بعد . فإننا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله . محمد رسول الله . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور . فإن شهدتم بذلك حرّمت علينا دماؤكم وأموالكم وذرائعكم وكنتم لنا إخوانا . وإن أبيتم فأقرّوا لنا بأداء الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون . وإن أنتم أبيتم سرت إليكم بقوم هم أشد حبا للموت منكم لشرب الخمر وأكل لحم الخنزير ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله أبداً حتى أقتل مقاتليكم (الجنود) وأسبى ذرائعكم (المدنيين) .

وانقضت الأيام الأربعة الأولى من غير حرب ولم يتلق المسلمون جواباً من الروم على إنذارهم . وفى اليوم الخامس اقترب يزيد بن أبى سفيان من السور وكلم المحاصرين فخيرهم بين التسليم أو دفع الجزية أو القتال فرفضوا الشرطين الأولين واختاروا القتال . وكان أول من برز للقتال بنو حمير ورجال اليمن فنلقاهم الروم بالنبال ثم جاء الآخرون ونشبت معركة طاحنة دامت عشرة أيام وفى اليوم الحادى عشر أشرفت راية أبى عبيدة وفى

رفقته عبد الرحمن بن أبي بكر ونفر من المجاهدين الأبطال . فاستقبله المسلمون بالتهليل والتكبير ودب الرعب في قلوب الروم ودام الحصار أربعة أشهر لم ينقض يوم واحد منها دون قتال إلى أن قنط (يأس) السكان وحل بهم الضنك والجوع فرأوا التسليم إلا أنهم اشترطوا ألا يسلموا المدينة إلا إلى شخص الخليفة فوافقهم أبو عبيدة وأمر جنده بالكف عن القتال وفر القائد الروماني (أرطابون) إلى مصر وصار زعيم المسيحيين البطريرك (صفريوس) .

ويقول (ابن حنبل) (124) :

أرسل أبو عبيدة إلى الخليفة كتاباً يخبره بما جرى وبعد أن استشار عمر بن الخطاب أهل الحل والعقد من المسلمين في الأمر غادر المدينة متوجهاً إلى بيت المقدس . ولما وصل إلى المخيم الذي كان يربط فيه المسلمون على مقربة من السور (وفي قول على جبل الزيتون) استقبله المسلمون بخيلهم ورماحهم وقد اصطفوا لاستقباله في صفوف متراسة راكبين خيولهم متقلدين سيوفهم شارعين رماحهم يهللون ويكبرون . وكان هو لأبسأ سلاحاً متكباً قوسه ولم يكن معه سوى عبده . وبعد أن استراح قليلاً قص عليه أبو عبيدة الخبر اليقين عما جرى منذ افترقا إلى ذلك الحين فأمر الخليفة من فوره أن يبلغوا البطريرك قدومه ففعلوا . وجاء البطريرك بعد قليل حاملاً الصليب المقدس على صدره وجاء معه عدد من الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهبان حاملين الصلبان . ولما انتهوا إلى مقام الخليفة خف للقائهم وتقبلهم بمزيد من الاحتفاء والإكرام ثم تحادثوا في شروط التسليم وكتب لهم وثيقة الأمان التالية والتي عرفت باسم (العهد العُمري) (125): بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله (عمر) أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان .

أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . سقيهما وبريئتهما وسائر
ملتهما . أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم . ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا
من صلبهم ولا شيء من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم . ولا يضار أحد
منهم . ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا
الجزية كما تعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص .
فمن خرج منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن
أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيّعتهم وصلبهم
فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيّعتهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . فمن شاء
منهم قعد وعليهم مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم
ومن شاء رجع إلى أهله لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم . وعلى
ما أقول في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا
أعطوا الذي عليهم من الجزية .

(كتب سنة 15 هجرية) وشهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن
عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان .

وكما أن عمر بن الخطاب أعطى أهل إيلياء العهد الذي تقدم ذكره فقد
أخذ عليهم أيضا عهداً . ولقد جاء في عهدهم مايلي :

هذا كتاب لعبد الله (عمر بن الخطاب) أمير المؤمنين من نصارى
مدينة إيلياء إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائنا وأموالنا وأهل
ملتنا وشرطنا لكم أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا
قلاية ولا صومعة راهب ولا نحس منها ما كان في خطط المسلمين
[أى تخطيط الشوارع والمباني] ولا نمنع كنائسها أن ينزلها أحد من المسلمين
ليليل ولا نهار [للتفتيش] وأن توسع أبوابها للمارة وابن السبيل . وأن ننزل

من مرّ من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نولّوهم في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتم غشاً للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن . ولا نظهر مشركاً [أى لا نناصر مشركاً] ولا ندعو إليه أحداً . ولا نمنع أحداً من نوافل قربانتنا الدخول في الإسلام إن أراد . وأن نوفر المسلمين . ونقوم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس . ولا ننسب في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر . ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكلم بكلامهم [ألقابهم] ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله ولا ننقش على خواتمنا بالعربية . ولا نبيع الخمر . وأن نجزّ مقام رؤوسنا (القصة) وأن نلزم زيناً حيثما كنا . وأن نشد زنا نير على أوساطنا . ولا نظهر الصليب على كنائسنا . ولا نظهر صليباً ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا في أسواقهم . ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً . ولا نرفع أصواتنا مع موتانا . ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين [لا نشاركهم غنائمهم] ولا نطلع عليهم في منازلهم [لا نتجسس عليهم] .

وبعد أن تعاطى الفريقان العهود والأيمان على النمط المتقدم ذكره دخل عمر بن الخطاب إيلياء (15 هجرية / 636 ميلادية) فاستقبله - صفر نبيوس ودخل من ورائه المسلمون مهالين ومكبرين وقد كانوا متقلدين سيوفهم وراية العرب ترفرف فوق رؤوسهم . وكان أول عمل قام به (عمر بن الخطاب) بعد فتحه بيت المقدس أن زار كنيسة القيامة . ولما كان داخلها حان وقت الصلاة . فأشار عليه البطريق (صفر نبيوس) أن يصلى في داخل الكنيسة قائلاً له : مكانك صلّ .

ولكن (عمر) أبى وخرج من الكنيسة وصلى فى مكان على مقربة منها خشية أن يتخذ المسلمون صلاته فى الكنيسة ذريعة فيضعوا أيديهم عليها. فقابل النصرانى عمله هذا بلا شكر . وذكره المؤرخون بالتقدير . ثم زار عمر مكان الهيكل وكان فى حالة خراب تام تجمعت فيه الأقدار فأصبح عبارة عن مزبلة (مكان تجمّع للقمامة والقاذورات) فراح يحفن التراب وينحسه بكفيه (أى ينظف المكان) وحذا الصحابة حذوه وبرزت الصخرة وأمر عمر أن يُبنى هناك مسجداً. فبنى المسجد وكان من الخشب (عام 637 م.) (أعاد بناءه الخليفة عبد الملك بن مروان وأصبح الآن بما يعرف بمسجد الصخرة)⁽¹²⁶⁾. وراح يتجول عمر فى شوارع المدينة ويغشى أسواقها وكانت لا تزال تثن من الخراب الذى أحدثه الغزو الفارسى عام 614 م . ولم يكن فى القدس معبداً أو هيكلأ يهودياً عندما فتحها (عمر) ولو وجد ذلك لأمر بالإبقاء عليه ولأمر بصيانته والمحافظة على نقوشه ومحتوياته⁽¹²⁷⁾. ورأى عمر بعين ثاقبة أن يبدأ بالتنظيم الإداري والقضائي أولاً فلم يتوان . ففرض للمسلمين الفروض وأعطى العطايا ثم وضع التاريخ الهجري ودوّن الدواوين وقسم البلاد إلى مناطق وعيّن لكل منطقة أميراً ثم رتب البريد ليؤمن الاتصال بين هذه المناطق . وأقام العيون (المباحث والمخابرات) وعين قاضيا (مفتشاً) يطوف على المأمورين ويحقق الشكايات وأسس الحسبة (البلدية) لمشارفة الموازين والمكاييل ومراقبتها ولمنع الغش . وتنظيف الأزقة والرفق بالحيوان وهدم البناء المحدث فى وسط السوق. وحظر على الناس الازدحام فى الطرق . وحضهم على التجارة . وبينما كان (عمر) يتفقد المدينة أتاه رجل من النصرانى له نمة مع المسلمين فى كرم عنب . فشكا إليه همه فركب معه . ولما رأى فريقا من المسلمين أكلوا مما فى الكرم لشدة ما أصابهم من جوع أعطى الرجل ثمن ما أكلوا وأمر رجاله بالعدل

وذكر المؤرخون أن (عمر) زار قبيل رحيله عن بيت المقدس أبا عبيدة بن الجراح في بيته فلم يجد فيه سوى لبد فرسه (وكان فراشه ووسادته وسرج فرسه) وكسرة يابسة في كوة بيته (حير حاف في طاقة بالحدار) . فلما نحل (عمر) جاء أبو عبيده بهذه الكسرة فوضعها على الأرض بين يدي عمر وأتاه بملح خشن وإناء من الخزف فيه ماء. وبعد أن رتب عمر الأمور ووضع كل شيء في نصابه اعتزم الرجوع إلى المدينة المنورة. وقبل أن يغادر بيت المقدس جمع جنده فأثنى على عملهم وشكر الله إذ صدق وعده ونصر جنده وأورثهم البلاد ومكن لهم في الأرض ثم نصحهم بالابتعاد عن المعاصي والتوبة وتقوى الله وإلا سلب الله عزهم وسلط عليهم عدوهم.

وأقام على بيت المقدس يزيد بن أبي سفيان على أن ياتمر بأوامر أبي عبيدة . وانتدب للصلاة من بعده سلامة بن قيسر وأمر على فلسطين رجلين فعمل (علقمة بن حكيم) على نصفها الشمالي وأنزله الرملة (العاصمة الشمالية) و (علقمة بن مجزر) على نصفها الجنوبي وأنزله إيلياء (العاصمة الجنوبية) ثم عاد هو إلى المدينة .

وبعد ذلك بحوالى قرن وفي العصور الوسطى (القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادي) ظهرت دولة فتيّة امتدت حدودها من بحر الخزر (بحر قزوين) إلى البحر الأسود ومن القوقاز إلى الفولجا وكانت عاصمتها (أتل) تقع على نهر الفولجا سميت هذه الدولة بـ (دولة الخزر) وكانت هذه الدولة تقع بين الامبراطورية الرومانية الشرقية المسيحية (بيزنطة) من جهة والعربية الإسلامية من جهة أخرى . فكانوا هم بمثابة القوة الثالثة في عصرهم . وحرصاً على حماية دولتهم من ضغط المسيحية والإسلام فقد

رأى الخاقان (بولان) عام 750 م الذى حكمهم فى منتصف القرن الثامن الميلادى اعتناق اليهودية هو وحاشيته وشعبه .

ويلاحظ أن أرض الخزر كانت المأوى الطبيعى لهجرات اليهود التى وقعت هرباً من اضطهاد الحكام البيزنطيين . بل كانت أشبه بوطن قومي لليهود⁽¹²⁸⁾ . كما ضمت بلاد الخزر أيضاً عدداً كبيراً من المسلمين والمسيحيين وكان يهود ملوك الخزر فى خلافة (هارون الرشيد) وقد أُلّف ملك الخزر فى جيشه فرقة ضاربة من المسلمين (الارضية) وهم قبيلة خولزوم الذين أقاموا فى البلاد على شروط منها⁽¹²⁹⁾ :

- 1- إظهار الدين والمساجد والأذان .
- 2- أن تكون وزارة الملك فيهم .
- 3- أنهم لا يظهروا فى حالة حربه مع المسلمين (يقفون على الحياد) ويحاربوا سائر الناس .

وقد وقف الخزر سداً منيعاً حال دون زحف العرب نحو القوقاز بيد أنهم أقاموا منذ أواخر القرن الثامن علاقة ودية مع الخلافة الإسلامية وحرصوا على المحافظة عليها . وأصل هؤلاء القبائل يعود إلى الأتراك . وكان شعب الخزر شعباً عصرياً متحرراً من الأحقاد القومية ومفتوحاً لمختلف الثقافات والأديان . له حكومته العادلة المتسامحة وجيشه القوى وتجارته الواسعة .

ويقول المؤرخ العربي (المسعودي)⁽¹³⁰⁾ عنهم :

جرى العرف فى (أتل) عاصمتهم أن يكون بها سبعة من القضاة
اثنان من المسلمين (يفصلان فى القضايا تبعا للشرعية الإسلامية) واثنان
للخزر (يفصلان بحكم التوراة) واثنان لمن بها من النصرانية (يحكمان
بحكم النصرانية) وواحد للصقالبة والروس وسائر الجاهلية الوثنية (يحكم
بأحكام الجاهلية) . وإذا ورد عليهم ما لا علم لهم به اجتمعوا إلى قضاة
المسلمن فتحاكموا إليهم وانقادوا إلى ما توجبه شريعة الإسلام . وقد قضى
الروس على امبراطورية الخزر فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى
ودمروا عاصمتهم (أتل) ولكنهم ظلوا محتفظين باستقلالهم داخل حدود
أضيق عن ذى قبل إلى أن سقطت بلادهم فريسة لغارات المغول بزعامة
(جنكيز خان) فى منتصف القرن الثالث عشر . ولكنهم قبل هذا الغزو وبعده
كانوا قد أرسلوا فروعا كثيرة من سلالتهم إلى البلاد الصقلية التي لم تقع فى
أيدي المغول وساهموا بالتالى فى تكوين جاليات يهودية كبيرة فى شرق
أوروبا .

وخلاصة ما ينتهى إليه الكاتب اليهودي (آرثر كيسنر)^(*) ويوضحه :

أن غالبية اليهود الحاليين ليسوا من أصل أسوي . أى أنهم ليسوا
من قبائل الأسباط الاثنى عشر (نسل يعقوب وأخوة يوسف) بل إنهم
ينحدرون من الخزر (الذين أطلق عليهم الكاتب القبيلة الثالثة عشر)
والذين انتشرت نريتهم فى كثير من دول شرق أوروبا خاصة بولندا والمجر

* (يهودى روسى ومؤلف كتاب (تعينة الثالثة عشر ويهود اليوم) وأسباط اليهود اثنى عشر
سبطا فقط أما يهود اليوم فلا يتشكلون منهم .

وروسيا أى أنهم لم يجينوا من فلسطين بل جاءوا من القوقاز . أى بعبارة أخرى فإن مصطلح معاداة السامية لم يعد له معنى فى ضوء هذه الحقيقة .
ويشاركه الرأي (د. ابراهام بولياك) اليهودي الروسي وأستاذ التاريخ اليهودي فى جامعة تل أبيب . وأثبت أيضا النمساوي (هوجرفريز فون كوتشيرا) عام 1847 - 1910 م . فى بحوثه عن الخزر أن يهود شرق أوروبا ينحدرون منهم .

وقد استمد (ارثر كيمستر) واستقى معلوماته تلك من عدة مصادر (131) :

(1) المصادر العربية :

رسالة ابن فضلان ، البلخي ، الاصطخرى ، المسعودى ، البكري ، ابن رسته ، اليعقوبى ، ابن مسكويه ، ابن النديم ، الدمشقى ، ابن حوقل ، ابن العديم ، ياقوت .

وابن فضلان هو الوحيد الذي عاصر تلك الأحداث .

(2) المصادر البيزنطية :

مؤلفات الامبراطور البيزنطي المؤرخ (قسطنطين السابع) بورفيريو جينيتوس (كتاب المراسم) عام 950 م .

(3) المصادر الروسية :

الحوليات الروسية فى الفترة ما بين القرن السابع والعاشر الميلادى وهى الحوليات التى انتهت أخبارها سنة 1112 م . وتسمى (قصة السنوات الغابرة) وهى تتضمن بيانات صادقة عن تلك الفترة تولى جمعها راهب من كييف اسمه (نستور) .

(4) الرسائل الخزرية :

وهي رسائل بالعبرية ترجع إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي تروى قصة اعتناق شعب الخزر اليهودية .

(5) المصادر الحديثة :

مثل دوجلاس دانلوب ، توينبى ، بيورى، بارون، مكارتنى، فرنادسكى، وكالة (مجموعة الجنيزة) (وهي مجموعة وثائق عبرية محفوظة في المعبد اليهودي بالقاهرة بمصر) .

وعليه فإن كيان دولة إسرائيل لا يستند إلى أصول اليهود العرقية النظرية ولا يستند إلى ركائز عقائدهم الدينية وإنما يقوم أساساً بمقتضى القانون الدولي (قرار التقسيم فى عام 1947 م) والذي كان نتيجة تدفق هجرات اليهود إلى فلسطين لسنوات طويلة قبل ذلك .

ويقول (رافائيل باتال)⁽¹³²⁾ :

أظهرت نتائج أبحاث علم الأجناس البشرية أنه خلافاً للشائع ليس هناك جنس يهودى حيث تدل قياسات الأجسام البشرية التي أجريت على مجموعات من اليهود أنهم يختلفون بعضهم عن بعض اختلافاً بيئياً في كل الخصائص الجسدية الهامة (القامة ولون البشرة وشكل الوجه وفصائل الدم) .

ويقول (ريلى) فى كتابه (أجناس أوروبا) :

إن تسعة أعشار يهود العالم لا يمتّون إلى اليهود الأولين بأي شبه وأن القول بنقاء دم اليهود حديث خرافة .

ويؤكد المؤرخ العربي (الاصطخري) :

على تنوع قبائل الخزر ويقول عنهم أنهم صنفان :

1- كلرا خازر (الخزر السود) .

2- الشخزر (الخزر البيض) .

وهم يرجعون إلى قبائل أخرى كانت تسمى (الأكاتير) ومنها اشتقت لفظة الشخزر .

ويقول (أرتامونوف) المؤرخ الروسي في كتابه (تاريخ الخزر) :

تحللت مملكة الخزر وتهاوت إلى أجزاء تداخلت أغليبيتها في الشعوب الأخرى المنصلة بها . أما الأقلية التي استقرت في (أثل) فقد فقدت قوميتها وتحولت إلى طبقة طفيلية ذات صبغة يهودية .

وعن اليهود في مصر المملوكية تقول د. محاسن الوقاد : (133)

* عند فتح (عمرو بن العاص) لمصر عام 21 هـ / 642 م . لم يتعرض لأهل الذمة بسوء . فقد عامل اليهود معاملة حسنة تتطوي على التسامح الديني كما التزم بمبدأ العقيدة . وكانت العدالة تميز سلوكه تجاه أهل الذمة جميعا (اليهود والنصارى) .

* في العهد الأموي للخليفة (عمر بن عبد العزيز) جرى إحلال الموظفين المسلمين محل الموظفين اليهود في الجهاز الإداري والمالي للدولة وحرر عليهم ركوب الخيل (كمظهر للعلو والعزة) .

* في عصر الخليفة العباسي المتوكل (235 هـ / 849 م) أمر بأن يتميزوا بلبس الطيالة العسلية والزنانير وعلى رؤوسهم القلائس المختلفة الألوان وأن يجعل على أبواب دورهم أساطين من خشب مسمورة وذلك للتمييز بين منازلهم و منازل المسلمين . ونهى أن يستعان بهم فى دواوين الحكومة وأعمال الدولة التى تخالف أحكامهم فيها أحكام المسلمين . كما نهى أن يتعلم أولادهم فى كتابات المسلمين وأن يقتصروا فى ركوبهم الدواب على الحمير والبغال دون الخيل . وهذه المراسيم كان يعمل بها فى حين صدورها بمنتهى الدقة ولكن بمرور الوقت يعود كل شيء كما هو عليه وترجع سياسة التسامح مرة أخرى .

* في عهد الدولة الطولونية (254 - 292 هـ / 868 - 905 م) وجدت جالية يهودية بمصر وكان أفرادها من الأثرياء ورجال الأعمال وشهدت تلك الفترة اعتناق كثير من اليهود والنصارى للإسلام . وكان مساحة الحرية كبيرة . وفى هذا العصر وفد على مصر أعداد كبيرة من يهود فارس الذين كانوا يعملون فى تجارة الشرق عبر الخليج العربى بسبب تعطيل هذا الطريق وعودة التجارة فى الشرق إلى طريقها الأول . وقد برع اليهود فى مجال الطب واستخدم (أحمد بن طولون) عدداً منهم .

* بعد وفاة الخليفة وعودة الولاية العباسية لم يعكر صفو اليهود سوى المرسوم الذى صدر أثناء ولاية (عيسى النوشري) على مصر 295 هـ / 908 م حيث أمر الخليفة (المقتدر) بألا يستخدم أحداً منهم إلا فى الطب وأعمال الصيرفة .

***فى عهد الدولة الاخشيدية (323 - 358 هـ / 935 - 969م)** كان لليهود أنشطتهم الملحوظة فى الأعمال التى تدر الأرباح الوفيرة . وكان لهم محاكم خاصة بهم مع احتفاظهم فى الاحتكام إلى قصاة المسلمين . ومن أشهر اليهود فى ذلك العصر (يعقوب بن كلس) الذى اشغل بالتجارة وتصنيع السكر . وأصبح يعرف بـ (تاجر كافور) كما أنه نظم مالية مصر فى عهده . وفى أواخر عهد الدولة الاخشيدية اعتنق يعقوب الإسلام فزادت مكانته عند كافور .

***وبعد وصول الفاطميين إلى مصر (358 هـ / 969 م)** رأى خلفاء هذه الدولة أنهم قد جاءوا إلى مصر بمذهب شيعي يخالف مذهب المصريين السني . ومن ثم فقد صاروا بحاجة إلى من يعاونهم فى تثبيت سلطانهم . فعمدوا إلى تقريب أهل الذمة وأظهروا لهم الكثير من التسامح واستخدموهم فى أهم شئون الدولة الإدارية والاقتصادية والسياسية . ومن أشهرهم (منشأ اليهودي) . وفى عهد (الحاكم بأمر الله) رجعت الأمور إلى سابق عهدها بالنسبة لليهود . حيث اشتد عليهم وحرم عليهم ركوب الخيل وأفرد لهم حمامات خاصة بهم وحرقت الحي اليهودي وقام بنقلهم إلى حارة زويلة وأسكنهم بها . ولكنه عاد مرة أخرى إلى سياسة التسامح معهم ومنحهم أماناً (411هـ / 1020 م) فلعب اليهود فى مجال التجارة دوراً مهماً ومارسوا تجارة الذهب والجواهر والعملية وأعمال الصيرفة وأسهموا فى النشاط الصناعي (صناعة الخمور والسكر والعسل والزيوت والحلى والمعادن) وزادت ثرواتهم . ولذلك يعتبر العصر الفاطمي العصر الذهبي لليهود بمصر .

*بعد انتقال الحكم إلى الأيوبيين (567 هـ / 1171 م) . أصدر (صلاح الدين الأيوبي) مرسوما بصرف أهل الذمة ومنع استخدامهم فى الأعمال السلطانية ودواوين الحكومة (إبعاد الموالين للفاطميين ولمنع تأمرهم على حكمه خصوصا مع اشتعال الحروب الصليبية) . ورغم هذا فقد استعان (صلاح الدين) باليهود فى بعض الأعمال مثل رئاسة ديوان التحقيق (ابن كوجك) وفى مجال الطب كان (موسى بن ميمون) طبيبه الخاص (أسلم فى المغرب العربي قبل مجيئه إلى مصر) .

*وفى الدولة المملوكية عرفت الجزية على اليهود باسم (ضريبة الرؤوس) وهى التي عرفت فى العصور المتأخرة باسم (الجوالى) . وتختلف تلك الضريبة عن الجزية بأنها تميزت بطابع إنساني إذ روعي فيها عدم أخذها من النساء والأطفال والشيوخ وأصحاب العاهات وغير القادرين والرهبان (بشرط انقطاعهم فى الأديرة) بالإضافة إلى إمكان تأجيل تحصيلها من المعسر وهى سنوية .

أما الجزية فهى جزء من اتفاق عقد الذمة حيث يكون على المسلمين حمايتهم وحماية أموالهم وتعويضهم عما تلف منها بالإضافة إلى حرية العقيدة والدفاع عنهم ماداموا باقين داخل المجتمع الإسلامى (وهى سنوية أيضا) .

ولم يكن اليهود أقلية منعزلة فى المجتمع المصري وإنما امتزجوا داخل المجتمع وتولوا الوظائف الإدارية والأعمال المصرفية وممارسة مهنة الطب التي رفعت من شأنهم ومكانتهم بين أهل طائفتهم فتولوا الإشراف على شئونهم (أصبحوا زعماء دينيين للطوائف اليهودية مثل عبد اللطيف بن إبراهيم بن شمس الطبيب الذي كان رئيسا لليهود).

وسلاطين الممالك لم يفرقوا في المعاملة بين الأطباء اليهود والمسلمين سواء في العطية أو في العقاب (في حالة الغنل في التطبيب) . وقد حظيت أوقاف اليهود باهتمام سلاطين الممالك وراعيتهم واهتمامهم مثلما يحدث لأوقاف المسلمين . ولم تحدث اضطهادت لليهود في العصر المملوكي (وغيره) إلا فيما ندر . وقد أشار الرحالة اليهودي (شولام بن مناحم) بسماحة الإسلام وحسن معاملة المسلمين وتميزهم عن غيرهم في كثير من الإعفاءات المالية (الضرائب و الجمارك) .

وتخلوا أغلب (وثائق الجنيزة)^(*) من أية معلومات عن اشتغال اليهود بتجارة الرقيق (الجوارى والعبيد) سواء في حوض البحر المتوسط أو المستوى الأفريقي أو الهندي .

وعن التقسيم الطائفي الديني لليهود تقول الدكتورة / محاسن الوقاد⁽¹³⁴⁾ :

يتركز الفرق بين الفرق الدينية اليهودية حول الاعتراف بأسفار العهد القديم (التوراة) والتلمود أو إنكار بعض هذه الأصول ورفض الأخذ بما جاء فيها من أحكام وتعاليم . واليهود ثلاث طوائف هم :

الربانيون والقساويون والسامرة .

(1) الربانيون أو (الفريسيون) :

ويطلق عليهم أيضا الربيون والربانون والفريزيون وسموا هكذا لاتباعهم تفسير علماء اليهود وفقهائهم في المِشْنَا (المِشْنَة) أي سنة موسى (عليه السلام) (التوراة الشفهية) وشروح التلمود (الجمارا) .

^(*) مجموعة وثائق عبرية أي يهودية محفوظة في المعهد اليهودي (معبد عزرا الكاتب)

بالتقاط بالقاهرة تعتبر كدفتر أحوال وسجل تشنون اليهود الإدارية والدينية وغيرها .

و (المِشْنَا) تشتمل على ستة أقسام يطلق عليها (السدائيم) أى الأوامر
وهى :

- (أ) زرعيم (الزراعة)
- (ب) موعيد (الأعياد)
- (ج) ناشيم (النساء)
- (د) نزيكين (الجروح)
- (هـ) قوداشيم (المقدسات)
- (و) توهاروت (الطهارة)

والتلمود (المعرفة أو التعليم) ينقسم إلى :

- (أ) المِشْنَا : بمعنى النص أو المَتْن . (الفقه) .
- (ب) الجَمَارَا : بمعنى التفسير أو الشرح (السنة) .

وهناك تلمودان :

- (أ) الفلسطيني ويسميه (اليهود الأورشليمي) .
- (ب) البابلي .

والريانيون هم أكبر طوائف اليهود ورئيسهم له حق الإشراف على
أبناء الطوائف الثلاث . وقد انفرد الريانيون بشروح غوامض التوراة التى
وضعها أحبارهم كما أباحوا تأويل نصوصها .

(2) القراءيون :

وهم لم يعترفوا بغير التوراة ولم يتقيدوا بما جاء فى التلمود
ويعتمدون على التقويم القمري فى حساب أعيادهم ومواسمهم . وهم مثل
المعتزلة أو الشيعة فى الدين الإسلامى (الذين وضعوا موقف الحذر من

الروايات الشفوية الإسلامية وتخرجوا من اعتبار الحديث مصدراً أساسياً للتشريع الإسلامي). والقراءيون يلتزمون بعدد أيام كل عيد حسب ما ورد في التوراة (بعكس الرّبانيون الذين أضافوا يوماً إلى أيام كل عيد فيما عدا صييم يوم المعزل / كيور).

(3) السامرة (شومرون) :

وهم الذين كانوا يحجون إلى (جبل جرزيم) في مملكة إسرائيل (الشمالية) بدلاً من الحج إلى الهيكل (جبل صهيون) في مملكة يهوذا (الجنوبية) وقد نشأت هذه الطائفة بعد وفاة (سليمان) (عليه السلام) وسقوط مملكة إسرائيل على يد ملك آشور (تغلات بلاسر) وابنه سرجون الثاني ويذهب بعض الباحثين اليهود أن ذلك كان بعد السبي البابلي على يد (نبوخذ نصر) . وقد أضاف السامريون إلى التوراة عبارات توحى بقسوة جبل جرزيم . وهم لا يؤمنون إلا بالأسفار الخمسة الأولى وأنكروا نبوة من جاء بعد موسى (عليه السلام) بحلاف هارون (عليه السلام) ويوشع بن نون . وهم شديداً الحرص على حرمة يوم السبت . ويؤمنون بيوم القيامة والملائكة ونزول المسيح . وهم أغنى أغنياء طوائف اليهود .

وهناك العديد من العادات التي انتشرت بين اليهود مأخوذة عن المسلمين مثل غسيل الأرجل قبل صلاة الصبح وخلع الأحذية عند دخول المعبد (القراءيون) وقراءة (الشماع) في بداية الصلاة (كما تقرأ الفاتحة في صلاة المسلمين) وعادة طهارة المحتلم بالاستحمام والتطهر قبل الصلاة ودخول المعبد . والصلاة فردية وأحياناً جماعية .

وجرت العادة أن تعرض القضايا التي تقع بين المسلمين والذميين (أهل الكتاب) على قضاة المسلمين . أما بين الذميين بعضهم البعض فكان لهم قضاؤهم الخاص إلا إذا احتكموا إلى بعض قضاة المسلمين . ورئيس القضاة اليهودي يسمى (الشافعي) . وهو المختص بالإشراف على النشاط الديني لمختلف الطوائف التابعة له على قدم المساواة . ويأخذ على عاتقه إلزام اليهود بتطبيق (الشروط العمرية)⁽¹³⁵⁾ وهي :

(1) الشروط المستحقة : وهي ستة شروط :

- (أ) عدم ذكر الإسلام بدم أو قدح .
 - (ب) عدم ذكر الله بطعن له أو تحريف فيه .
 - (ج) عدم ذكر رسول الله (ﷺ) بتكذيب له أو ازدراء .
 - (د) ألا يصيبوا مسلمة بزنا أو باسم نكاح (زواج) .
 - (هـ) ألا يفتتوا مسلماً عن دينه أو يتعرضوا لماله ودمه .
 - (و) ألا يعينوا أهل الحرب (الأعداء) .
- وهذه الشروط ملزمة فإذا نقضوها نقض عهدهم ويحكم بذلك قضاة المسلمين .

(2) الشروط المستحبة : وهي ستة شروط أيضا :

- (أ) لبس الغيار (أي لبس ملابس ذات ألوان مخالفة لملابس المسلمين)
- (ب) ألا تعلو أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم .
- (ج) ألا تعلوا أبنيتهم فوق أبنية المسلمين .
- (د) ألا يجاهروا بشرب خمر وإظهار صلبانهم .

(هـ) أن يَمْنَعُوا من ركوب الخيل (رمز العلو والعزة ومطيّة الجنود فى الحرب) ولا يَمْنَعُوا من ركوب البغال والحمير .

(و) أن يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهرُوا بنذب عليهم ولا نياحة .

و (الناجيديم) لم يبتعدوا عن اليهود ولم يعزلوا أنفسهم كما فعل رؤساء الطوائف اليهودية فى بابل وكانت دورهم مفتوحة لكل اليهود المقيمين والوافدين من أماكن أخرى . وكانت العادة أن يخلف الناجيد ابنه (أشبه بنظام ولاية العهد) وكان يطلق عليه ألقاب مثل (تاج الأمة) و (تاج الرؤساء) و (تاج الوزراء) . وكان يلي الناجيد شخص يسمى (الديان) الذي يفصل فى القضايا المدنية (معظمها خلافات مالية) والكاتب (السوفير) الذي يختص بتحرير العقود والصكوك والبراءات للخصوم ونسخ عقود الزواج والطلاق . ومجالس القضاة اليهودية تُعقد عادة فى المعابد . وقد وضع القضاة اليهود عدة شروط تقضى بضرورة عدم جواز تأجير منازل اليهود للمسلمين أو النصارى . على الرغم من وجود كثير من اليهود يسكنون فى منازل ملُكاً للمسلمين .

وطقوس الزواج⁽¹³⁶⁾ لا تختلف كثيراً فى كافة الطوائف اليهودية وتمائل ما يحدث عند المسلمين (خطبة - قران ومهر وشهود - عقد وصلاة بركة ومأدبة والتقدیس أى الإشهار والإعلان) والمحرمات من المصاهرة تماثل تقريبا المحرمات فى الدين الإسلامى ويزداد عليها زوجة العم أو الخال والجمع بين المرأة وابنة ابنها أو ابنة ابنتها . والشریعة اليهودية تجيز تعدد الزوجات . واستمر ذلك حتى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ثم أبطل الرّبّانيون التعدد وفقاً لأهوائهم لكن القرائین استمروا فى ذلك واشترطوا ما اشترطه الإسلام من العدل بين الزوجات (التوراة لم يرد فيها حَجْرٌ أو حَصْرٌ لعدد معين من الزوجات بخلاف الإسلام الذي حدد العدد

بأربعة كحد أقصى فى المرة الواحدة) وكان همّ وشاغل اليهود الأساسى من الزواج هو إنجاب الكثير من الذرارى . وهناك عادات أخرى تفشت بين اليهود مثل خطبة الأطفال (أحيانا كان يكتب بذلك عقد اتفاق فيه شروط جزائية وغرامات لمن يعدل عن التنفيذ عند البلوغ) وزواج (اليوم)⁽¹³⁷⁾ أى زواج الرجل من أرملة أخيه إن لم تتجب من أخيه على أن ينسب الطفل الأول لأخيه وذلك لـ :

1- ضمان استمرار الأسرة والمحافظة على إقامة الطقوس الدينية للمتوفى .
(أى لتستمر حسناته بعد الوفاة) .

2-استمرار الاحتفاظ باسم المتوفى فى شخص عقبه الذى يولد بعد موته ومن ثم المحافظة على أموال المتوفى وعائلته .

3-الاحتفاظ بأرملة الميت داخل الأسرة لأنها ثروة اقتصادية عظيمة يمكن استغلالها والانتفاع بها .

4-عدم خروج تركة المتوفى إلى عائلة أخرى .

5-انقطاع نسل الميت يُعد غضبا من الله وحرماناً له من تأدية فرائض الدين .

وفى هذا الزواج كان مجرد بسط الثوب على المرأة (الأرملة) يعتبر دليلاً على إتمام الزواج . ولا توجد طقوس أخرى غير ذلك للاحتفال بزواج اليوم حيث أن المرأة كانت تعتبر كزوجة ولا تحل لآخر (غير شقيق زوجها المتوفى) إلا بعد (الحلبصاه) أى طلاقها من أخى الزوج المتوفى . ومن المعروف أن القرائيين يجمعون على تحريم زواج اليوم وقد اختلفت طائفة السامرة مع الربانيين فى هذا الزواج . فطائفة السامريين ترى وجوب تطبيق هذا النوع من الزواج حتى ولو خطب الرجل المرأة ومات قبل الدخول بها :

وقد أقر الربانيون هذا الزواج استناداً إلى بعض فقرات وردت في العهد القديم حيث يقول يهودا لأونات:

* ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها وأقم نسلاً لأخيك (138).

وورد أيضاً في (المِثْنا) ما يؤيد زواج اليوم .

ويلاحظ أن نساء اليهود وبناتهن كن يتسمين بأسماء عربية (مثل ست البنين ، ست الدار ، ست الناس ، ست الكل ، ست الحسن ، أم مخلوف) وهذا دليل على أن اليهود كانوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع المصري . وفيما يتعلق (بالختان) فقد ارتبط عند اليهود بالقربان حيث اكتفت الآلهة بجزء من الإنسان (الجزء الذي يُقْتطع في عملية الختان) وقد كان الختان سنة وعادة شائعة عند المصريين القدماء . وقد شاع عندهم للوقاية الصحية من الأقدار التي تتعرض لها الأعضاء التناسلية وقد اقتبسها اليهود من المصريين وجعلوه مرتبطاً بالقرابين التي تُقدم للفقراء وارضاء الآلهة .

واليهود ينسبون شعيبة الختان إلى (إبراهيم) (إِبْرَاهِيمُ) ويطلقون على كل من يختتن من اليهود تعبير (مِلَّة إبراهيم) أما إذا كان غير يهودي فيطلق عليه اسم (حنيف) وهم لا يؤخرون موعد الختان عن اليوم الثامن لولادة الطفل حتى ولو وافق ذلك اليوم يوم السبت أو يوم الغفران أو غيرهما من الأيام المقدسة . والذي يقوم بعملية الختان يسمى (موهيل) Mohel أى الخاتن أو المطهر الذي يُرخص له بذلك من الحاخامية أو المؤسسة الدينية التي يتبعها وأحياناً يسمح المرأة اليهودية لتقوم بالختان ولغير اليهودي أن يجري الختان للمواليد اليهود . وللمولودة الأنثى يُجرى لها (الخَفْض) . ويتم الختان والخَفْض في الكنيس اليهودي (السيناجوج) . ومن العادات

الشائعة ارتداء نساء اليهود غطاءً للرأس والنقاب أو البرقع (مثل المسلمات) خصوصاً عند الخروج إلى الشوارع . وكن يتسمين بأسماء عربية مثل مِلاح وعَدْب وشمس وعزيرة وشقراء وفخر .

وعن أعياد اليهود تقول د. محاسن الوقاد⁽¹³⁹⁾:

تنقسم أعياد اليهود إلى قسمين : شرعية وغير شرعية .

أولاً : الأعياد الشرعية : وهى خمسة .

أ - رأس السنة (روش هشانه) :

وهو عيد عتق وحرية ويناظر عيد الأضحى عند المسلمين ويعتقد الربانيون أن الكتب تفتح في السماء وتكتب الأعمال ويصدر الحكم على الأفراد والأمم في هذا اليوم ويحل في أول أكتوبر (تشرين) ويستمر ثلاثة أيام .

ب - عيد الغفران (كيپور) (صوماريا) :

أى الصوم العظيم ويحل فى التاسع والعشرين من أكتوبر (تشرين) .

ج - عيد المظلة (الظِّل أوسكوت) :

ويبدأ فى الخامس عشر من أكتوبر (تشرين) وعُرف أيضاً (بعيد الحصاد) لأنه يحدد الفترة الانتقالية من عام زراعى إلى عام آخر وهو عيد للمطر . وعيد الغمام (الذى أظلمهم بعد الخروج من مصر) . وفيه يحمل اليهود أغصان الشجر عن دخولهم المعبد للصلاة ويضربون على الكراسى بهذه الأغصان حتى تتساقط أوراقها كلها ويعتقدون أنه مع سقوط الأوراق تسقط عنهم الذنوب التى ارتكبوها طوال العام . ويستمر الاحتفال سبعة أيام .

د - عيد الفصح (عيد الفطير) :

وهو عيد الربيع وموعده التاسع عشر من شهر أبريل (نيسان) ومدة الاحتفال سبعة أيام عند القرائيين (سنة عند السامرة وثمانية عند الربانيين) وهو إحياء لذكرى نجاة بنى إسرائيل من فرعون . ويسمى أيضا (عيد الفسخ) أى الفرج بعد الضيق . وله أسماء أخرى منها الحظو والمرور والعبور ويصنعون فيه الفطير الذى لا يدخله الملح ولا الخميرة (عند فرارهم من فرعون لم يكن لديهم الوقت لانتظار تخمر الخبز الذى حملوه معهم فى رحلة الهروب أى العبور . وكان بعض اليهود يلجأون إلى خلط عجينة الفطير (فطير الفصح) بدم بشرى يفضل أن يكون من أحد المسيحيين أو المسلمين .

هـ - عيد الأسابيع (العنصرة أو الخطاب) :

وكان موعده فى السادس من يونيو (سيوان) وسمى بعيد الحصاد (سفر الخروج) ويوم البكورة (سفر التثنية) وسمى شفوعات بالعبرية . وفى هذا اليوم نزلت الوصايا العشر على موسى (الكنعاني).

ثانيا : الأعياد غير الشرعية :

وهى التي لم ترد فى التوراة . وهى محدثة ومنها :

أ- عيد الفوز (البوريم) أو (أستير) :

و(أستير) هى المرأة التي نجتهم من (هامان) بزواجها من أحد ملوك الفرس حتى تفسد تدبير وزيره هامان الذي أراد أن يهلك اليهود ودبرت له مكيدة قضت عليه . وموعده الثالث عشر من مارس (آزار) ويُعرف عند الكُتاب العرب (بعيد المسخرة) أو عيد المساخر بسبب ماكان يجرى فيه من إسراف فى شرب الخمر وخلافه .

د- عيد الحنكة (الحانوكه) :

ويبدأ في ليلة الخامس والعشرين من شهر ديسمبر (كسلو) ويستمر ثمانية أيام ويسمى أيضا (عيد التدشين) حيث تم فيه إعادة افتتاح الهيكل عام 165 ق.م أيام البطالمة . والقراءيون لا يعترفون بهذا العيد .

وقد جرت العادة أن يحج اليهود في ثلاثة أعياد هي (الفصح) و (المظلة) و (الأسابيع) . وكان معظم الحجاج اليهود يقومون بزيارة (الخليل) حيث قبور الأنبياء . وقد كان بمصر أماكن خاصة يحج إليها اليهود مثل بيت المقدس تماما مثل (معبد دموه) بمحافظة البحيرة .

ومن أهم المعابد اليهودية في مصر⁽¹⁴⁰⁾:

معبد الفلسطينيين المسيحي المسمى بـ (معبد عزرا الكاتب) في الفسطاط بالقاهرة . ومعبد المصريين (معبد الأستاذ) ومعبد تركية ومعبد ربي دافيد بن أبي زماره ومعبد ذو المعجزة ومعبد الحاخام إسماعيل ومعبد الحاخام يعقوب ومعبد البرتغاليين . ومعبد تلمود التوراة ومعبد حايم كافوسي ومعبد شعر شاميم ومعبد حنان ومعبد موسى بن ميمون . ومعبد دموه ومعبد (عزرا الكاتب) هو الذي عُثر فيه على (وثائق الجنيزة) الشهيرة والتي تؤرخ لحياة اليهود في مصر ومعظم هذه المعابد لا وجود لها الآن . وهي معابد لليهود الرّبانيين . وتوجد معابد أخرى لليهود القراءين منها معبد ابن تسومح ومعبد ابن شميك ومعبد الخازن ومعبد سمحاه ومعبد العباسية (معبد موشيه درعى) .

وعن تاريخ اليهود في (الفترة العثمانية) 1517- 1914 :

*يقول الباحث (أفراهام ديفيد)⁽¹⁴¹⁾ :

ارتحلت أعداد كبيرة من يهود شبه جزيرة أيبيريا (أسبانيا والبرتغال) إلى مصر عقب طردهم منها قبيل نهايات القرن الخامس عشر (خروج العرب من الأندلس) باعتبارها فترة التقاط الأنفاس قبل التوجه إلى فلسطين . وكانت إقامتهم بمصر في المدن والمراكز التجارية الهامة (مدن الساحل والمطلة على النيل) مثل أبى قير والخانكة وبنها والطور والإسكندرية والمنصورة وبولاق بالقاهرة والبرلس وبلبيس ودمياط والمحلة الكبرى ومليج والمنزلة والسويس وفوه والفيوم ورشيد والقاهرة بضواحيها الكثيرة .

*ويشير الباحث (سرجيو ديلابيرجولا)⁽¹⁴²⁾ إلى أن :

حرص اليهود على التمرکز في كبرى المدن بمصر خاصة مدينتي القاهرة والإسكندرية وذلك بخلاف سائر فئات المجتمع والأقليات الأخرى ومن الظواهر الديموغرافية نجد أن بنية المجتمع اليهودي في مصر من ناحية الجنس اتسمت بقدر من الاستقرار حيث كانت الفجوة في العدد بين الرجال والنساء اليهود متواضعة للغاية مما يدل على أن الهجرة إلى مصر كانت هجرة عائلات يهودية بالكامل لا هجرة أفراد ويلاحظ شيوع ظاهرة الزواج المختلط .

*وعن الحياة الاقتصادية يقول الباحث (العازر باشان)⁽¹⁴³⁾ :

أدى الاحتلال العثماني لمصر إلى تحسن وتطور الاقتصاد المصري بعد معاناة - في نهايات العصر المملوكي - من الركود وانخفاض معدلات الانتاج الزراعي والصناعي. واندمج اليهود في الوضع الجديد - مع الحكم

العثماني - بفضل قدرتهم على التكيف فعملوا في مجالي التجارة المحلية والخارجية وفي الصفقات المالية . وكان منهم الأطباء والمترجمين والحرفيين ومجال الوساطة والوكالة التجارية بين الشرق والغرب وتجارة الرقيق والعبيد (المسيحيين فقط) .

* وعن الأنشطة اليهودية في الاقتصاد المصري يشير الباحث (سلومون سظمبولي)⁽¹⁴⁴⁾ إلى :

تشابه أنشطة اليهود في مصر مع تلك التي اشتغل بها سائر السكان عدا مجال الخدمة العسكرية الذي كان قاصراً على المسلمين . وسعى يهود مصر إلى الحصول على حماية القوى العظمى المتمتعة بالامتيازات التي مُنحت لها من قِبَل الامبراطورية العثمانية (قُدر عدد تلك الدول المتمتعة بالامتيازات بخمس عشر دولة) وذلك رغبة في التمتع بالمزايا والامتيازات الممنوحة للرعايا الأجانب . واستغل تجار المخدرات هذه التسهيلات الممنوحة لهم (كرعايا أجانب) أى أنهم كانوا فوق القانون . وكذلك تم إعفائهم من الضرائب .

* وتقول الباحثة (ليئة يورنشتاين - مكوفتسكى)⁽¹⁴⁵⁾ :

. كان الحكم الذاتي الذي مُنح للطوائف اليهودية في مصر طيلة الحكم العثماني هو السمة السياسية المميزة لوجود هذه الطوائف (وذلك من القرن السادس عشر الميلادي) فأدارت الطائفة شئون حياتها على نحو مستقل حيث حصلت الطائفة على رعاية الامبراطورية النمساوية والمجرية .

وشاع في أوساط المجتمع اليهودي في مصر لجوء اليهود إلى المحاكم غير اليهودية في ظروف معينة مثل نقل ملكية الأرض أو تسجيل سندات إيجار وشراء العقارات وسندات القروض ورفع قضايا ودعاوى ضد الغير وضد اليهود الخارجين والرافضين الخضوع للتعاليم اليهودية في التوراة أو التلمود (كأن يتزوج اليهودي من امرأة ثم ترفض محاكم اليهود التصديق على زواجه لسبب أو لآخر فيلجأ إلى المحاكم الإسلامية في ذلك وأيضاً في حالات الطلاق التي لا تعتمد على المحاكم اليهودية) .

• ويقول الباحث (ميخائيل ليتمان)⁽¹⁴⁶⁾ :

تأثرت عملية الهجرة اليهودية إلى مصر بإمكانيات مصر الاقتصادية فضلاً عن قربها من فلسطين وتزايدت أعدادهم خصوصاً فترة تولى (محمد على) الحكم في مصر حيث شجع هجرتهم إليها . وتفشت في تلك الفترة ظاهرة الزواج المختلط غير أن هذه الظاهرة لم تكن مرتبطة بتغيير الديانة . وأيضاً تفشت ظاهرة إقامة الرجال مع النساء دون زواج (سواء عشيقاً أو زوجة أخرى لم يوافق الحاخام على زيجتها أو لم توافق الزوجة الأولى عليها) .

* ويقول الباحث (شلومو زلمان هافلين)⁽¹⁴⁷⁾ :

يرتبط النتاج الفكري ليهود مصر مثله مثل النتاج الفكري لليهود في سائر البلدان بالخلفية الروحية والتوراتية للطائفة اليهودية . وقد أزعج تحريم التوراة الإقامة في مصر كثير من الحاخامات الذين حاولوا تجاوز هذا النهي في ظل ظروف معينة حيث رأى الحاخامات أن التوراة تحرم الإقامة على نحو دائم في مصر ولكنها لا تحرم السكن في مصر باعتبار أن ذلك وضعاً مؤقتاً ريثما تسمح الظروف بالذهاب والإقامة في فلسطين بصفة دائمة .

(انتظاراً لمجيء المسيح المخلص) وهذا الوضع لم يتح فرصة وجود حاخامات من مواليد مصر وكان استخدام حاخامات من الخارج أمراً عادياً ومطلوباً . ومعظم الإنتاج الفكري والروحي لليهود في مصر يتلخص في : التفسير والشرعية وأدب الفتاوى والخطب وتفسير التوراة والتصوف (القبالة) والشعر والتاريخ .

* ويقول الباحث (ديفيد كاسوتو) (148) :

ترتبط أغلب المعابد اليهودية بمصر بعظماء اليهود سواء القدامى أو من العصور الوسطى .

* ويقول الباحث (ميخائيل فينتر) (149) :

أهم السجلات المحلية للفترة العثمانية في مصر هما : ابن إياس وديار بكرى . ويُعد كتاب (سياحة ناما) أو (كتاب الرحلة) الذي وضعه (أوليا شلبى) عام 1614- 1683 م (هو مسلم غير مصري) بمثابة وثيقة بالغة الأهمية لمعرفة تاريخ مصر العثمانية إبان القرن السابع عشر الميلادي (المجلد العاشر) . ويلاحظ أن المماليك كانوا أكثر عداء لليهود من العثمانيين نظراً لأنهم كانوا من المسلمين المتشددين وكان تأثير العلماء عليهم قويا الأمر الذي أثر على علاقتهم مع الأقليات الدينية ومنهم اليهود .

ولقد نافس المسيحيون بكافة طوائفهم (أقباط - يونانيون - سوريون كاثوليك) اليهود في كثير من أعمالهم (إنتاج الخمر وتجارة وتصنيع الذهب والفضة والأحجار الكريمة والصيرفة والإقراض ..) ونتيجة لذلك حدث توتر بين اليهود والمسيحيين والأقباط المحليين وأبناء الطوائف الأصغر وتجلّى هذا التوتر في المجال الديني وفي مظاهر معاداة مسيحية واضحة .

*ويقول الباحث مينا روزن (150) :

كان وجود الفرنسيون واليهود في مصر سابقا على احتلال العثمانيين لها . وقد جعل السلطان (سليمان الرابع) 1520 م من تعاونه مع المملكة الفرنسية حجر أساس لسياسة الامبراطورية العثمانية الخارجية مع أوروبا . فكان الفرنسيون يدفعون حوالي 3% جمارك على تجارتهم مع الامبراطورية العثمانية بينما يدفع غيرهم نسبة 20% جمارك . واليهود (الذين عملوا كوكلاء تجاريين ووسطاء ومترجمين) زاد اتصالهم بالفرنسيين . وقد استعان الفرنسيون في مصر بخدمات اليهود المحليين (مواليد مصر) برغم تعارض المصالح من الناحية الاقتصادية (تنافس وغيره) . واعتبرت الحملة الفرنسية على مصر وسوريا طوق نجاة لليهود في عالم معاد . فقد ألغى (نابليون) الجزية المفروضة على اليهود وألغى أفضلية شهادة المسلم على شهادة المسيحي أو اليهودي وألغى القيود التي حددها الخليفة (عمر بن الخطاب) فيما يسمى بالشروط أو (العهدة العمرية) فنتج عن ذلك :

أ- تساوى اليهود مع المسلمين فعاشوا كمتساويين في الحقوق وفي الواجبات .

ب- تزايد نفوذ الدول الأوروبية الكبرى داخل الامبراطورية العثمانية (وتبع ذلك زيادة الحماية لليهود) .

ج- تحسن مكانة يهود فرنسا في مرحلة لاحقة (فأتاح لهم التأثير على سياسة فرنسا تجاه يهود الشرق) .

د- كسر الإجماع على وضع الذمي في الدول الإسلامية (بسبب أفكار الحملة الفرنسية بالإخاء والمساواة والحرية) فسادت نظرة عدائية تجاه المسيحيين من قبل المسلمين (جنود الحملة الفرنسية المسيحيين) وأيضا

من جانب المسيحيين (فى الامبراطورية العثمانية) تجاه اليهود (الذين ساوهم وتميزوا عليهم) .

* ويقول الباحث (يوسف الجميل) (151) :

كانت طائفة القرائيين اليهود فى أنحاء العالم صغيرة قياساً بالطائفة الربانية . والقرائيون أقاموا فى مصر عبر أجيال طويلة وكانوا ذوى خلفية حضارية مصرية واستخدموا العربية كلغة حديث وكتابة . أما طائفة الربانيين فقد جاء أعضاؤها من كل أنحاء العالم ولذلك تحدثوا وكتبوا بلغات مختلفة وفى القاهرة أقام اليهود فى باب زويلة (حارة اليهود) وكان القراءيون أكثر ثراءً من الربانيين كما كانوا مقربين من الوزراء والزعماء . وكل طائفة اختصت بمعابدها وأهم معابد القرائيين يقع فى الفسطاط (معبد ابن عَزْرَا) والذى أخذ منه الربانيون . ومعبد ابن شميك (معبد ابن تسومح) ومعبد الخازن ومعبد سمحاه ومعبد العباسية ومعبد المصاصة .

وفى بداية القرن العشرين الميلادي جرى فى مصر فحص شامل للمعابد غير الإسلامية ووفقاً لما ادعاه القضاة فقد عُثِرَ على اسم النبى محمد (ﷺ) مكتوباً على أرضية معبد الفسطاط (معبد ابن عَزْرَا) فى مكان وقوف المنشدين . واعترف عدد من اليهود بذلك وُضِرُوا علناً وهم مقتادون فى شوارع المدينة وقدمت السلطات دعوى للمحكمة وحكم القاضى بضرورة هدم المعبد . وبعد عدة ضربات اكتفت السلطات بإغلاق المعبد وبعض المعابد الأخرى .

والجدير بالذكر أن (وثائق الجنيزة) الشهيرة وجدت بمعبد الفسطاط .

* ويقول الباحث (يعقوب دافيد حسون)⁽¹⁵²⁾ :

لقد ظلت الطائفة اليهودية بمصر عربية فى أساسها . فالمؤسسات التعليمية الطائفية اليهودية - حتى تلك التى درست بلغات أجنبية - استخدمت اللغة العربية كلغة دراسية وتعليمية على غرار المدارس المصرية الرسمية . وهذه الطائفة لم تعرف أبداً نمط (الجيتو) أو (الملة) الذى عرفه جيرانها فلم توجد لنفسها أى لغة يهودية ولا حتى موسيقى تنتمى لها بصورة منفردة (على عكس الطوائف الأخرى فى الدول الأخرى) .



الأنثروبولوجيا - الشنات - الاستاتيكية

لم يكن العرب من الأجلاف قبل الإسلام والحضارة التي أقامها العرب في أقل من مائة عام (بالإسلام) هي من أنضر الحضارات التي عرفها التاريخ وكان للعرب قبل الإسلام حضارة لم تكن دون حضارة الآشوريين والبابليين تقدماً . وتلك الحضارة التي أينما حلت ثبتت أصولها ولم يقدر فاتح على زعزعتها وهي من المناعة ما استطاعت أن تهيمن به على الأمم التي حاولت هدمها (كالمغول والترك) وتقهقرت أمام الإسلام في الهند ديانات قديمة وجعل الإسلام مصر العربية تامة العروبة .

إن مبدأ (العلة) المسيطرة على دراسة قضايا العلم يسيطر على دراسة حوادث التاريخ أيضا . فيستطيع صاحب ذكاء ثاقب أن يقرأ سير الأمور المقبلة من خلال الحوادث الحاضرة والأمم نتيجة ماضي طويل وليست نبت ساعة واحدة وهي محصول ما خضعت له من البيئات المختلفة التأثير ولذا يُفسّر حاضرها بماضيها .

ولم تعتبر بلاد الحِجْر ضمن أقسام الجزيرة العربية - حسب رأى الجغرافيين العرب - ولكنها تُعد كذلك من الناحية الإثنوغرافية . وتتألف بلاد الحِجْر من جزيرة سيناء الممتدة من حدود فلسطين إلى البحر الأحمر . وجزيرة سيناء هي بلاد الآدوميين والمديانيين والعمالة والأنباط الذين ذكروا في كتب العبريين كثيراً . وفيها تاه بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر (أربعين عاماً) وعلى جبل الطور - في وسطها - كلم موسى (ﷺ) ربه وتلقى منه الشريعة (التوراة) ، وفيها كهف جبل حوريب الذي توارى فيه إيليا خوفاً من غضب الملكة إيزابيل .

و (العِرْق) أو النوع البشرى - كما يقول د. جوستاف لوبون⁽¹⁵³⁾ - يدل على جماعات ذات أخلاق مشتركة تنتقل إليها بالوراثة انتقالاً منظماً . ويرى الذين لم يدرسوا علم أوصاف الإنسان أن (الأمة) و (العِرْق) كلمتان مترادفتان تقريباً مع أن لهما معاني مختلفة تماماً .

فـ(الأمة) هي جماعة من الناس ينتسبون في الغالب إلى عروق كثيرة جمع بينها نظام حكم واحد ومصالح واحدة (مثل الأمة الإنجليزية و الألمانية) ولا يجوز أن نطلق عليها كلمة عرق فنقول العرق الإنجليزي أو العرق الألماني . و (العِرْق) يلزم استقرار أخلاق واحدة وصفات جثمانية واحدة بفعل البيئة والتوالد والوراثة . ويتطلب كسب هذه الأخلاق زمناً طويلاً جداً . والصفات الموروثة إذا كانت لا تستقر إلا ببطء فإنها لا تزول أيضاً إلا ببطء . وبأقصى البطء تندمج العروق وتتحول - خلال قرون طويلة - إلى أمة .

وقد دلت حوادث التاريخ على أن العِرْق إذا ما استقرت أخلاقه وسجاياه بالوراثة وبلغ غاية الكبر عجزت البيئة عن التأثير فيه وصار أهون عليه أن ينقرض من أن يتحول . من أجل ذلك نرى بنى إسرائيل يحافظون على مثالهم الثابت في كل قطر . ومن أجل ذلك أيضاً تعذر على بلاد مصر الحارة مع ماضيها من قوة صهر أن تحول العروق المسنة التي استولت عليها واحداً بعد الآخر فكانت قبراً لكل واحد فيها . وإنما تؤثر البيئات في العروق الحديثة . وصفات أمة مقهورة صغيرة تزول بالتوالد أمام صفات أمة منتصرة كبيرة .

ولا تصلح اللغة والدين والجماعات السياسية والصفات التشريحية (شكل الجمجمة - ولون الجلد والسحنات) لتقسيم العروق وإظهار الفروق الدقيقة بين الأمم المتقاربة (كالأمم الأوروبية مثلا) وإن صلحت الأوصاف التشريحية لتقسيم الأجناس البشرية الظاهرة الاختلاف البادية التباين. بيد أنه توجد صفات نفسية (سجايا خلقية) ثابتة ثبات الصفات التشريحية. وتأتى الصفات النفسية المتشابهة بنتائج متشابهة دائما كما تأتى الصفات التشريحية بنفس النتيجة.

وتختلف الأخلاق باختلاف العروق (يفسر ذلك علّة الفوضى السائدة لجمهوريات أمريكا اللاتينية الجنوبية وما تتمتع به الولايات المتحدة الأمريكية من السعادة والرخاء رغم تماثل نظم هذه البلاد وتلك).

ودراسة النظم السياسية (التي هي معلومات لا علل) هي التي ترشدنا إلى سر الدور الذي تمثله الأمم في التاريخ حيث تتأثر الأمم - بعمق - بمختلف العناصر التي تدخل في تركيبها (الفرنسيون يتألفون من عناصر مختلفة مثل الكمريين والنورمان والسلت والأكيّتان والرومان وغيرهم).

ويُعد العرب واليهود والفينيقيون والعبريون والسوريون والبابليون والآشوريون الذين استوطنوا جزيرة العرب وآسيا الصغرى حتى الفرات من أصل واحد يطلق عليه (الأرومة السامية). وتقوم قرابة هذه الأمم على تجانس لغاتها واشتراكها في صفات جثمانية متماثلة وهذه القرابة السامية التي لا نجزم بها نراها ترجع - على فرض وجودها - إلى ما قبل التاريخ. وظهور أمة ذات حضارة راقية على مسرح التاريخ ليس إلا ثمرة ماضٍ طويل ولا يعنى جهلنا لهذا الماضي عدم وجوده وتعد العرب أقدم من العبريين بكثير.

ويقول (د. جمال حمدان) (154) :

أول ما نسمع عن اليهود فى التاريخ مع (إبراهيم) (عليه السلام) أبى الأنبياء الذى ظهر مع قومه فى القرن الثامن عشر ق.م كجماعة من الرحل على المشارف والتخوم الاستبسية لجنوب العراق الذى كان يؤلف دولة الكلدانيين فى (أور) .

ومن قبل كان إبراهيم (عليه السلام) وقومه قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية التى نشأوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة التى تأصلت فى ذلك (الخزان البشرى) الشهير الذى لم يتوقف عن أن يقذف كإقليم طرد و كصحراء فقيرة ولكنها ولود يقذف بالموجة تلو الموجة إلى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة . ففي حوالى عام 1800 ق.م هاجر إبراهيم (عليه السلام) وقومه فى دورة عكس عقارب الساعة شمالا بغرب ثم جنوبا على طول حواف الهلال الخصيب حتى وصلوا إلى (حوران) ثم إلى فلسطين . وهناك يولد له إسحاق وإسحاق يولد له يعقوب المكنى بإسرائيل ومن أبناء يعقوب الإثنى عشر الشهيرة (الأسباط) ستأصل القبائل الإثنا عشر المعروفة فى التاريخ والتوراة . وإن كانت هجرة إبراهيم (عليه السلام) إلى فلسطين أولى هجرات القبائل العبرية فإنها لم تكن الأخيرة (الهجرة الثانية مثلا كانت فى القرن 14 ق.م) . وعندما دخل العبريون أرض كنعان فلسطين (وجدوها مسكونة بالكنعانيين) فى التوراة هم أبناء كنعان بن حام بن نوح (عليه السلام) وهم أول من سكن فلسطين وفى الدراسات السامية القديمة أنهم - الكنعانيين - قبيلة سامية من الساميين الشماليين الذى جاعوا من الجزيرة العربية منذ 2500 ق.م (وفى رواية أخرى 3500 ق.م) واستقروا فى فلسطين وأقاموا بها حضارة راقية . ورحل جزء منهم إلى الساحل اللبناني حيث

عرفوا بالفينيقيين. وفي أرض كنعان (الأرض المنخفضة) كانت توجد قبائل سامية أخرى صغيرة مثل الأدوميين والعمونيين والموابيين خاصة حول جنوب البحر الميت وكذلك العموريين (الأموريين) بعيداً إلى الشمال (أولاد أناك Anak في التوراة) أما في سوريا فقد استقر آراميون كموجة سامية منذ القرن 14 ق.م (في تاريخ يتعاصر مع الموجة الثانية للعبريين) أما الفلسطينيون (الفلسط) فهم الأحداث عهداً من العبرانيين في المنطقة (ساحل البحر) وأصلهم من شعوب البحر sea people (يرجع أصلهم من جزيرة كريت) 1200 ق.م (أيام حرب طروادة) . وأغلب تاريخ اليهود في تلك المرحلة تاريخ دموي لا أخلاقي يدور حول الحرب والغزو فحاربوا الكنعانيين ليستقروا بأرض كنعان وهزموا من أقوى أعدائهم الفلسط (الفلسطينيين) حتى إذا كان منتصف القرن 17 ق.م (أى بعد 150 عام من هجرة إبراهيم (عليه السلام) هاجر يعقوب (عليه السلام) وأولاده إلى مصر بسبب القحط المشهور واستقروا بأرض جاشان (جوشن) land of Goshen بوادي الطيملات بمحافظة الشرقية نحو 350 سنة إلى أن خرج بهم منها موسى (عليه السلام) وهو من الجيل السابع بعد إبراهيم (عليه السلام) حوالي 1300 ق.م هرباً من اضطهاد فرعون مصر لتهاونهم في خيانة واضحة مع الهكسوس غزاة مصر . وفي حوالي عام 1000 ق.م . وُحد داود (عليه السلام) الأسباط من (دان) في الشمال إلى (بير سبع) في الجنوب (أرض إسرائيل) Israel Erets واتخذت ييوس (أورشليم) عاصمة لها . ولم تلبث أن انشطرت المملكة بعد ابنه وخليفته سليمان (عليه السلام) صاحب الهيكل إلى مملكتين :

1- مملكة يهوذا (جنوبا) فى هضبة يهودية وتضم قبيلتى يهوذا وبنيامين .

2- مملكة إسرائيل (شمالا) فى السامرة . وتضم القبائل العشر الباقية (باقى الأسباط) ، وأصبحتا الدولتان متعاديتان متحاربتان ووقعتا فى سياسة المضاربة بين مصر والعراق أو الخضوع لهما . فتعرضت المملكة الجنوبية (يهوذا) لطرق مصر مرتين الأولى على يد (شيشنق) والثانية على يد (نخاو) . إلى أن جاء الدور على المملكة الشمالية (السامرة) حين قضى عليها نهائيا (سرجون) الآشورى عام 721 ق.م ثم قضى (نبوخذ نصر) البابلى على المملكة الجنوبية عام 586 ق.م حيث دمر أورشليم والهيكل وبذلك زالت دولة اليهود فى فلسطين بعد حياة طولها أربعة قرون فقط بينما إقامة اليهود المتصلة فى فلسطين لم تزد على ستة قرون (من 1200 ق.م - 586 ق.م) .

وعن موضوع (الشتات اليهودي) يقول د. جمال حمدان ⁽¹⁵⁵⁾ أنه كان على أربعة مراحل :

(1) الشتات البابلى :

وفيه نقل (سرجون الثانى) الكثير من إسرائيلى (السامرة) من أبناء القبائل العشر إلى بابل وأسكن مكانهم بعض أسراه من البلاد المفتوحة الأخرى. ثم جاء (نبوخذ نصر) الذى نقل أغلب اليهود أسرى إلى بابل (يقال ثلاثة أرباع مليون نسمة) . وبعد هزيمة بابل على يد ملك الفرس كسرى (قورش) عام 538 ق.م احتلوها واحتلوا ممتلكاتها فى فلسطين وسمحوا لليهود بالعودة إلى أورشليم (بعد نصف قرن من السبى البابلى) غير أن قلة ضئيلة هى التى عادت (تقدر بنحو 50 ألفا) والأغلبية المطلقة بقيت فى العراق حيث كونوا مستعمرات مهمة نمت حتى

بلغت في عهد المسيح (الصلوات) مليوناً من البشر . وقد امتد انتشار اليهود في العراق شمالاً إلى كردستان غير أن يهود العراق مع كل سكانه تعرضوا للإبادة مع الطوفان المغولي (فوصل عددهم إلى بضعة آلاف) وكان يهود العراق هم نواة الشتات شرقاً . فمنهم انشطر يهود فارس الذين غادروا العراق لأول مرة في عهد (كسرى) ولكن هجرتهم الكبرى كانت في القرن الثاني عشر الميلادي . وبالمثل كان يهود هيرات في أفغانستان ويهود بخارى وسمرقند في التركستان شطية من نواة فارس . ويقال أن يهود القوقاز (في القرن الخامس الميلادي) أتوا من فارس ونواتها القديمة . وانتشروا بعد ذلك في الشرق الأقصى (الهند والصين) . وفي الحجاز كانت المدينة (يثرب) وخيبر من معاقل اليهود . غير أن الأرجح أن يهود الجزيرة العربية كانوا في معظمهم عرباً محليين متحولين وليسوا من يهود فلسطين الوافدين . أما في اليمن فقد تحولت أعداداً كبيرة من سكان العصر السبئي (نسبة إلى مملكة سبأ) إلى اليهودية وكان أحد ملوك سبأ يهودياً (في القرن السادس الميلادي) ويدعى (ذو النواس) . كذلك كان المهاجرون الحضارمة الذين عمروا الحبشة وأسسوا الامبراطورية الحبشية يهوداً أصلاً ثم تحولوا مبكراً إلى القبطية غير أن ظهور الإسلام صفى الوجود اليهودي واليهودية تماماً في الجزيرة العربية نفسها فيما عدا اليمن . وهناك من يرى أن اليهود دخلوا شمال أفريقيا مع الفينيقيين .

(2) الشتات الهليني :

بعد قرنين من السيادة الفارسية بدأت فتوح الاسكندر الأكبر واستمرت مع السلوقيين والبطالمة ثم البيزنطيين . والاتجاه العام في هذا الشتات نحو الغرب .

وكان هناك مركزان لتركيز اليهود : البلقان وسواحل البحر الأسود الشمالية . وكل يسبق العصر المسيحي بوقت طويل . وقد ذهب كثير من اليهود مع الإغريق بعد الاسكندر الأكبر إلى القرم بسواحل البحر الأسود . وقد أفلت هؤلاء اليهود من طرقات وموجات القوط والهون والنتار التي اجتاحت جنوب روسيا. غير أن النتار قد لعب دوراً مهماً في التاريخ اليهودي حيث قامت منهم دولة في القرن السابع الميلادي (دولة الخزر التتارية) التي تحولت بالجملة إلى اليهودية أيام شارلمان .

وقد كان للخزر مركزان أحدهما على سواحل بحر الخزر (بحر قزوين) عند مصب نهر الفولجا والثاني في القرم . وقد ألغى المركز القزويني في القرن العاشر الميلادي وظل مركز القرم حتى القرن الحادي عشر إلى أن تحطم على يد دولة كييف السلافية الجديدة التي تمثل طلائع الدولة الروسية الحديثة .

(3) الشتات الروماني والوسيط :

وذلك في حركة مع عقارب الساعة إلى الغرب بدأ مع الثورة المكابية واكتمل مع الفتح الروماني لفلسطين (بداية العصر المسيحي) . فلقد تواترت ثورات اليهود (أقلية في فلسطين) على الحكم الروماني الذي رد بتخريب أورشليم والهيكل وبإبادة اليهود في مذبحه عام 70م (تيتوس) والتي صفّت أغلبهم محلياً وفر منها أقلهم إلى مصر وسوريا غير أن بقايا اليهود عادوا إلى الثورة في عام 135 م . حيث قوبلوا بمذبحة نهائية (هادريان) أو هدرانوس ختمت إلى الأبد على مصير اليهود في فلسطين كدولة وقومية .

وقد حرّم الرومان على اليهود دخول القدس نهائياً وطردوهم من فلسطين (الخروج الأخير) وتحولت الشراذم القليلة جداً إلى المسيحية ولم يزد عدد اليهود في فلسطين كلها على عشرة آلاف نسمة .

وبعد تلك السلسلة من المجازر والتشريد والطرْد تحول اليهود من الشراسة والعنف فجأة إلى الاستضعاف والخنوع وحقق اليهود أغراضهم بالوسائل الناعمة والملتوية وبالتزلف والمكر والخديعة . ويرجع (هنتجون) هذا التحول في الشخصية الجماعية إلى عملية الانتخاب التي فرضتها تلك المجازر حيث بادت العناصر المناضلة والمقاومة ولم يبق إلا عناصر الجبن والمسكنة والخبث وهى طباع استمرت حتى اليوم . ومنذ القرن الثالث الميلادي وصل اليهود إلى الراين حيث تحولت فرانكونيا (عاصمتها فرانكفورت) إلى قاعدة رئيسية ونواة لهم وأصبحت فرانكفورت عاصمة يهود الشتات الجديد واستمرت تلك العلاقة التاريخية الوثيقة بين اليهود وفرانكفورت عبر القرون إلى يومنا هذا . وفى العصور الوسطى التى أتت بالحروب الصليبية اشتعلت نار الاضطهاد الديني ضد اليهود فى جميع أنحاء أوروبا مثلما أثير ضد العرب وخارجها وهناك بدأت عمليات الطرد بالجملة والإبادة التى أدت فى النهاية إلى تغيير جذرى فى توزيع اليهود فى أوروبا وبدأت ثنائية الأشكناز والسفارديم (Ashkenasim - sephardim) وهما كلمتان قديمتان فى التوراة استعارتهما التقاليد اليهودية فى العصور الوسطى لتمييز بين يهود ألمانيا (أشكناز) ويهود أسبانيا (سفارديم) اعتقاداً منهم بأن يهود ألمانيا ينحدرون من نسل قبيلة (يهودا) ويهودا أسبانيا من نسل قبيلة (بنيامين) والسفارديم يعدون أنفسهم (أرستقراطية) اليهود على الأساس الديني غير أن الأشكناز يؤلفون الأغلبية العديدة (80% - 90%) والطبقة المسيطرة (المتفوقة حضارياً) .

وتمثل آثار لقاء يهود الأشكناز (الألمان) ويهود الخزر (القزوين والقرم) الذين ينقسمون إلى يهود قرائين ويهود القرمشاك الربانيين Krimshaks كما تمثل في يهود ليتوانيا القرائين . وأصبح هذا اللقاء تراكما عدديا وتكتيلا لليهودية نتج عنه أكبر تجمع لليهود في العالم حتى اليوم وتحول كذلك إلى عملية خلط ومزج وصهر يسود فيها يهود الأشكناز عدديا وحضاريا . وأصبح أهم ألسنة اليهود (التي لا حصر لها) هي اليديشية Yiddish المستمدة من اللهجة الألمانية العليا التي حملها معهم يهود الغرب (وكلمة يديش تحريف لكلمة يهودي بالألمانية) .

أما السفارديم (الأسبان) فتبدأ قصتهم مع طرد اليهود والعرب من أسبانيا بعد سقوط دولة العرب في الأندلس . (حروب الاسترداد Reconquista) 1492 م . وكانت لغتهم الأسبانية المحرفة المعروفة باسم اللادينو Ladino وظلوا حتى اليوم يلبسون لباساً خاصاً ويبدون خصائص حضارية وثقافية تذكرهم بقوة بفترة إقامتهم الأسبانية .

(4) الشتات الحديث :

وهي قصة اليهودي التائه المتحول من أول الشتات (قبل الميلاد) إلى آخر الشتات في مطلع العصور الحديثة (القرن 19 ، 20 الميلاديين) . وينقسم هذا الشتات إلى ثلاث مراحل :

أ- الانتشار الأول والأهم :

وهو الذي بدأ مع فتح باب الهجرة إلى أمريكا على ثلاث مراحل :

1- العصر الاستعماري (القرن 16-17م) ومصدره أسبانيا والبرتغال وقوامه السفارديم . وكان محدود القوة عدديا .

2- عصر الثورات والاضطرابات السياسية التاريخية فى القارة الأوروبية وحمل إلى الولايات المتحدة نحو 230 ألف يهودي (ثورتي 1830 ، 1848م) .

3- مرحلة ما بين عامى 1881 ، 1914 م ، وكان قطبها المركزي فى الإرسال روسيا القيصرية بالإضافة إلى النمسا والمجر ورومانيا . وهذا التجمع (فى الولايات المتحدة وكندا) هو الذى أصبح اليوم أكبر تجمع لليهود فى العالم . وانطلقت بعض الهجرات المحدودة إلى أمريكا الجنوبية (البرازيل والأرجنتين) وفى الشرق الأقصى السوفيتي أقيمت جمهورية بيرو بيدجان Birobidjan اليهودية فى حوض نهر الآمور .

ب- الانتشار الثانى (فترة النازية) :

أدى ذلك إلى خروج وهروب اليهود من الرايخ الألماني وأوروبا الوسطى إلى الولايات المتحدة وفلسطين .

ج-الدورة الصهيونية :

وهى الدورة التى قامت بعملية إسقاط على العرب لكل تجارب يهود الشتات من إبادة وطرد وخروج (ابتداء من الأسر البابلي حتى الفترة النازية) واغتصاب فلسطين ، وتسميه الصهيونية - افتراءً - بحرب الاستقلال والعودة إلى أرض الميعاد وزعم الصهاينة أن تلك العملية ليست إلا عملية (تبادل سكان) ويعتقد د. جمال حمدان أن هذه المرحلة لن تكون إلا مرحلة فى رحلة الشتات التاريخية مجرد جملة اعتراضية فى تاريخ فلسطين وقريب هو لا شك الخروج الجديد⁽¹⁵⁶⁾.

وبخلاف طائفتي الأشكناز والسفارديم توجد طائفة ثالثة من اليهود تسمى (اليهود الشرقيين) Oriental Jews وهؤلاء استمدت أصولها القديمة من فلسطين رأساً أو من مراكز يهودية ثانوية وهم الأدنى مرتبة في الهيراركية اليهودية وإليهم تنتمي مستعمراتهم في شمال أفريقيا والعراق واليمن والقوقاز وإيران والتركستان الروسية والهند والصين.

والتحول إلى اليهودية (من المسيحية أو الوثنية) يأخذ شكلين رئيسيين :

(1) التحول الفردي : المستمر في كل مكان وزمان بالتزاوج العلني والسري والعلاقات الجنسية غير المشروعة.

(2) التحول بالجملة : وأهمها حالة الخزر والفلاشة (يهود أثيوبيا) واليهود السود من التأميل واليهود القرائين في طوزوس .

والنشاط التبشيري اليهودي لا يتوقف (بتحول الوثنيين إلى يهود) .

والصهيونية تتاجر في الاضطهاد . بل إن الفكرة الجذرية في خلق إسرائيل ليست في النهاية إلا فكرة العزلة الاجتماعية (الجيتو Ghetto) بحذاقها ولكن على مقياس مجمع كبير . فهي وعاء موحد لاستبقاء انعزالية اليهود على الجوييم (الغرباء) وتضادهم معهم . إنها - إسرائيل - الجيتو دولة أو هي دولة الجيتو . واليهود يتألفون - الآن - من دماء مختلطة كأشد ما يكون الاختلاط .

ويرى (ريلي) أن اليهود يأخذون أينما كانوا صفات السكان الذي هم مقيمون بينهم (شكل الرأس وهو الأساس الأنثروبولوجي الأول ثم لون البشرة) .

ويرى (لومبروزو Lombroso) أن اليهود جنسيا آريون أكثر منهم ساميون . أى أنهم أوريون تهودوا أكثر منهم يهود تأوريوا .

وفى دراسة حديثة قام بها الأنثروبولوجى البريطانى (جيمس فنتون) على يهود إسرائيل توصل فيها إلى أن 95 % من اليهود ليسوا من بنى إسرائيل التوراة وإنما هم أجانب متحولون أو مختلطون . ومعنى هذا أن الصلة الجنسية بين يهود اليوم ويهود التوراة مُنْبَتة وفاقدة تماما من الناحية العملية وأنهم بالفعل أوريون سلاف وآريون أكثر منهم ساميون .

وعلى هذا فلا يجوز أن نطلق على اضطهاد اليهود - اليوم - أنه ضد السامية (الاضطهاد النازي لليهود لم يكن فى جوهره إلا اضطهاد ألمان لألمان لا يقل معظمهم عنهم فى الآرية والنوردية وإنما يختلفون فقط فى الديانة وطريقة الحياة) . وأيضا تسقط ببساطة وتلقائية أى دعوى قرابة دم بين العرب واليهود .

ففيهود التوراة والعرب أبناء عمومة تاريخية فحسب أما الآن فقد ذاب النسل اليهودى فى الدماء الأخرى . ووجود اليهود فى فلسطين اليوم هو وجود غرباء فى منفى ودخلاء بلا جذور ولا علاقة لهم جنسيا أو أنثروبولوجيا بفلسطين . وبالتالي يسقط أى ادعاء أساسى للصهيونية فى أرض الميعاد فاليهود الآن ليسوا قومية ولا هم شعب أو أمة بل مجرد طائفة دينية تتألف من أخلاط من كل الشعوب والقوميات والأمم والأجناس .

ولا وجه للمقارنة بين ما حدث للسود والأفارقة (المرحلون عنوة كعبيد إلى الأرض الجديدة فى أمريكا) وبين اليهود فى فلسطين . فإذا كان زنوج أمريكا هم فعلا وحقاً من سلالة أفريقيا فإن الأغلبية الساحقة من اليهود اليوم

ليسوا من بنى إسرائيل وسلالة فلسطين فى شىء . وإذا كان (نظريا) هناك حقاً تاريخيا وجنسيا لعودة زنوج أمريكا إلى أفريقيا فليس لليهود مثل ذلك الحق بتاتا بالنسبة لفلسطين .

ويقول (د. عبد الوهاب المسيرى) (157) :

أنه إذا كان (بلفور) قد حل المسألة اليهودية فى إنجلترا بالتخلص من اليهود عن طريق إرسالهم إلى فلسطين فإن الحل لم يكن متاحاً (لهتلر) لعدم وجود مستعمرات لدى ألمانيا النازية ولهذا تخلص من أغلبهم بإبادتهم . أى أن الدول الغربية خلقت صهيونية بنىوية (أى بنية قانونية) وظروفا موضوعية تفرض على اليهود الهجرة إلى فلسطين شاعوا أم أبوا . وعلى الرغم من تباكى الدول الغربية على مصير اليهود فإن معظمها أوصدت أبوابها دونهم ورغم هذا فإن الدولة الصهيونية آخذة فى النضوب لأن أعضاء أكبر جماعة يهودية فى العالم (فى الولايات المتحدة الأمريكية) لا يهاجرون إلى فلسطين ويهود العالم الغربى إن هاجروا يتجهون إلى الولايات المتحدة ويتبع يهود أمريكا اللاتينية وغيرهم نفس النمط وقد تم تصفية يهود العالم الشرقى والإسلامى فلم يبق سوى أفراد قلائل . وتساهم معدلات الاندماج والزواج المختلط وكذلك عزوف اليهود عن الإنجاب فى تناقص العدد الكلى لليهود . ولم يبق سوى الاحتياطي البشرى الوحيد فى الاتحاد السوفيتى ولكنهم يفضلون - عند الهجرة - الذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية (أغلقت الولايات المتحدة الأمريكية أبوابها فى وجه المهاجرين اليهود السوفيت حتى يتدفقوا صاغرين إلى إسرائيل) .

وللمزيد من الخوض فى المسألة اليهودية بأخذنا البولونى (إبرهام ليون) (158) فى دراسة علمية لتلك المسألة، ويقول (عماد نويهض) مترجم الكتاب:

إن علينا ألا ننطلق من الدين لتفسير اليهودي بل على العكس علينا أن نفسير المحافظة على الدين أو القومية اليهودية انطلاقاً من (اليهودي الواقعي) أي من دور اليهود الاقتصادي والاجتماعي .

ومنذ قيام دولة إسرائيل عام 1948 م بدأت مرحلة تاريخية تميزت بـ :

1- قيام مخفر أمامي لحراسة مصالح الاستعمار في المشرق العربي حيث أن الاستراتيجية الأمريكية تعتبر دولة إسرائيل عملياً بديلاً من التدخل المباشر لقواتها العسكرية .

2- تحويل الجزء الأكبر من الشعب الفلسطيني إلى شعب من اللاجئين .

3- قيام أنظمة متقدمة بقيادة البرجوازية الصغيرة .

ومنهج (إ. ليون) في دراسته هو - حسب ماركس - أنه يجب ألا نبحث عن سر اليهودي في دينه بل فلنبحث عن سر اليهودي الواقعي . والحقيقة فإنه ليس في الاستمرارية اليهودية أية معجزة حيث يقول (ماركس) :

*لم تستمر اليهودية بالرغم من التاريخ بل سارت معه .

*التناقض بين دولة ودين معين - اليهودية مثلاً - نعطيه تعبيراً إنسانياً حين نجعل منه تناقضاً بين الدولة وبين عناصر علمانية معينة .

ويقول (جوفينال Juvenal) (159) :

أن اليهود لم يولدوا إلا لخلق المتاعب لسائر الشعوب .

وأطلق (سينيك Seneque⁽¹⁶⁰⁾) على اليهود لقب العنصر المجرم .

ويقول (كنتيليان Quintilien) ⁽¹⁶¹⁾ أن اليهود شؤم على غيرهم من البشر.

ويشكل اليهود فى التاريخ مجموعة اجتماعية لها دور اقتصادي محدد .
أنهم طبقة أو بالأصح شعب - طبقة .

ويقول (كاوتسكى) ⁽¹⁶²⁾:

يمكن لطبقات مختلفة أن تكسب طابعا عنصريا معينا .

وتختلف الرأسمالية اليهودية عن الرأسمالية بمعناها العلمي حيث أن الأولى لا تتطوى على أسلوب إنتاجي معين بل كان ذلك من الاستغلال الإقطاعي حيث كان الأسياد مجبرين على التخلي عن جزء من فائض هذه القيمة لليهود .

وهناك أربعة مراحل رئيسية فى التاريخ اليهودى الحديث ⁽¹⁶³⁾ :

(1) مرحلة ما قبل الرأسمالية :

وقد اتسمت بالثراء الفاحش لليهود (التجارة والربا) .

(2) مرحلة الرأسمالية فى العصور الوسطى :

وتبدأ من القرن الحادي عشر الميلادي حيث دخلت أوروبا الغربية مرحلة التطور الاقتصادي الكثيف ثم غزو الاقتصاد البضاعي (السلع) للميدان الزراعي وطرد اليهود من التجارة وتحويلهم إلى مربيين (ألمانيا وإيطاليا) أما فى أوروبا الشرقية فقد كان اليهودى تاجراً ووسيطاً .

(3) مرحلة الرأسمالية المانيفاتورية والصناعية :

وقد بدأت الرأسمالية الحديثة فى عصر النهضة حيث شارك اليهود فى تطورها ومنذ بداية القرن التاسع عشر بحث اليهود عن اتجاهات جديدة للهجرة (إلى روسيا وألمانيا ثم نحو أمريكا) ولعبوا دوراً تجارياً وصناعياً مهماً مما أدى إلى ولادة (البروليتارى اليهودي) وبدأ عندئذ التمايز الاجتماعي لليهود .

(4) مرحلة انحطاط الرأسمالية :

زادت أزمة النظام الرأسمالي فى القرن العشرين من تفاقم وضع اليهود ونمت لاسامية عنيفة عند الطبقات الوسطى وسحق اليهود بين نظامين الإقطاعي والرأسمالي الذى حاول كل منهما تصفية الآخر .

ويقول (هنرى بيرين H.Pirenne)⁽¹⁶⁴⁾ :

إن اليهود يشكلون الطبقة الوحيدة التى تستمد وجودها من التجارة وأن الاقتصاد الطبيعي بحاجة دائمة لليهود (كمرايين وتجار) وانتهيار الاقتصاد يعرض وضع اليهود للخطر .

ويقول إلخاخام اليهودي (أليزر بن ناتان)⁽¹⁶⁵⁾:

إن التجارة وسيلة معيشتنا الرئيسية .

ويقول (ل. برنتانو⁽¹⁶⁶⁾) :

لا تفسر مؤهلات اليهود الغريزية للتجارة وضعهم الاقتصادي بل إن وضعهم الاقتصادي هو الذى يفسر مؤهلاتهم التجارية . وقد جلب الاحتكار الربوى